رواية:

العالق في الزمن

ولاء عوده أبو غندر

العنوان: العالق في الزمن

تأليف: ولاء عوده أبو غندر

الطبعة: الأولى ٢٠١٦م عن دار نوفابلس

ردمك:٩٧٨-٩٩٩٦٦-٩٤-٥٠-٩

رقم الإيداع:٢٠١٦\١٢٦٧

جميع الحقوق محفوظة

إلى "أمانـيِّ" معلقة

لا يستقيم دونـها نجاح

وإلى "أمانـيِّ" واهية

خوتْ عروشها من الحلم

وإلى "أمانـيِّ" أخرى أحبها

تُشكل معيّ حلفاً من المجانين.

إليك شقيقتي أمانـي .

المغامرة الأولى (الثورة)

{ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا }

(٣٢)سورة المائدة .

الفصل الأول: الأمنيـــــــــة

إن التاريخ في ظاهره لا يزيد عن الإخبار؛ ولكن في باطنه نظر وتحقيق.

ابن خلدون.

في سويسرا في "برنْ"، وأمام متحف "ألبرت أينشتاين" وقف "رائد" شارعاً ذراعيه هاتفاً بحماس: "زين"، أخيراً نحن أمام المتحف.

بحرج أجابه زين وهو يتلفتُ حوله: رائد كن هادئاً رجاء، الجميع ينظر نحونا!

التفت إليه وأجابه بغير اكتراث كعادته: ما المشكلة؟ المهم أنني أصبحتُ هنا بالنهاية.

سبقه ببضع خطوات ثم أجابه بضجر: تباً لك، أكره أن أعترف بذلك؛ لكنك حقاً تملك كاريزما عجيبة، أكاد لا أصدق أنني أقف هنا معك أمام المتحف!! وأنا الذي كنت رافضاً أشد الرفض بداية الفكرة!! ما ضرك لو اكتفيت بمتحف العلوم البريطاني؟ حقاً لماذا تبعتك أنا لهنا!!

أشاح بوجهه عنه وهو يتقدمه ويقول: لا وقت للنواح الآن، المهم أنت هنا في النهاية، آسف حقاً لإرغامك على السفر معي لكن كنتُ أريد هذا المتحف بالذات؛ لأن أينشتاين عاش هنا سبع سنوات، كما وأنه من هنا وضع نظريته النسبية الشهيرة.

رفع حاجبيه وبلهجة ساخرة رد: رائد، صدقني كان من المفترض أن تدرسَ التاريخ لا الفيزياء، أخبرني ما الذي فعلته بمشروع تخرجك؟! لا شيء أكيد.

رفع كوب القهوة وقرَّبه من فمه وهو يقول: أتسخر مني ؟! اهتمامي بالتاريخ شيء، وحبي للفيزياء شيء آخر، من يدري ربما أصنعُ آلة الزمن ذات يوم.

بتهكم رد: انهي أولاً مشروع تخرجك، ثم اصنع آلة الزمن كما يحلو لك.

ابتسم بمكر وهو يجيبه: إن صنعتها زين، فإني سأقذف بك داخلها لتنال شرف أن تكون أول مسافر عبر الزمن.

أشاح بوجهه وأجابه: أنا أتنازل عن هذا الشرف لك.

ثم حك شعره بإهمال وأردف متسائلاً بلهجة جادة: لكن حقاً إن كان هذا حقيقياً وصنعتها، في أي زمن يريد هذا الحالم أن يذهب؟

توقف للحظة ونظر إليه متعجباً وقال: أتعلم؟ لم أفكر حقاً بهذا من قبل!!

بجدية كرر سؤاله: وإن حدث، حقاً إلى أي زمن تريد أن تذهب؟!

حكَّ ذقنه مفكراً للحظات، ثم ابتسم في وجهه وهو يقول: ربما سأعود للوراء قليلاً وأقابل أوبنهايمر.

- ومن يكون أوبنهايمر * ذا؟

علت شفتيه بسمة شاحبة وهو يتابع تقدمه ويقول: ومن يهتم الآن؟! ربما نجد له شيئاً بالداخل.

ما إن أصبحا أمام بوابة المتحف حتى أشارت إليهما إحدى الموظفات بأن يتخلصا من كوبيّ القهوة في حاويةٍ القمامة قبل أن يدخلا، ثم ناولتهما خريطة إرشاديه للمتحف.

أعتذر منها رائد بلطف وهو يقول: بكل رحب، سيدتي.

أما الآخر فكان يرمقه بنظرات سأم، ثم علق بسخرية: إنك تملك لساناً معسولاً حقاً!

مد لسانه نحوه مازحاً وهو يجيبه: ووجهاً جميلاً أيضاً.

بتهكم رد عليه: وعقل كما الأطفال.

أوقفهما أحد حراس الأمن معتذراً لتفتيشهما قبل الدخول، وما إن هم بتفتيش رائد حتى تحدث زين ساخراً: ومع وجهك الجميل هذا يا صديقي لم تسلم من التفتيش!

---

* : أوبنهايمر : فيزيائي أمريكي ومدرس الفيزياء النظرية بجامعة كاليفورنيا، بيركلي. وهو المدير العلمي على مشروع مانهاتن لتصنيع السلاح النووي الأول في الحرب العالمية الثانية ويعرف أوبنهايمر بـ والد القنبلة النووية.

وما إن انتهى من تفتيشه هو الآخر، وتقدما ببضع خطوات للأمام حتى قال زين وهو يتلفت للوراء: ألم تلحظ أنه لم يقم بتفتيش الكثير حولنا ممن دخلوا قبلنا وبعدنا؟! لمَ قام بتفتيشنا بالذات؟!

أطلق رائد ضحكة صاخبة وهو يقول بسخرية: أحقاً تسأل عن هذا؟! طبعاً ملامحنا العربية تدعوهم للشك، ربما شك بوجود متفجرات معنا.

توقف زين للحظة، ثم تابع تقدمه وقال: ولكني شعرت بالمهانة حقاً.

جذبه رائد من كفه دافعاً إياه للتقدم وهو يقول: آسف بشأن هذا، لكن لدينا هنا عمل ويجب أن ننهيه، بالمناسبة أحقاً ستتخرج بعد شهر من الآن وتعود للوطن؟

- نعم، صحيح، يجب عليك أن تجتهد أنت الآخر.
- وما الذي سأفعله أنا من دونك؟! من أين آتي بصديق يستطيع تحمل لساني.

- لا تحاول استعطافي، فأنت محاط بالكثير دوماً، لديك شخصية فريدة مع هذا.
- ومع ذلك، أنت تعرف أني لا أثق إلا بالقليل.

للحظة توقف زين بعد أن لفتت انتباهه مستحثه تبدو لبشري، جذب رائد من كم قميصه قائلاً: مهلاً رائد...توقف، وانظر لهذه.

ثم أشار بيده نحوها، كانت موضوعه في صندوق من زجاج، وبأسفله ذُيلت بعض المعلومات عنها وتاريخ الحصول عليها ومكانها وإلى أي زمن تعود.

اقترب منها رائد متأملاً، ثم قال بسخرية: لم أكن أتصور يا زين بأنهم سيضعون لك تمثالاً هنا.

ضربه على كتفه بخفه وهو يقول: كفاك سخرية، إن كنتُ رجل غوريلا فأنت ديناصور بالتأكيد.

عاد رائد لينظر إليها ثم قال: إنها ليست رجل غوريلا على أية حال، إنها لإنسان النياندرتال*.

فغر الآخر فاهه في دهشة، وهو يقول معلقاً بإعجاب: مدهش حقاً.

باستغراب تساءل: ما المدهش في ذلك؟ إنها مستحثه يظن مناصري نظرية داروين** بأنها من أسلاف الإنسان!!

---

* : النياندرتال: أو الإنسان البدائي هو أحد أنواع جنس هوموا الذي استوطن أوروبا وأجزاء من غرب آسيا وآسيا الوسطى. أول آثار نياندرتال البيئية ظهرت في أوروبا تعود لحوالي ٣٥٠,٠٠٠ سنة مضت، انقرض إنسان نياندرتال في أوروبا قبل حوالي ٢٤,٠٠٠ سنة مضت.

**: نظرية داروين : اكتسب داروين شهرته كمؤسس لنظرية التطور والتي تنص على أن كل الكائنات الحية على مر الزمان تنحدر من أسلاف مشتركة ،وقام باقتراح نظرية تتضمن أن هذه الأنماط المتفرعة من عملية التطور ناتجة لعملية وصفها بالانتقاء (الانتخاب) الطبيعي.

- المدهش هو حفظك لهذه الأسماء الطويلة، رائد.

ثم أطلق ضحكات خفيفة، قاطعه رائد وهو يشير للأسفل قائلاً: آسف لتخييب ظنك، لكني حقاً قرأت اسمها من هنا، ليس لدي أي اهتمام بتلك النظرية.

ثم تابع طريقه ولحقه زين قائلاً: أكيد فأصل البشر معروف لدينا من آدم وحواء، انحدار الإنسان الحديث من غوريلا تطورت محض خرافة، ألا يشعرون بالمهانة أصحاب تلك النظرية؟!

توقف رائد فجأة وسرحت عيناه قليلاً، ثم التفت إليه وقال: النظرية مغلوطة ولا شك، الغوريلا رغم منظرها المتوحش، تستطيع العيش مع بعضها البعض داخل مجتمعاتها، ولا عدو لها سوى الإنسان، حيوان كهذا لطيف، من المحال أن ينحدر منه الإنسان الذي لا يستطيع تفهم مدى اختلافاتهم ولا تقبلها.

صفَّق زين بكلتا يديه وعلق ساخراً: رائع رائد، أهنئك على شاعريتك تلك، لقد أبطلت نظرية ظلوا لقرن يتنازعون حولها.

دفعه بخفة من كتفه وقال ساخراً: في النهاية أرى أنه يشبهك ولا يمكنك إنكار ذلك.

ثم تابعا المسير حتى وصلا لمعرض "أينشتاين".

- أخيراً نحن أمام مخترعات أهم عباقرة القرن العشرين.

رفع بها رائد صوته هاتفاً بحماس كعادته فعاتبه زين مجدداً قائلاً: قلت لك أخفض صوتك، أكره أن نلفت الانتباه هكذا.

لكن الآخر لم يكن يستمع إليه وكان يسير في المكان متنقلاً كالفراشة بشغف بدا واضحاً في عينيه.

استدار زين يشاهد الأعمال حوله واللوحات التوضيحية، وتلك المعادلات الفيزيائية التي رُصفت أمامه، والملل يتسلل لأعماقه ثم التفتَ صوب رائد يراقبهُ بصمت وهمس: ما الذي يجعله متحمساً هكذا؟

ثم عاد ليشاهد المعروضات أمامه، أما الآخر فكان حينئذ قد انحنى على ركبتيه، حيث لفت انتباهه فجأة شيء يلمع كان تحت إحدى الطاولات المعروضة على طرف زاوية، وما إن اقترب منه وانحنى ناظراً إليه حتى شعر وكأنه يومض ويتلاشى.

مد ذراعه اليسرى محاولاً التقاطه.

هذا ما كان يرويه زين لأبنائه على مدار خمس وعشرين سنة بعد وقوع حادثة اختفاء أعز أصدقائه رائد.

الفصل الثاني(بداية النهاية)

لا شيء أسوأ من أن يحيد عنك الانتماء، تاركاً إياك بين أغوار مجهول، بلا ماضٍ وبلا هوية.

مضى أكثرُ من خمس ساعات منذ أنْ أُغلق البابُ في وجه "رائد" وهو لا يزال على نفس حاله، جالساً عند عتبة الباب طوال ساعات الليل بثيابه الرثة، ويديه الداميتين من كثرة الطرق.

حتى بدأ الفجر يبزغ وارتفع صوت التكبيرات مناديه للصلاة، شعر بالطمأنينة تتسلل إلى أعماقه وهو ينظر للسماء التي حجبتها بعض الأبنية المرتفعة متأملاً.

زفر بألم..

- كنت هنالك أشاهد النجوم دون أية حواجز على الأقل.

وفجأة فُتح الباب وخرجَ منه صاحب المنزل، وما إنّ رأى رائد ماثلاً أمامه حتى استشاط غيظاً وصرخ في وجهه: أنت أيها المحتال أتريدُ أن اتصل بالشرطة ليعتقلوك؟! أما زلت مصراً على الوقوف هنا؟! كم تحتاج؟؟ أخبرني، كم تحتاج؟؟ هل أنت بائس لهذه الدرجة؟!! فتى في مثل عمرك من المفترض أن يذهب للجامعة الآن، أنا لم أفعل لك شيئاً فقط لأني أراك ما زلتَ صغيراً، وإلا فكل المحتالين أمثالك أوردتهم السجن.

وضع يده اليمنى على صدره، وضرب عليه بخفة، وبلهجة حازمة أجابه: قلتُ لكَ لن أتزحزح من هنا خطوة واحدة حتى أرى شقيقتي، حياتي كلها مرتبطة بأن تراني الآن، هل تفهم هذا؟

- وكأن هذا سينطلي علي!! قبل أسبوع فقط ادعى رجل عجوز بأنه رائد؛ طمعاً بالميراث!! وقد سئمت بالفعل من تكرار هذا الموضوع.
- لا أريدُ ميراثاً ولا أي شيء، أريد مكاناً أعود إليه وحسب. "خالد" أحقاً لا تذكرني؟! أنا رائد، لقد قابلتك كثيراً وقت عقد قِرانك بأختي؟ أحقاً نسيت؟!

بدت لهجته أكثر غضباً وهو يقترب منه ويرد: أخبرتك بأني لستُ "خالد"، أنا "أمجد"، وإن كنتَ قابلتني آنذاك يا محتال فسيكون عمرك الآن خمسينَ سنة وليس شاباً في العشرينيات من عمره، ليأتي أحد ما ويأخذ هذا المعتوه من هنا.

ثم دفعه بقوة واتجه نحو سيارته وأدار المفتاح ثم التفت إليه متوعداً: إن عدتُ بعد الصلاة ووجدتكَ هنا فسيكون لي معك تصرف مختلف.

أما هو فبعد أن تمالك نفسه ظل للحظات واقفاً يبتلع خيبته متنهداً بحسرة.

وقف ليرى انعكاسه على زجاج الباب الخارجي، كان شعره لا يزال أسوداً باهتاً، كما كان متدلياً على عينيه البنيتين بإهمال، التي كان أكثر ما يميزهما ليس لونهما الفاتح؛ بل تلك الزوايا الخارجية المنسحبة لأسفل قليلاً بأهداب كثيفة، وكأنها ناعسة ، لذا كانت توحي للناظر إليها ببلادة صاحبها، وأنفه الطويل وبشفتيه الضيقتين اللتين ترتفعان بزوايا رقيقة، وفوقها بضع شعيرات لا تشكل شارباً بأي حال من الأحوال، ومع طوله

المتوسط كان يبدو كشاب في الثامنة عشرة من عمره، أكثر من كونه في الرابعة والعشرين.

أمسك بطرف الباب يائساً.

أحقاً مضتْ ثلاثون سنة بعد تلك الحادثة؟! هل من المفترض أن أكون بالخمسين من عمري الآن؟! أهذا يعني أن شقيقتي أيضاً في الأربعينيات من عمرها!!

- ماذا، هل يئست بهذه السرعة؟!!

فوجئ بالصوت القادم من خلفه فاستدار سريعاً، ليجد شاباً بدا في السابعة عشرة من عمره واقفاً ينظر إليه، تابع متسائلاً: ماذا هل تشعر بالجوع؟!!

بدا مرتاباً وهو يسأله: من أنت؟

- أنا "عمّار" ابن التي تدعي أنها شقيقتك.

شعر بشيء من الأمل قد اعترى قلبه فملأه بهجة، اقترب ناحيته وأمسك بكتفيه متأملاً وهو يسأل: أحقاً أنت ابن "منال"؟

- نعم، وهل يفترض أن تكون أنت خالي الميت، أو لأقل المفقود؟

بلهفة أجاب: وهل تصدقني؟! أنا حقاً هو.

بتهكم أجابه: سأصدق بوجود "العنقاء" إذن، ولن أصدق بوجود خالي.

ابتسم ببؤس وهو يزيح كفيه عنه، ثم عاد واتكأ على العتبة وظل صامتاً للحظات، اقترب الآخرُ حتى دنى منه، وقال: أتعرف، من بين جميع المحتالين الذين أدّعوا أنهم خالي أنت الأشد حمقاً بينهم، ألم يخبرك أحد بأن خالي فُقد بالعشرين من عمره؟! يعني من المفترض لو كان حياً أن يكون عمره الآن خمسون.

ابتسم بيأس، ثم ضحك بسخرية وهو يقول: معك حق.. أنا نفسي لا أدري كيف انتهى بي المقام هنا، ثم إن ما أذكره جيداً وواثق منه، أن "منال" قد عقدت قرانها على رجل اسمه "خالد" فكيف أصبح "أمجد"؟!

- صحيح "خالد" كان زوجها الأول؛ لكنها لم تستمر معه، لهذا استشاط أبي غيظاً حال ذكرك لاسمه، أليس من الغريب أن يظل أبي يغار حتى هذا العمر؟!!

فوجئ بالخبر فرفع عينيه ناحيته منصتاً له باهتمام، فتابع الآخر قائلاً: ومع هذا لا تعتقد بأني سأصدقك.

أشاح بوجهه عنه وهو يعلق: لم أقلَ لك ذلك لتصدقني. كنتُ أتساءل حقاً ما الذي حدث خلال الأشهر التي غبتُ فيها، أو لأقل الثلاثون عاماً هنا.

لم يستطع "عمّار" كبت ضحكاته التي بدت تعلو شيئاً فشيئاً، ثم علق بسخرية: ماذا؟! هل تريد أن تخبرني أنك عشت بالفضاء الخارجي؟! لذلك لم تتقدم بالعمر مثلاً.. لنفترض إذن أنك

اختطفت من قبل مخلوقات من الفضاء؟ ها... أم أن الجان قد اختطفوك؟

- أتسخر مني؟!

أدار وجهه عنه، ثم ندت منه ضحكة ساخرة، ثم ضاقت عيناه وكأنهما تغوران في ذكريات عبرت أمامه، فقال: من حقك أن تسخر، أنا نفسي لا أعرف ما الذي حدث وكيف، وكيف عدت الآن؛ لأجد نفسي وقد تقدمت ثلاثون عاماً!!

صمت للحظة ثم تابع: أتدري، أنت تذكرني بصديقي "زين"، لقد كان كثيراً ما يسخر مني.

وقف "عمّار" وقد بدت علامات الدهشة على وجهه وهو يقول متسائلاً: من بين جميع المحتالين الذين قابلتهم، أنت الوحيد الذي ذكر "زين" !!

- هل تعرفه؟ أتدري أين هو؟

سأل رائد وقد وقف سريعاً يهز كتفي "عمّار".

أجابه وهو يزيح كفه عن كتفه ويقول: نعم أعرفه.

- وأين هو؟ أخبرني أرجوك، أريد أن أقابله.
- لا يمكن.
- ولـــــــــمَ لا؟!
- لأنه قد مات قبل خمس سنوات.

شخصت عيناه، ثم سرعان ما غشيتهما نظرات بؤس، أفلت يديه وانهار متكئاً من جديد، وأخذ يضرب برأسه على الباب بانزعاج للحظات، ثم أخرج من جيب بنطاله ساعة وأخذ يحدق فيها بألم، ثم قال: هذه هي السبب.

نظر إليها "عمّار" بتمعن وبدا وكأنّه يسترجع شيئاً من ذاكرته، ثم صرخ متسائلاً بدهشة: هل يمكن أن تكون هذه هي الساعة التي التقطتها؟

بلهفة أجاب: نعم، لقد التقطتها من المتحف بسويسرا يومها، وكان برفقتي "زين".

حك ذقنه ثم قال: بالتفكير في ذلك لقد أخبرني "أحمد" بأن والده "زين" قد رأى خالي رائد وهو ينحني لالتقاط شيء ما، بدت له كساعة من الوهلة الأولى؛ لكنه لم يعد يراه أو يراها بعدها.

اعتدل واقفاً وهو يقول: نعم بالضبط هذا ما حدث.

أخذ ينظر إليه "عمّار" للحظات متفحصاً، ثم قال: الآن وقد قلت لي ذلك، أنتَ حقاً تبدو شبيهاً للصورة التي أراني إياها "أحمد" ذات يوم، إن لم أكن مخطئاً.

- أنا هو، قلتُ لك ذلك، بإمكانك أن ترى الصورة مجدداً، وأنا واثق بأنك لن تجد أي فرق، عدا ثيابي الرثة.
- إذا كنتَ أنتَ حقاً خالي الذي فقد قبل ثلاثون عاماً دون أن يترك أي أثر له.. فلمَ يبدو شكلك لا يزال بالعشرين؟! وأينَ كنتَ خلال تلك الأعوام؟!!

الفصل الثالث.. بداية الرحلة

عليك أن تصدق نفسك أولاً، إن أردت من الجميع تصديقك.

كل شيء بدأ منذ تلك اللحظة، حينما شعرتُ بتلك الأضواء وهي تتحرك كدوامة سريعة أمام عينيّ، وصوتُ "زين" يصل لأذني منادياً، وعيناه اللتان تدوران بهلع واضح، بحثاً عني بين أرجاء الغرفة، ورغم أنيّ لوَّحت له بيديّ فإنه بدا لي وكأنه لا يراني؛ بل بدا وكأنه يتلاشى مع خيوط الضوء المتداخلة شيئاً فشيئاً حتى اختفى!

استيقظتُ أتلمَّس رقبتيّ إثرَ إحساسي بالوجع، وما إن أبصرت عيناي ما حولي حتى شخصت بذهول، فقد كنتُ أتوسد فراشاً من حصير، والجُدران التي كانت تحيطُ بي بدت وكأنها من طين!! كانت الغرفةُ شبه خالية إلا من أشياء بسيطة، وعلى ارتفاع بسيط كانت هنالك نافذة للتهوية صغيرة للغاية، وعلى إحدى الزوايا كانت هنالك منضدة خشبية صغيرة، وكان يقبع بجانبها رمح كبير، رؤيته فقط جعلت قلبي يرتجف لوهلة.

أسرعتُ فوراً صوب الباب، وما إن أصبحتُ بالخارج حتى امتدت أمام ناظري مساحة واسعة من الأشجار والحشائش، وحينها سمعتُ صوتاً ينبعث من خلف الكوخ، وما إن استدرت متجهاً نحو الصوت، حتى أبصرت رجلاً بدا لي وكأنه بالثلاثينيات من عمره، كان يمسك بمجرفه يحثو بها التراب، وكانت ملابسه غريبة بعض الشيء؛ إذ كان يرتدي قميصاً من القطن الأبيض يصل لركبتيه وفي منتصف خصره لف حزاماً من جلد، عُلق به غمدٍ لسيف ، ويرتدي بنطالاً واسعاً ذا لون أسود، طرأ في بالي حينئذ بأنه وبلا شك عرضُ لملابس العصور الوسطى بأوروبا، وما إن أبصرني حتى ابتسم قائلاً:

أخيراً استعدت وعيك؟! لقد سئمت لدرجة أني ظننتك ميتاً وكدت أوشك على دفنك.

كلماته تلك أحدثت بداخلي شعوراً بالخوف فبدا الارتباك على وجهي ظاهراً وهو يقترب مني، وفي خلدي تدور كثير من الأسئلة، وعينيّ ما فتئت تطوف في كل اتجاه، وما إن أصبح بقربي حتى برزت من بين شفتيه الضيقتين أسنان صغيرة بيضاء، كانت ابتسامته مشرقة، مشرقة للغاية تُشعرك بالراحة، وعيناه كانتا تلمعانٍ بزرقة مختلطة بالرمادي وسط تلك الأشعة الساقطة من الشمس، وفي ذقنه تتبعثر بعض الشعيرات القصيرة بإهمال، وشاربه كان خفيفاً، أما لون شعره فقد كان يميل للون البندقي، وكان يصل حد كتفيه.

أسند كفه على كتفي وهو يقول: أحمد الرب على سلامتك، أنت حقاً تبدو بخير، رغم كل ما أصابك.

رددتُ متسائلاً: أصابني؟!

رفعتُ احدى حاجبي متعجباً وأنا أكررها، ثم تلفتُ حوليّ بفزع متسائلاً: أين "زين"؟ أين اختفى؟!! وأين أنا؟!! وما الذي تعنيه بذلك؟!!

ضغط على كتفي، ثم قال محاولاً طمأنة فزعي: لمَ أنتَ فَزِعٌ هكذا؟ هل فقدت أحد أصدقائك؟!

حينها أطلقتُ ضحكة ساخرة وقلتُ معلقاً: هل هذي صالة عرض ثلاثية الأبعاد؟!!

عن أي زمن هي إذن؟ صحيح أن وضع ممثلين بها بهذه الطريقة يجعلها تبدو واقعية أكثر، ولكن لا بد على الأقل من وضع لوحات إرشاديه، كدت أصدقُ وأجن.

بدت ملامحه متعجبة وهو يستمع إلى ترهاتي تلك، ربتُ على كتفه بخفة وأنا أقول: أنتَ بارع يا عم بالتمثيل، حتى إن (إنجليزيتك) أثارت دهشتي وبدت مختلفة!!

وحتى هذه الملابس وهذا الغمد، هل حقاً يحوي سيفاً حقيقاً؟

وما إن هممت بسحبه وخرج جزء من نصله يلتمع حتى دفع كفي بقوة وعاتبني قائلاً: ما الذي تحاول فعله أنت؟!!

ثم أشهره أمامي وهو يقول: إنَّ نصله حادُ جداً؛ لدرجة أنه قادر على إسقاط رأس طائش مثلك في ثانية.

ابتلعتُ ريقي وتراجعت للوراء بوجل، وبدت شفتايّ ترتجفان وأنا أقول: هو حقيقي؟!! أهو حقيقي؟!! لقد أخذت كفايتي للآن، هلا أخبرتني كيف سأخرج من هنا؟!!

أغمد سيفه دون أن يجيبني، وظل صامتاً للحظات ثم نظر إلي وقال: لا ترتجف هكذا، لا نية لدي لقتلك.

دقق النظر في عينيّ وسأل: أيها الفتى، إلى أين تريد الذهاب أنت؟

- إلى غرفـــ....

ابتلعت كلمتي الأخيرة إذ طرأت في ذهني خارطة المتحف لمنزل (أينشتاين) والتي وضعتها بجيب بنطالي حال تسلمي لها من بوابة المتحف.

فتلمست جيبي بحثاً عنها، وما إن أخرجتها ونظرت إليها حتى تأكدتُ بأنها لم تكن تحوي أي صالة عرض للقرون الوسطى!

فجثوتُ على ركبتيّ مصدوماً أتلمس التراب من تحتي وعيناي تطيشان بكل الأشياء حولي بذهول.

ثم عدت لأنظر إليه متسائلاً: أين وجدتني؟

بدا على ملامحه الضجر وهو يشير لأعلى التل قائلاً: لقد وجدتك منذ يومين، كنتَ مُلقى في أعلى التل كانت عيناك غائرتين، وكان الزبد يخرج من فمك، في البداية ظننتك قد تعرضت لهجوم من قطاع الطرق لكن لم تكن بجسدك أية إصابات! فظننتُ أنك، ربما كنتُ مسافراً وأضناك الجوع؛ لكن ملابسك لم يبدو عليها أثر السفر!! برب السماء، ملامحك تبدو مختلفة!! من أين أتيت حقاً؟!

كل الإجابات في أعماقي لم تكن ممكنة، لم يكن ممكناً حقيقة كل ما أراه أمامي الآن، من أين أتيت أنا؟ هل من الممكن أنني.. محـــــــــــــال...

أخذتُ أضرب على خديّ بتوتر وقلق، علي أفيق من حلمي هذا إن كان حلماً..

سمعتُ وقع أقدامه وهو يقترب مني، وما إن مثل أمامي حتى أمسك بكفي لإيقافي قائلاً: لمَ تضرب خديك هكذا؟! ما الذي تفكر بشأنه ويفزعك لهذا الحد؟!

ضاقت عيناه وبلهجة ساخرة أتم: مــــــــاذا؟ هل من الممكن بأنك هربت من رجال الملك؟ هل رأسك مطلوب، أخبرني كم مطلوب على رأسك؟

ثم أطلق ضحكة ساخرة، ومع هذا شعرت أن عينيه بدتا أكثر لطفاً هذه المرة وهو يقول: لا تخف، فأنا لست رخيصاً لأفعل ذلك، لن أسلمك لأحد.

وقفتُ وأنا أستند على كفه وهززتُ رأسي نافياً وأجبت: كلا، لست هارباً، وأي ملك هذا الذي تقصده؟!

همست سراً بأعماقي، إما أنني جننت أو أنني أقف أمام مجنون.

وما إن اعتدلت حتى تذكرتُ تلك الساعة الغريبة التي التقطتها بالمتحف.

رفعت عينيَّ ناظراً نحوه وشفتي أطبقت عن حقيقة غدت واقعاً لا يمكن إنكاره الآن.

تلك الساعة التي انحنيت لالتقاطها، تلك الأضواء الساطعة والمتداخلة، وجه "زين" الذي كان يختفي شيئاً فشيئاً!!

الآن أدركت فقط.

إن الذي كان يختفي هو أنا!!

وانني بطريقة ما، قد انتقلتُ عبر الزمن!

الفصل الرابع: المستقبل الذي لم أتخيله!

ما يهمني أكثر من الماضي هو المستقبل، حيث إنني أنوي العيش فيه.

ألبرت أينشتاين.

صحتُ بأعلى صوتي وأنا أشد كلتا يديه متسائلاً: هل كنت أحملُ شيئاً بيدي؟ شيء يشبه الساعة ولونه نحاسي؟!!

أجاب وهو يزيح يده بضجر: لم أرى شيئاً كهذا...

عدت لأشد على يديه راجياً: إذن أرجوك خذني للمكان الذي وجدتني به.

شد كفي بقوة نحوه وقال: لقد سئمت منكَ بالفعل.

ثم أخذ طريقه نحو التل وهو يسحبني معه بقوة، كدتُ أتعثر لأكثر من مرة، أما هو فلم يزد عن تذمره بقوله: لو أنني تركتك لقطاع الطرق، لرُحمت من هذا العناء.

وما هي إلا دقائق، حتى توقف مشيراً إلى بقعة في الأرض وهو يقول: هاهنا وجدتك.

انحنيت سريعاً أفتش في الحشائش بحثاً عن تلك الساعة الغريبة، قبل أن يعثر عليها هو، ويمدها أمام ناظريّ قائلاً: هل هذه ما كنت تبحث عنها؟

التقطتها بسرعة منه وأخذت أقلبها متفحصاً، لم تعد تومض كما كانت تومض في المتحف!! كما أنها بدت وكأنها قد أصبحت فجأة قطعة خردة صدئة!!

- أيمكن أن تكون قد تعطلت؟!!

بدأت أنفاسي تضيق، وشعرت بوهن سرى في أنحاء جسدي من وقع الصدمة، وما إن وقفت على ساقيّ حتى أبصرتُ ما هو أشد وقعاً على قلبي ولم يكد ليصدقه عقلي، كان المشهد من أعلى التل كفيلاً لإسقاطي جاثياً، حيث امتدت أسوار عالية حجرية، حوت بيوتاً كثيرة منتشرة وفي منتصف تلك الأسوار برزت قلعة كبيرة من جدران حجرية كانت الأعلام ترفرف عالياً فوق السواري وبجانبها مبنى آخر كبير يعلوه صليب معكوف* آثار حيرتي، كان واضحاً أنها كنيسة.

ابتسمتُ بسخرية وأنا ألملم صدمتيّ، جثوت على الأرض تغالبني ضحكات هستيرية وأنا أضعُ يدي على عينيّ بين الحين والآخر أعاين المشهد من جديد ثم صحتُ بأعلى صوتي معلقاً: رائع، من متحف أينشتاين في القرن الحادي والعشرين، إلى القرون الوسطى بأوروبا، أخبرني، أهذه قلعة كاميلوت** الأسطورية؟ أو أنها مالبروك***؟؟

---

*: صليب معكوف .. صليب متساوي الأضلاع مع أذرع ممتدة بزاوية قائمة إلى اليمين (卐) أو إلى اليسار (卍) ومن المعروف بأنه كان شعار للنازية في ألمانيا ويقصد به هنا.. النكاية بالكنسية البروتستانتية السابقة.

**: قلعة كاميلوت : قلعة أسطورية للملك آرثر في العصور الوسطى والتي وردت في الكثير من الروايات الإنجليزية ..وشخصية الملك آرثر محل جدل كبير بين الدارسين في كونها شخصية حقيقة أو محض قصة خيالية .

***: قلعة مالبروك : تقع في بولندا في مدينة مالبروك تأسست على يد فرسان توتوني في العام ١٢٧٤م ولا تزال موجودة حتى اليوم.

لم ينطق الواقف أمامي بشيء واستدار بصمت مغادراً، فصرخت منادياً لإيقافه: مهلاً، لا تتركني هنا.

وقفت مسرعاً ولحقته؛ ولكني سرعان ما تعثرت وكدتُ أسقط لولا أنه تمكن من الإمساك بعضدي في الوقت المناسب.

- أشكرك.

ثم ضغطت على كفه وتابعت: لا شك أنك تصفني بالجنون الآن ولكن حقاً أنا..

قاطعني وهو يزيح يده عني مستديراً نحو طريقه قائلاً بسخرية: أنت تملك جسداً ضعيفاً وكفين ناعمتين ككفي النساء.

ثم تابع طريقه، بينما وقفت أنا للحظة أفكر باستيعاب ما قذفه في وجهي للتو، أكان هذا يسخر مني؟!!

لكني مع هذا تبعته لداخل الكوخ.

مد الحصيرة التي كان يستخدمها لنومه، وتمدد فوقها غير آبهٍ بوقوفي أمامه.

استندتُ على المنضدة وضممت ساقيّ إلي بيأس، ثم بدأت أحدثُ نفسي على مسمع منه

- لم تكن تزورني الأحلام يوماً، لم أستيقظ يوماً لأتذكر تفاصيل حلم رأيته من قبل، لكن يبدو الآن أنني أعيش الإحساس الذي يصفونه وأود لو استيقظ سريعاً.

أرخيت رأسي على ساقيّ وبدأ صوتي يختنق وأنا أتابع: حتى أخرج من أمام هذا الذي يتجاهلني ويظنُ بأني مجنون، كان على زين أن يراني وأنا أُلوِّح له.

-أنت لست في حلم.

قالها بتنهد وهو يعتدل جالساً، وبدت نظراته أكثر جدية وهو يعيد مؤكداً: أنت لست في حلم.

رفعتُ رأسي ناظراً إليه باهتمام وقلت: إن لم أكن أحلم إذن، أعطني تفسيراً لوجود رجل غريب مثلي هنا، هل أنت تعرفني؟! أنا لا أعرف أنت من تكون، لا ينبغي عليك أن تصدقني، وصفني بالجنون كما رغبت؛ ولكني كنتُ واقفاً في متحف أفضل مخترع في القرن العشرين ثم وجدت نفسي وسط كوخ من طين!! أتدرك هذا؟! أنا قادم من زمن صعد به الإنسان إلى الفضاء الخارجي؟!

صمتُ للحظة لأهدأ قليلاً ثم تابعت: ربما لا تعرف الفضاء الخارجي فدعك منه، حسناً بإمكان الإنسان أن يطير فيه بطائرات.

قاطعني بقوله: بطائرات مدنية وأخرى حربية وأخرى نفاثة، لقد تفنن البشر في صنع أدوات هلاكهم، هل هذا ما تريد أن تفاخر به أمامي الآن؟!

انعقد لساني من الدهشة، بينما وقف هو واتجه نحو المنضدة وأخرج من خلف كتاب بدا مهترئاً للغاية "جهاز نقال" زادت

حدقتا عينيّ اتساعاً، وشرعت أبحثُ عن هاتفي في جيب بنطالي ثم سألته: أهذا هـــــــــاتفي؟!!

ناولني إياه قائلاً: أكنتم تستخدمونه في التواصل بينكم متجاوزين به حدود المكان والزمان؟! لقد سمعتُ عن مثل هذه الأجهزة، كما أنني سمعت عن أناس تمكنوا من العبور عبر الزمن عن طريق الثقوب السوداء، حدث هذا وقت..

- مهلاً ، مهلاً..

قاطعته وأنا أضم كفيَّ أمام عيني إثر إحساسي بالصدمة، فلم أعد قادراً على الاستيعاب، صمتُ للحظات ثم تحدثتُ قائلاً: أتريد أن تخبرني الآن بأن انتقالي هذا عبر الزمن حقيقي؟!! وأن غيري قد انتقل وأخبرك بشأن هذه الأجهزة والتطور؟

ندت منه بسمة ساخرة وهو يرد: يبدو أنك أسأت الفهم مجدداً، أنا لم أقابل أحداً ليخبرني بذلك.

- إذن كيف عرفت بكل ذلك، طائرات نفاثة وأجهزة وثقوب سوداء!! ما الذي تعنيه بالضبط؟!!

ابتسم وهو يجيب: يا فتى، أنت في عام ٣١٠٠ بعد الميلاد.

الفصل الخامس.. نحو المدينة.

ربما نظرة واحدة للأمام لا تكفي، أحياناً قد نحتاج أن نبحث عن زوايا جديدة لتتضح الصورة أكثر.

- لقد اكتفيت...

صحتُ بها عالياً وأنا أضرب جبيني بكفي، مغادراً الكوخ، لحقني ذلك الرجل محذراً

- قف أيها الفتى؛ فالشمس أوشكت على المغيب، ما الذي تحاول فعله؟!

استدرتُ ناحيته وأجبته بضجر: ما الذي أحاول فعله؟!! أتسألني حقاً!! بالطبع سأبحث عن أقرب مستشفى يعالجني.

توقف مكانه وقال بلهجة جادة:

ينبغي عليك أن تعود للكوخ الآن، لباسك وملامحك وحتى طريقة نطقك للحروف كلها تثير الريبة هنا.

توقفتُ للحظات، ألقيت خلالها نظرة على كل ما حولي واستعدت بها هدوئي، ثم قلت: يبدو أني قد انفعلت حقاً؛ لكني سأعود للتل، ربما سقط شيء من هذه الساعة جعلها تتوقف عن العمل وإلا... وإلا سأصاب حقاً بالجنون.

- حسناً دع هذا الأمر غداً صباحاً؛ فسرعان ما ستنعدم الرؤية لديك.

تابعت سيري وأنا أصر بعناد: أبـــــــــــــــداً.

بينما اكتفى هو بالصمت، وما إن غبت قليلاً عن أنظاره حتى وصلني صوته قائلاً: لقد حذرتك أنا ولا شأن لي بك.

وإن يكن، لا بد من وجود شيء ناقص في هذه الساعة أدى إلى تعطلها.

وما إن وصلتُ لذات المكان وانغمستُ بالبحث حتى بدأت الرؤيا تنعدم شيئاً فشيئاً؛ إذ إن الشمس آلت للمغيب، وخيَّم الظلام على المكان، في النهاية توسدت الحشائش متأملاً السماء المظلمة بعد أن طوقني اليأس، وتملكتني خيبة الأمل.

أحقاً ما يحدث معي الآن حقيقة؟!! أحقاً انتقلتُ عبر الزمن؟!!

رفعتُ الساعة عالياً وأخذت أنظر إليها مفكراً..

ربما تحتاج لمجال كهرومغناطيسي من نوع أجهله لكي تعاود العمل؟! ما الذي جعلها تومض فجأة في المتحف؟ ولماذا لم ينتبه لها أحد من قبلي؟!

شد انتباهي صوت صرخات استغاثة قادم من الأسفل، وما إن وقفت حتى أبصرت عربة محملة بالبضائع يجرها خيل وبجانبها رجل ممد على الأرض، تنهمر منه الدماء، وفوقه وقف رجل آخر مسلطاً سيفه ليجهز عليه.

فصرخت بأعلى صوتي: تـــــــــــــــــوقف.

ومن دون وعي وإدراك وجدت نفسي ماثلاً أمامه، حائلاً بينه وبين الرجل الممدد.

أرخى سيفه قليلاً مندهشاً من ظهوري المفاجئ، ثم سرعان ما اقترب مني وهو يقول بعينين تفيضان شراً: ما الذي قلته للتو يا فتى؟

أدركتُ حينئذ بأن حياتي قد شارفت على الانتهاء، وعينيّ مصوبتين تجاه نصل سيفه الذي كان يلتمع بالظلام، ارتعشت ساقيَّ، وارتجفت شفتي وأنا أسأله بحماقة: لماذا تقتله؟

ضحك ساخراً وأعاد سؤالي بتهكم: لماذا أقتله؟!!

بدأ يقترب مني أكثر، وفي كل خطوة يتقدمها، كنت أشعر بأن الدم يتجمد في عروقي، وأن قدميَّ قد خذلتني حقاً فلم أعد قادراً على الحراك أو الهرب، وهذا السيف الذي يقطر بالدماء يلوح فوق رأسي، أغمضت عينيَّ بانهزام، وفجأة شعرت بشيء يرتطم بالأرض، وما إن فتحتُ عينيّ مستطلعاً، حتى أبصرتُ جسد ذلك الرجل الذي كان يهددني للتو ممدداً على الأرض ودماؤه تنزف، فارتعدت خوفاً؛ بل صرخت هرعاً.

- ماذا.. ترتعد كالفئران؟

تنحيت جانباً وأنا التفتُ ناحية محدثي وهو يمسح الدماء من على سيفه ثم أعاده إلى غمده ببرود، نظر إلي ثم قال متعجباً: ماذا؟!! لماذا أنت تنظر إلي مندهشاً هكذا؟!

ثم أشار إلى الرجل المدد على الأرض وتابع: على أية حال ما لم نوقف نزف ذلك الرجل سيموت.

بالكاد استطعت أن أعبر من جوار ذلك الجسد الذي أصبح جثه، ابتلعت ريقي بصعوبة، وتوجهتُ نحو ذاك الممد الآخر، وما إن أنحيت نحوه حتى لحقني ذلك الرجل، عاينه للحظة، ثم قال بلكنة ساخرة : أنت أيها القادم من الماضي، ساعدني في حمله للكوخ لإسعافه.

استطعنا إيقافه وإسناده بكتفينا معاً، ومع هذا كانت يداي لا تزالان ترتجفان بوضوح، ورغم أنيّ تقدمتُ للأمام إلا أن عينيَّ كانتا تلتفتان بين الحين والآخر، ناظرة لتلك الجثة الممددة بألم، وما إن وصلنا للكوخ حتى جلستُ خائر القوى خالي الوفاض، أراقب ذلك الرجل وهو يقوم بمسح الدماء من على جرح المصاب ثم وضع عليه مادة قام بخلطها مع الماء ثم لف جرحه بقطعة قماش نظيفة، لقد بدا لي أنه يتقن هذا العمل جيداً.

وبينما أنا كذلك، اقترب مني قائلاً: لقد أسعفته فقط، إصابته عميقة، لا بد أن يخاط جرحه، يجب نقله للطبيب فوراً.

لوهلة خطرت في بالي صورة الرجل الذي كاد يقتلني، شعرتُ بالرعب يتملكني فجأة، مما جعلني أتحسس عنقي أمامه بذهول ودون إدراك فعلق قائلاً: ماذا؟ لمَ أنت مرتعد هكذا؟!!

بالكاد استطعت أن أنطق: ذلك الرجل... أنت لا تعرفه فلمَ قتلته؟! هل قتلته حقاً؟!

ظل للحظة صامتاً ثم استدار متجهاً نحو الرجل المصاب وقام بتغطيته دون أن يجيبني.

فتابعت متسائلاً:

وها أنت قد عالجت هذا الرجل وأنت لا تعرفه!!

نفد صبره فقاطعني قائلاً: هذا بدل أن تشكرني؟! إن لم تفهم هذا بعد، يمكنك أن أقولها لك بوضوح: هنا الضعيف لا يعيش، لقد كان رأسك أنت من سيسقط.

تحسستُ عنقي مجدداً ثم رفعت عينين منهزمتين نحوه لم يكترث لها؛ بل أشار ناحية المصاب قائلاً: أيها القادم من الماضي، هذه هي مهمتك أن تنقله لطبيب المدينة.

تساءلت بدهشة: ولمَ علي أنا أن أقوم بذلك؟!!
- ألم تكن أنتَ من هببت لمساعدته بداية؟ تحمل المسؤولية إذن.

بدا ضجراً وهو يتجه نحو صندوق من قش وأخرج منه تفاحه وهو يقول: قد لا تكفيك هذه، لكنك لم تتناول شيئاً منذ أن استيقظت.

ثم رماها علي وتابع: بعد أن تتناولها، بدل ثيابك هذه.

التقطتها وبدأت أشعر بقرقرة بطني الجائعة، فتناولتها بنهم.

ثم التفتُ ناحيته وقلت: ولمَ لا تأتي معي إلى المدينة، أنا لا أعرف شيئاً هنا، ربما أتوه وربما.. ربما..

ثم تحسست عنقي مجدداً وأنا أتابع: أخشى أن يتعرض لي أحدهم.

باغتني بسؤاله الذكي الذي يحمل إجابته معه: وإن حدث ذلك، فهل ستدافع عن نفسك حتى لو اضطررت لقتله؟!

بارتباك أشحت برأسي للجهة الأخرى دون أن أجيبه، فقد فهمتُ ما كان يرمي إليه بينما ابتسم هو وتابع: غريزة البقاء، ستجعلك تفعل ذلك مهما بدوت عطوفاً وحالماً، في النهاية لا أحد يحب الموت.

ثم اقترب مني وثبت كفه على كتفي وضغط عليها قائلاً: اسمع، أنا لا أستطيع النزول للمدينة؛ فالجنود منتشرون بكثرة، كما أنني لا أستطيع إبقاء هذا الرجل هنا، عليك أن تحمله بعربته وتتجه به إلى المدينة، وهناك بإمكانك سؤال أحدهم عن بيت الطبيب.

اتجه نحو صندوق قش آخر وأخرج منه بنطالاً قطنياً لونه بني، وقميصاً طويلاً أبيض اللون، وحزاماً من جلد، ثم ناولني إياه قائلاً: ارتدي هذا.. واتبعني للأسفل.

ثم خرج من الباب سريعاً، وقفتُ للحظات أتأمل هذه الملابس، أحقاً هي من المستقبل؟!

ما إن لبستها ولففت حول خصري الحزام، حتى التفتُ ناحية المصاب.

ما الذي كان يعنيه بقوله: ثم الحق بي؟ تباً! هل يريد مني أن أحمل هذا الرجل لوحدي؟!

بيأس انحنيت نحوه وحملته مسنداً إياه على كتفي وخرجت متجهاً لأسفل الكوخ.

كاد أن يسقط مني مراراً حينئذ.

تبرمت بأعماقي، أنا لم أعتد على ذلك، أنا حقاً لست معتاداً على هذه الأعمال الشاقة، أريد أن أعود أحتسي قهوتي، وأكتب مشروع تخرجي أمام شاشتي بكل هدوء وحسب.

ما إن أصبحت العربة على مرأى من بصري حتى تنفست الصعداء، فأخيراً سأزيح هذا الثقل عن كاهلي.

وما إن وصلت، حتى رأيت ذلك الرجل وهو يحثوا التراب بالمجرفة، تلفَّتُ حولي، لم تكن جثة ذلك الرجل موجودة، فهل كان يدفنه؟

في صباح اليوم، رأيته أيضاً يمسك ذات المجرفة، أكان يدفن أيضاً؟!

ابتلعت ريقي وأنا أتم: أهو معتاد على قتل الأشخاص ودفنهم، هل أنا أقف أمام سفاح؟!

ما إن اقترب مني حتى بدا الارتباك واضحاً عليَّ وأنا أسأله: هل دفنته؟

- وهل تريديني أن أتركه يتعفن هنا؟!

ألقَى نظرة متفحصة عليَّ، ثم قال: تبدو جيدة عليك، رغم أنها تبدو واسعة من عند أكتافك الخارجة منها هذه.

رفعتها وأنا أقول: لقد سئمت حقاً من كثرة خروجها، إنها أكبر من مقاسي.

أعاد النظر إلي وركز هذه المرة على شعري ثم مد يده وبعثره حتى صارت كل خصلة منه في جهة دون الأخرى، فقلت معلقاً بازدراء: بربك ما الذي فعلته بشعري؟!!

- شعرك كان مرتباً يثير الريبة، هكذا أفضل.

تلمستُ شعري وأنا أقول بسأم: متى سأستيقظ من هذا الحلم؟

حمل مني الرجل المصاب ووضعه خلف العربة.

ثم اقترب مني منادياً: أنت، أيها القادم من الماضي؟

لقد سئمت حقاً من هذا الوصف لذا رددت عليه قائلاً:

- اسمي "رائد" على العموم بإمكانك مناداتي "راد" إن كان ثقيلاً عليك، لقد اعتدت على هذا أثناء دراستي ببريطانيا.
- بريطانيا إذن.

علت شفتيه ابتسامة، لم أدرك معناها إلا لاحقاً، ثم كرر قائلاً: "راد".. "راد".. حسناً لديك اسم جميل حقاً، أما أنا فاسمي "ليونهارد"، تستطيع مناداتي" ليو".

هززت رأسي بالإيجاب، ثم صعدت إلى العربة وأمسكت باللجام، ثم التفتُّ نحوه متسائلاً: مهلاً.. أنا لم أركب خيلاً سلفاً، فضلاً عن أني قدت عربة خشبية! أخبرني، كيف ستتحرك هذه؟!

اقترب من الحصان، ثم قال لي: أخبرهم بأنه صديقك، وبأنكما تعرضتما للهجوم من قبل قطاع الطرق، لا تقلق لن يعترضَ طريقكَ أحد، كما أنني سأكون بالجوار.

ثم ضربَ بقوة على الحصان فاندفع مسرعاً.

في الحقيقة كانت أسوأ مركبة قدتها على الإطلاق، كانت تدفع بي لأقفز من حين لآخر، وكنتُ في كل حين أخشى أن أسقط من فوقها، كما أنني لم أكن أتوقعُ أنّ تلك الأسوار العالية تحوي كل تلك المآسي التي رأيتها وعاينتها بعد ذلك.

الفصل الخامس: لوحة تحت ضوء القمر.

بعض الأشخاص يملكون حضوراً مربكاً، نجهل معه حقيقة مشاعرنا، لكنهم لا يغادرون إلا وقد طُبع وجودهم في ذاكرة يحيدُ عنها الفناء.

بعد أن تمكنت من النجاة من الشكوك التي تشكلت حولي من قبلِ الجنود، وتم السماح لي بالعبور والولوج للمدينة، همست سراً بداخلي..

ربما يكون الشيء الوحيد الجيد هنا هو تمكني من الدخول دون فيزا وجواز سفر.

كانت المدينة أشبه بمدينة أشباح لا يسكنها سوى الظلام، وبعض القناديل ذات الإنارة المنخفضة التي عُلقت حول بعض الطرق.

كان العثور على أحدهم لسؤاله عن منزل الطبيب يبدو أشبه بالمستحيل في هذا الوقت.

كنتُ أشعر بالخوف وهو يتسلل إلى أعماق قلبي، وكلما تقدم الحصان للأمام قليلاً ردَّدت ذات العبارات في أعماقي: لماذا جئت لهنا؟!

انحنتْ العربة نحو منعطف لأحد الطُرق وبدأت بعض الأصوات تطرق أذني، لوهلة شعرت بالراحة كوني سأقابل أحداً في هذه المدينة لكن ما لم أتوقعه هو أني سأقابل مثل هذا النوع من الناس، وفي هذا الوقت الحرج.

بدأت الأصوات تعلو و تعلو، كانت ضحكاتهم صاخبة وكلماتهم مختلطة، فقررت أن أترجل وأوقف العربة، وما إن اقتربت حتى أيقنتُ تماماً بأنني أخطأت بالمجيء فعلاً إلى هنا؛ إذ وجدتُ نفسي أقف أمام مبنى، مفتوحة أبوابه، وعلى كلا الجانبين رُسِمت أشكال بذيئة، وعلى الجدران كانت منقوشة

رسومات بشكل مخذٍ وفاضح للغاية، شعرتُ وأنا أنظر إليها بالتقزز، أدركت أنه ولا شك بيتُ لبائعي الهوى، وأنني لن أجد هنا سوى أناس لعبت الخمر بعقولهم؛ لذا عدت أدراجي سريعاً، لأصعد العربة.

رآني أحدهم ونادى عليَّ بصوت مرتفع: أهلاً ، أهلاً، مسافر؟ لقد قصدت المكان الصحيح.

تظاهرتُ بعدم السماع، وتابعت طريقي؛ لكنه عاد لينادي بصوت أعلى قائلاً: ألا تسمع أيها الشاب؟

التفتُّ ناحيته على مضض، كان رجلاً مسناً، ونصف جسده عارياً، فأجبته على الفور: كنتُ أريد أن أعرف أين يقع منزل الطبيب هنا؟

فرَّج عن ذراعيه ملوحاً وهو يقول بحماس: جئت بالمكان الصحيح، هنا علاج كل الأمراض.

ثم شدني من كفي محاولاً استدراجي للدخول، كانت قبضته قوية رغم هزال جسده! وبالكاد استطعت الفكاك منه، شعرت بالضيق بعد أن وصلت لأنفي رائحة الخمر المنبعثة من فمه،

فقلت بتقزز واضح: مهلاً يا عم، أنا لن آتي لهنا لهذا السبب.

جذبني بقوة مجدَّداً وهو يقول: كل اليافعين أمثالك يقصدون "دومدري" لهذا، هذه هي دومدري المتحررة.

انتزعتُ كفي أخيراً منه، وتراجعتُ للوراء قليلاً وقلت باستياء: معي رجل مصاب، أرجوكَ أن تخبرني بمكان العيادة أو تتركني في حال سبيلي.

رمقني بنظرات احتقار، ثم عاد أدراجه دون أن يجيب، حينئذ لفت انتباهي صوت قادم من خلفي يقول: سأرشدك لمنزل الطبيب..

لوهلة ظننتُ الصوت لامرأة! ولكن ما إن استدرت خلفي حتى أدركت أنه أحد الجنود أو ربما قائد للجنود؛ إذ كانت أشرطته الذهبية تلتمع مع ضوء القمر.

كان لباسه يختلف قليلاً عنهم، فقد كان لونه أسوداً قاتماً؛ مما جعل بشرته البيضاء تبدو أكثر شحوباً في الظلام.

شكرته قائلاً: شكراً لخدمتك.

ثم صعدتُ العربة وتبعته، كان أكثر ما لفت انتباهي في المدينة تلك النقوش التي رأيتها على بعض الجدران، والتي كانت تشبه إلى حد ما قرون الجدي، وكثرة بيوت الهوى، وهذا لا يدع مجالاً للشك بأنها غارقة في وحل الرذيلة وربما يكون هذا وجهاً من أوجه اقتصاد هذه المدينة، كما أشار ذلك المسن.

توقف الرجل عند أحد البيوت وترجّل من على حصانه فترجلتُ أنا الآخر ونزلتُ من على العربة.

اقترب مني وأشار لباب أحد البيوت قائلاً: هنا منزل الطبيب.

وللمرة الثانية أشتبه بصوته وأشعر بالارتباك؛ إذ كان صوته أقرب لصوت امرأة من صوت رجل!!

لكن هيئته ولباسه العسكري ينفيان ذلك. اقتربتُ منه مُظهِراً شكري له، وأخيراً تمكنت من إبصار ملامحه جيداً، كان أنفه طويلاً ورفيعاً ولكن طرف أرنبته مدببة قليلاً، شفتاه رفيعتان ذواتا زوايا منخفضة، وبَيَاضُه شاحب، أما عيناه فهما أكثر ما لفت انتباهي؛ إذ كانتا واسعتين ذواتي طرفين حادين، بلون أخضر ممزوج بالرمادي، وله حاجبان رفيعان.

عاد ليمتطي حصانه قائلاً: انتبه، في المرة القادمة لا تخرج ليلاً في هذه المدينة، كان من حسن حظك أن لدي دورية اليوم.

ثم قال بصوت أقرب للهمس: إن قابلته، فابعث سلامي إليه.

أحسست بالحيرة من كلماته الأخيرة، وظننت للحظة بأنني كنتُ واهماً!! ولم تسنح لي الفرصة لسؤاله؛ إذ إنه سرعان ما صعدَ حصانه وشد لجامه وضرب على سرجه، فرفع حصانه ساقيه الأماميتين وصهل بكل قوة، وبدا شكل الرجل تحت ضوء القمر بلباسه الأسود وشرائطه الذهبية وشعره البني الذي تدلى خلف ظهره معقوداً من المنتصف وكأنه لوحة زيتية لفنان.

ثم انطلق مغادراً بعد أن عُلقت تلك اللوحة في مخيلتي للأبد.

أسندتُ الرجل المصاب وطرقت باب منزل الطبيب.

خرج من خلف الباب رجلاً شاباً، بدا لي في الثلاثين من عمره، يعلو ملامحه الوجوم، وما إن أبصر الرجل المصاب معي حتى حمله عني سريعاً ثم سأل: ما الذي حدث له؟!

تبعته بعد أن أغلقت الباب خلفي وأنا أقول: لقد تعرَّض لنا قطاع الطرق.

وما إن فتح الأربطة عنه حتى أبدى إعجابه قائلاً: لقد أحسنتَ إسعافه، لا بد من أن أخيط له الجرح.

ثم نادى قائلاً: "مارغريت"، جهزي عدة الخياطة حالاً.

وما هي إلا دقائق حتى أطلت علينا "مارغريت" وبيدها تحملُ صندوقاً، وعلى عكس ما توقعته بدت لي فتاة في الثالثة أو الرابعة عشرة من عمرها، نحيلة للغاية، ذات شعر أشقر يصل لكتفيها معقود خلفها بإهمال بشرائط خضراء اللون، ولها عينان ضيقتان بلون الرماد، يتربع تحتهما خطان من السواد، ويعتليهما حاجبان رفيعان، ذات أنف صغير يعلوه القليل من النمش، وشفاه ضيقة وذقن صغير.

التفتَ إلي الطبيب مشيراً لباب الغرفة أمامي قائلاً: بإمكانك أن ترتاح في الغرفة الأخرى.

اعتذرتُ منه قائلاً: كلا، سأنزل عند أحد أصدقائي هنا، سآتي غداً لأطمئن عليه.

وما إن أدرتُ الباب حتى لفت انتباهي حركة قام بها الطبيب بأصابع يده وهو يتناول المشرط من يد "مارغريت"؛ إذ أشار بسبابته إلى صدره راسماً صليباً معكوفاً!! وبدا لي أن "مارغريت" قد أشاحت بوجهها، وكأنها تستنكر ذلك أو كرهته!! وربما خُيل لي ذلك فقط، لكن ما أنا متأكد منه ولا شك أن هذه المدينة غارقة ولا شك.

أغلقت الباب خلفي، ثم وقفت في حيرة من أمري أمام العربة والخيل، إذ كيف سأعود الآن دونهما؟!

هل آخذهما معي ثم أعيدهما إليه؟! لا أريد أن أعود مجدداً لهذه المدينة، ولكن كيف سأعود إلى "ليونهارد" إذن؟

في النهاية قررتُ أن أمضي في طريقي دونهما، وعلى بعد خطوات من منزل الطبيب،

قطعت رواقاً طويلاً، وأثناء ذلك وصل لمسمعي صوت رجل يتحدث بصوت عال وكأنه يلقي خطبة من نوع ما فأثار ذلك فضولي. فاتجهت ناحية الصوت وما إن وصلت لآخر الرواق ووقفت حتى وجدت نفسي أمام ساحة كبيرة تتوسطها نافورة عليها تمثال على هيئة حيوان يقف على قدمين وأعلى رأسه قرنان كقرني الجدي، ممسكاً بعصا ينتهي طرفها بنجمة سداسية!!

وعلى تلك النافورة وقف رجل شاب لم أتبين ملامحه من بعيد وحوله جمع ليس بالقليل من الناس.

ما إن انتبه لظهوري المفاجئ حتى صمت والتفت الناس ناحيتي؛ ينظرون نحوي بريبة!

لم تكن نظراتهم ودية أبداً، أحسست بالربكة والقلق وأنا أتراجع بضع خطوات للوراء.

لكن الرجل الذي كان يقف على النافورة سرعان ما نزل منها وغادر وسرعان ما تشتت الناس وكلاً ذهب في طريقه.

ما الذي يحدث هنا يا الله؟ لقد أحسستُ بأن نظراتهم تقتلعني من مكاني؟

أسررتُ بها في نفسي وبدأ الخوف يتسلل إلى قلبي.

تذكرتُ حينها كلمات ذلك الجندي حينما قال: من الأفضل لك ألا تسير ليلاً في هذه المدينة.

تحسست عنقي حينها بخوف، ثم عدت أدراجي ناحية الرواق حتى وقفت أمام بيت الطبيب، وقرعتُ الباب، وما إن فُتح حتى ظهرت من خلفه "مارغريت" بدوت محرجاً وأحمق للغاية، وأنا أقول: آسف بشأن هذا، ولكن يبدو أنني سأبقى لبعض الوقت هنا.. إن أمكن؟

الفصل السادس: محرقـــــة

أن يعتدي الإنسان على غيره فهذا ظلم كبير، وأن تصمت فهذه جريمة أكبر.

ما إن فتحت عينيَّ وفغرت فمي انثاءب بكسل حتى وجدت نفسي جالساً أمام الرجل المصاب وقد غُطيت بلحاف من صوف، وقفت معتدلاً فسقط اللحاف على الأرض، وما إن انحنيت لألتقطه حتى سبقتني "مارغريت" بالتقاطه وهي تقول: يبدو بأنك متعب للغاية لقد استغرقت كثيراً في نومك، لقد انتصف النهار. حككت شعري بحرج وأنا أنظر ناحيته متسائلاً: هل هو بخير الآن؟!

هزَّت رأسها بالإيجاب فقلت: حسناً إذن، هذا جيد، أنا مغادر الآن.

ثم وضعتُ على المنضدة النقود التي أعطاني إياها "ليونهارد" مسبقاً.

- هذه هي النقود.. اشكري الطبيب نيابة عني.

وما إن هممتُ بالمغادرة واتجهتُ أمام الباب حتى قالت: أحقاً ستغادر الآن؟

التفتُ إليها متعجباً من سؤالها فأوضحت قائلة: إنه يوم المحرقة...

بدا على وجهي القلق وأنا أتساءل: وما يعني ذلك؟! تعلمين أنا غريب عن هذه المدينة.

أدارت وجهها وقالت معلقة: أهل هذه المدينة مجانين حقاً.

ثم استدارت نحو باب الغرفة المجاورة، لفت انتباهي حينها تلك الكدمات التي كانت على ذراعيها المكشوفتين، التي لم ألاحظها البارحة.

- على العموم لا تذهب لمنتصف المدينة وكن حذراً.

تابعت وهي تلتفت نحوي وقد لاحظت نظراتي المنصبة على تلك الكدمات، فبدا الارتباك والحرج بادياً على وجهها وهي تغطيها بكفها بيأس.

حنيت رأسي بحرج وقلتُ معتذراً: آســــــف.

ثم أغلقتُ الباب خلفي، وما إن نظرتُ أمامي حتى ظننتُ أني في مكان غير الذي كنتُ أقف فيه البارحة؛ فالمدينة التي لم تكن سوى مدينة يكسوها الظلام، غدت أكثر نشاطاً وحيوية في النهار.

سرتُ في طريقي محاولاً الرجوع من حيث أتيت، كنتُ التقط كلمات العابرين، السائمين من العمل، وأولئك الذين يجدون في كل ما يحيطهم ما يدعو للضحك ورغم أن الجميع بدا مشغولاً..

كان شيئاً متشابهاً يرتسم على وجوه الجميع، الواقفين أمام محلاتهم أو حتى أولئك العابرين من رجال كانوا أو نساء، حتى أطفالهم.

كانت نظرة يشوبها الهم ترتسم على كل الوجوه حولي!

ومن دون أن أدرك كنتُ قد وصلت إلى منتصف المدينة فعلاً، حيث كان الناس وكأنهم يتجمهرون، وكان صوت الأبواق وهي تعزف مزعجاً للغاية.

كان كثير من الجنود قد احتشدوا أمام خشبة كبيرة وضعت بالمنتصف.

وكانت مجموعة من الجند تسير جنباً إلى جنب، وبين أربعة خيول، رُبط خيل يمتطيه رجل معصوب العينين**!!**

وبخلف تلك الخيول كان ذاك الرجل الذي أرشدني البارحة- لقد تمكنت من معرفته فوراً-

وبجانب تلك الخشبة، كانت تقف مجموعة من الجنود وعلى صدورهم علقت شرائط حمراء.

وما إن ترجَّل أولئك الجنود عن خيولهم ثم اتجهوا نحو ذلك الرجل المعصوب العينين وأنزلوه مقيداً.

أخذتُ أنظر لتلك الخشبة بدهشة.

أيمكن أن تكون هذه هي المحرقة التي عنتها**؟!!** لا شك أني ما زلت أحلم.

تلفتُ حولي مستنكراً ناظراً في الوجوه، وإذ بالناس المتجمهرين لا يُبدون أي اعتراض أو قلق وكأنهم قد اعتادوا على هذا الأمر.

كان أحد الجنود يلقي الأخشاب، بينما آخرون ربطوا الرجل المعصوب على الخشبة المنصوبة.

بدأتُ أشعر برهبة تملأ أحشاء قلبي، وتلك الألحان الشيطانية تعزف، والناس كانوا يصنعون ذات الصليب المعكوف بإشاراتهم، دون أي اعتراض ولا حتى نظرة إشفاق**!!**

بل بدا لي أن بعضهم مستمتع بذلك وكأنه يشاهد فيلماً سينمائياً**!!**

حاولتُ شق طريق للخروج من بين هذه الجموع المقيتة، ووصل لأذني صوت حسيس النيران وهي تشتعل، كان شيء ما يجبرني على النظر لتلك الضحية المقيدة.

وما إن التفتُّ حتى رأيت ذلك الرجل والنار تلتهم أجزاء جسده، وهو لم ينطق بأي كلمة ولا حتى صراخ، كان ذلك أقسى مما أتحمله.

فركضت مسرعاً ثم ارتطمتُ بأحدهم فتعثرتُ ووقعتُ على الأرض، مد لي يده ليسندني، وما إن التقطتُ يده ورفعت رأسي حتى فغرت فمي متعجباً؛ لقد كان رجلَ البارحة الذي ساعدني، لكن ما أثار دهشتي هو بقايا دموع واضحة ملتصقة على خديه**!!** ما إن وقعت عينيه علي حتى أشاح بوجهه عني قائلاً: أخبرتك سابقاً بأن تكون حذراً.

سمعتُ حينها صوتُ أحد الجنود يناديه قائلاً: نائب القائد "فان"، القائد يطلبك.

إذن هو نائب للقائد كما توقعت لكن هل ما رأيته للتو في عينيه "دموعاً"، أكان يبكي حقاً؟!

تلفتُّ حولي بوجل وارتباك.

أريد أن أخرج من هذا المكان المجنون بأي ثمن، ويبدو أنه قد لاحظ قلقي هذا، فقال معلقاً: خذ الطريق الشمالي خلف تلك النافورة، ثم اتجه بخط مستقيم، ستتمكن من عبور البوابات.

التفتُّ لمن قال ذلك، كان القائد "فان".

امتطى حصانه الأبيض، وللمرة الثانية يراودني ذات الشعور المربك، شكله، صوته، تلك الدموع وعيناه الواسعتان ذواتا الحدة على الجانبين، لمَ أشعر بأنها امرأة وليست رجلاً؟!!

اتجهتُ حيث أرشدني، وأخيراً استطعت الخروج وتنفَّست الصعداء.

ولم يتبقَّ عليَّ الآن إلا أن أعبر هذه الغابة حتى أعود إلى حيث "ليونهارد".

كنتُ كلما تقدمتُ بخطوة يتملكني الخوف أكثر وأكثر، كانت فكرة أن يقابلني أحد قطاع الطرق كذاك الذي أراد قتلي، هي كل ما يسيطر على ذهني آنذاك.

حتى قُذفت حصى أمامي أوقفتني فجأة، وما إن رفعت رأسي حتى رأيتُ "ليونهارد" مستنداً على شجرة، شعرت براحة تنتشي في صدري فابتسمت وأنا أركض ناحيته.

ابتسم إلي هو الآخر وهو يقول: أحسنت صنيعاً... "راد".

توقفت للحظات التقط أنفاسي ثم ابتسمت ببؤس وقلت:" ليو"..
لقد شاهدت أشياء فظيعة.

الفصل السابع: القـــــــــــــرار

نحن نتحدث عن الشجاعة كثيراً ونتشبث بمبادئنا بكل زهو لكننا قد نتنازل عن كل ما نقوله في اللحظة التي نشعر فيها بأن هنالك ما هو أثمن ونريد أن نحافظ عليه.

كانت الشمس توشك على المغيب وكنتُ أقلب بيدي ساعة الزمن العجيبة، أتفحصها من كل الجهات، للحظات كثيرة راودني الشك بأن تكون هي ذاتها التي كانت تومض في المختبر حيث لم يكن شكلها مختلفاً كثيراً عن الساعات التي صُنعت في أوائل القرن العشرين، ولم يكن بها أية أزرار أو إشارات يمكن ضغطها أو تحريكها!

مد "ليو" أمامي سمكة مشوية وهو يقول: لازلت تنظر إليها؟!

بتنهد أجبته: أود أن أعرف كيف تعمل؟ حتى أتمكن من العودة لزمني.

- كنتُ أود أن أخدمك، لكن حقاً أنا لا أعلم، ليس لدي خبرة سوى في القتال وساحات المعارك.

سرحتُ بعيني في النيران المشتعلة قليلاً وذكرى ذلك الرجل المقيد وسطها وهو يشتعل، تفقدني شهيتي للطعام فأبعدته عن فمي والتفتُّ ناحية "ليو" الذي كان منغمساً في تناول طعامه ثم تحدثتُ إليه قائلاً: لقد شاهدتُ أشياء فظيعة، أهل المدينة رغم حيويتهم ونشاطهم كانت تعتلي وجوههم جميعاً نظرات مكتئبة يكسوها الهم، لقد وجدت نفسي وقد وصلت لساحة إعدام لرجل بالنار حرقاً..

"ليو"، هذه الأشياء قرأتُ بأنها قد حدثت في أوروبا سابقاً في القرون الوسطى، وسط تأييد كنيسي وجماهيري، كنتُ أظن بأن ذلك انتهى. هل حقاً هذا هو المستقبل الذي سيصل له البشرية؟

علت شفتيه ابتسامة ساخرة دون أن يجيب، ثم سكب الماء ليملأ الإبريق ثم وضعه على النار قائلاً: أتحب الشاي؟؟

هززت رأسي موافقاً ثم تابعت حديثي: لاحظتُ رسوماً ونقوشاً كثيرة لحيوان ذي قرنين كقرني الجدي، كما أنني تعجبت من مروري على كثير من بيوت أهل الهوى المزينة

برسومات مخزية وفاضحة للغاية، حتى ظننت لوهلة بأني أسير بمدينة بومبي* الرومانية...

إني أتساءل حقاً: من أي طبقات تتكون هذه المدينة؟! على هذا النحو..

صمتُ قليلاً وقد أشحت بوجهي عنه مفكراً ثم أتبعت: لا شك أن هنالك طبقات معدمة و أخرى لا تتمتع بأي حق من الحقوق المشروعة؟

أخذ يقلبُ بالإبريق ثم وضع به بعض الشاي والسكر وأخذ يقلبه مجدداً، وكعادته لم يجب ولم يعلق على شيء مما قلته، فقد كان قليل الكلام وكثيراً ما يؤثر الصمت.

---

*بومبي: مدينة رومانية كان يعيش فيها حوالي عشرون ألف نسمة ،دفنها بركان فيزوف بالقرب من خليج نابولي في إيطاليا ،وقد اشتهرت المدينة بكثرة دور الرذيلة وأيضاً ممارسة الشواذ عام ٧٩م ،وقد اكتشفت في القرن الثامن عشر الميلادي وكأن الزمن قد توقف بها في لحظة انفجار البركان وبقي كل شيء فيها كما كان لحظتها .

ومع هذا تابعت حديثي قائلاً: الفتاة التي كانت تساعد الطبيب كانت مصابة بجروح وكدمات كثيرة!! تعجبتُ من ذلك، أتظن بأنها تتعرض لعنف ما؟!! وذاك الرجل المقيد، صورته لا تفارق مخيلتي أبداً، لقد بدا لي وكأنه رجل مسؤول. تصور يا "ليـو" بأنه لم يذرف دمعة واحدة ولم يبدو عليه القلق أو الخوف، ولم يصرخ حتى صرخة واحدة، ولم يستنجد أو يعترض حتى، لكنه حتماً كان يتوجع بصمت...

أما نائب قائد الجند، فلقد رأيت أثر الدموع على عينيه. أنا واثق من ذلك.

عند الجملة الأخيرة رفع رأسه "ليو"، وقد شقت شفتيه ابتسامة رضا، مد لي كوب الشاي وجلس بجانبي وأخيراً تحدث قائلاً: من المدهش حقاً بأنك قد لاحظت كل ذلك في وقت قصير للغاية واستنتجت كل ذلك، سأقول لك صراحة، ما استنتجه صحيح كل الصحة.

ارتشف القليل من الشاي ثم تابع: نائب القائد لم تتغير على الإطلاق "فان جاك" لا زال قلبُها غضاً كما كانت.. هل لا تزال تقص شعرها؟؟

- ماذا تعني؟! لقد كان شعره طويلاً، يصل لنهاية ظهره!

علته بسمة ساخرة وهو يقول: يبدو بأنها قد يئست أخيراً واستسلمت لطبيعتها.

كررت بهمس لأستوعب: استسلمت لطبيعتها!!

ثم صرخت متسائلاً: مهلاً...أتعني بأنها امرأة حقاً؟؟!!

أومأ برأسه موافقاً فقلت: إذن كان ظني في محله. لقد شككت بها بداية.

ارتشف من الشاي ثم نظر إليَّ بلطف وقال: راد.. لقد آثرت إعجابي حقاً، كونك قد لاحظت كل ذلك. يبدو بأنك تملك عينين ثاقبتين رغم أنهما توحي بالبلادة للناظر إليهما.

ابتسم بسخرية وتابع: هل تريد أن تعرف المزيد؟

أومأت برأسي مجيباً: من فضلك.

سرح بعينيه قليلاً ثم قال: منذ مائة عام، كانت دومدري تحت حكم ملكي بروتستانتي تابع لمملكة (ببين) لم يكن ملوكها في تلك الأعوام والذين يدينون لببين بالولاء، لهم أطماع امبراطورية؛ لذلك بقيت دومدري تحت حمايتها وكانت مسالمة تلك السنوات، ولم تدخل في حروب كثيرة سوى للحلف مع ببين وحسب، بخلاف الإمبراطوريات المنتشرة حولها التي غالبيتها لا دينية، الحاكم السابق أدخل العديد من الإصلاحات على دومدري، وكان يتبع نفس سياسة من قبله لكن حاشيته لم تكن مخلصة، وقد دخلت الأعوام السابقة أمور دينية كثيرة داخل الكنيسة جعلت من البروتستانتية السائدة تنحرف وتنجرف كثيراً عن حالها ووضعها، لقد حاول الكثير ممن ادَّعوا بأنهم أصحاب فكر بنسخ بعض النظم القديمة وتطبيقها، تأثر كثير من الناس

بهذه الدعوات، وكثرت المطالب بتحقيقها، لم يكن الحاكم يدرك خطر هذه الدسائس، فلم يكن حازماً، ولم يتخذ إجراءات بِشأن أولئك الذين كانوا يدسون الدسائس، ولم يكن يدرك أنه قد وقع في عش من الدبابير، وهكذا أشيعت حوله الشائعات.. اتهم بالفسق، وحيكت حوله قصص ماجنة، وأخرى دموية، والكثير الكثير...

وهكذا حينما أشرئب الناس تلك الأفكار وصدقوا بتلك الإشاعات، حدث انقلاب، وأعلنت دومدري انفصالها عن ببين وعينت بذلك حكومة انتقالية، لكن سرعان ما تم إحلالها ونصب نفسه القائد الأول حاكماً للبلاد، واعداً بتطبيق تلك الأنظمة وبداية لفجر جديد ووجد له جمع غفير صفق له، لم تصمت مملكة (ببين) على ذلك طبعاً، فوقعت حروب كثيرة بينهما ومواجهات لمحاولة إخضاعها مجدداً، وقد تكبد كلا الفريقين خسائر فادحة، والعديد من الأرواح أزهقت دون ذنب، ذلك الحاكم كان حقاً ذكياً ويملك كاريزما جعلت الأغلبية تصفق له وهي ترى ممارسته الوحشية، لقد بدأ بتنفيذ خطته الشيطانية بنسخ العديد من النظم القديمة؛ ليضعها واجهة فقط لحكمه، ولم يكن يؤمن بأي دين بل كان يرى أن (الدين أفيون الشعوب)*

---

*١: ما بين القوسين هي عبارة قالها كارل ماركس، وهي إشارة هنا إلى الشيوعية، وهي مصطلح يشير إلى مجموعة أفكار في التنظيم السياسي والمجتمعي مبنية على الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج في الاقتصاد؛ تؤدي بحسب منظريها لإنهاء الطبقية الاجتماعية، وفي حقيقتها هي مذهب فكري يقوم على الإلحاد، وأن المادة هي أساس كل شيء. فرضت نفسها بالنار والحديد، وراح ضحيتها الملايين من البشر.

فقام أولاً بتشويه سمعة رجال الكنيسة، والسخرية منهم، وتلفيق الفضائح لهم، ومن ثم تصفيتهم الواحد تلو الآخر، كما تمت تصفية الكثير من الضباط والقواد والجنود فقط بتهمة الاشتباه بعدم الولاء له والكثير علقوا على الخازوق* ووصفوا بالأعداء، فقط لأنهم ظلوا على دينهم، وعُلقوا هم وعائلاتهم حتى أطفالهم، بالمناسبة كان في أهل دومدري مسلمون أيضاً؛ لكنهم عوملوا بوحشية، وتمت تصفيتهم جميعاً.

تلك المدينة التي تراها أغرقت كل ساحتها بالدم ذات يوم، بعد ذلك خنع أهل المدينة، فالشجاع ظل على الأقل يبصق اعتراضه داخل جدران بيته، لقد أصبحت دومدري - شأنها شأن بقية الإمبراطوريات الأخرى- ليست سوى دولة إباحية ملحدة.

تتاجر بالرذيلة لتحقيق السعادة الدنيوية للفرد، كما يُروجون لأفكارهم. ولكن في النهاية لم يبقى أحد يشعر بالسعادة.

٢*: الخازوق: وهي تمثل إحدى أشنع وسائل الإعدام والتي كانت مشتهرة في القرون الوسطى كلا من "فلاد الوالاشي" المعروف بـ"دراكولا"، والروسي "إيفان" كانا أشهر مستخدمين لطريقة الإعدام هذه.

ارتشفت من كوبي قليلاً، وقلت معلقاً: وكأنها نسخة من أفكار ماركس الشيوعية!! لكن ما رأيته، وذاك التمثال ذو قرني الجدي.. أليس هذا يدل على أنهم يعبدون الشيطان؟

علق ليو قائلاً: من يلحد سيعبد شهواته، ومن عبد شهواته سيعبد الشيطان حتماً.

ابتسمت بإعجاب وأنا أعلق قائلاً: لقد أعجبني قولك ذاك، يبدو أن البشر مهما اختلفت ظروفهم، لن تختلف طبائعهم، وكأن التاريخ في كل مرة يكرر نفسه، مع اختلاف أسماء الأشخاص والأزمنة والأمكنة فقط..

أتعلم كنتُ دوماً ما أتساءل: لمَ على الآخر أن يموت ليحقق الآخر حلمه...

كثيراً ما أفكر بأن حقيقة (السلام)هي: أن يُنتهك السلام لتحقيق السلام، أوليس هذا هو باطن الأمر مهما حاولوا تزيين الظاهر؟!

لم تبنَ حضارة واحدة إلا فوق جماجم أبرياء كانوا أم ظالمين!!

ولكني حقاً أتساءل الآن: أين ذهبت كل تلك الدول العظمى؟؟ وبلاد العرب والمسلمون، لقد كانت هنالك حضارات، ما الذي حدث أيضاً لهم؟

- أنت عربي راد.. صحيح؟

أومأت برأسي مجيباً بنعم.

- عرفت ذلك من ملامحك في أول يوم رأيتك فيه.

خيم الصمت قليلاً للحظات، ثم قال "ليو" وهو يعبث بالعصا لتحريك الحطب بالنار:

- ذاك الرجل الذي رأيته اليوم يُعدم، كان مستشار الحاكم السابق.
- حقـــــــــــــــاً؟!

ثم أردفت بأسف: لقد كان يبدو قوياً بعد كل شيء "ليو".

- لقد كان مخلصاً حقاً.

وقف معتدلاً وهو يقولها، وما إن أدار وجهه حتى أوقفته قائلاً: لذات السبب أنت هارب "ليو"؟

التفت إليَّ متعجباً، ثم لان وجهه عن بسمة إعجاب، ثم علق قائلاً: أنت ذكي بالفعل..

ثم استدار وهو يقول: كنتُ القائد الأول للحاكم، هل هذا يشبع فضولك "راد"؟

بدهشة أخذت أتبعه بنظري وهو يدخل إلى الكوخ.

إذن كان القائد الأول السابق، منذ أن التقيت به ورأيت قوته، شعرتُ بأنه رجل يخفي الكثير، عدا أن عينيه مليئة بحزن مرير!

كانت الشمس قد أيلت للغروب، وقفت معتدلاً؛ لأقيم صلاتي، وما إن كبَّرتُ حتى شعرت بوقع أقدام تقترب مني، ظننتها "لليو" بداية لكن ما هي إلا لحظات حتى شعرت بوقع أقدام مسرعة، وسمعتُ صوت ارتطام شيء على الأرض، وتناثرت الدماء حولي حتى لطخت قميصي، قطعتُ الصلاة بوجل؛

لأستدير خلفي، وإذ بي أبصر "ليو" وهو مشهر سيفه، ورجلاً ممداً على الأرض، قد أصابه ليو في ظهره.

صرخت بوجل: ما الذي حدث هنا.. ليو؟؟!!

التفت ناحيتي وهو يصرخ: "راد" ادخل إلى الكوخ بسرعة، يبدو أنهم قطاع الطرق من تلك الليلة، جاءوا لينتقموا لموت صديقهم، أسمع وقع أقدامهم آتية، عشرة.. لا.. عشرون.. ربما أكثر، اختبئ بسرعة.. تحـــــرك.

دفعتُ ساقيَّ المرتجفة ودخلت الكوخ، دقائق حتى وصلت أصواتهم وصوت التحام السيوف إلى أذنيّ.

كانت ساقايّ ترتجفان بشدة، كنتُ قلقاً على "ليو" بأن يصاب أو أن يموت، وبينما أنا على هذه الحالة، أضم ساقيّ بوجل، فجأة تسلل أحدهم إليَّ ووقف أمامي مسلطاً سيفه فوق رأسي، وما إن أراد أن يهم به عليَّ، حتى سقط فجأة على الأرض، وظهر من خلفه ليو قائلاً: هل أصابك مكروه؟!!

بالكاد رفعت رأسي ناحيته بوجل، فهذه المرة الثانية التي أشعر فيها بدنو أجلي، وشعرت فيها بمدى ضعفي وبؤسي، وعيناي تنظران لذلك المدد ثم تأملت "ليو" لم يكن مصاباً؛ لكن سيفه كان يقطر بالدماء، مررت من جواره وعبرت الباب، وإذ بي أرى أكثر من عشرين شخصاً مصاباً، يحمل بعضهم بعضاً ويفرون هاربين..

تحسست رقبتي بألم، ثم قلت بصوت منخفض: ليو هل ستتركهم؟

مسح الدماء من سيفه وهو يجيب: بعد هذا لن يجرؤ على القدوم مجدداً، لا تخف.

شعرتُ بأن يديَّ ترتجفان؛ فأمسكت بمعصمي الأيسر وأجبته: ليس هذا ما قصدته، أنا متعجب فقط لمَاذا لَمْ تقتلهم كما فعلت المرة السابقة؟!

أغمد سيفه وهو يقول: غريب سؤالك!! وهل ظننتَ بأني سفاح أو أنني سعيد بإزهاق أرواح الناس؟؟!! ثم أليس هذا واضحاً؟ أنت تكره هذا والمرة السابقة قتلته فقط؛ لأن سيفه كان قريباً جداً من رأسك، لم أكن أملك خياراً آخر.

كانت يداي لا تزالان ترتجفان وأنا أراقبهم وهم يختفون عن أنظارنا...

أنا الذي كرهتُ التاريخ، كرهتُ تلك المجازر المبعثرة في كل ناحية منه وفي كل حقبة.

أنا الذي كرهتُ تلك القوة التي يمتلكها الأقوياء للسيطرة على الضعفاء.

لغة الاستغلال والاستنزاف التي يتوارثها البشر، أنا الذي مقتُّ بشدة الضعف وتمنيت لو أن الجميع وُلد بذات القوة وبذات الغنى، أنا الذي رغبتُ بشدة في أمنية حمقاء بالعودة للوراء

وتغيير شيء ما، ها أنا أضعُ قدمي على ذاك المستقبل لأرى ذات الانحراف، ذات التراجع، ذات الاستغلال، وذات الظلم، أنا الذي كنت حالماً لعالم أفضل وقفت مشلولاً وعاجزاً!!

لم أستطِع حتى أن أدافع عن حياة رجل تعرض له اللصوص!!

ولم أستطِع أن أدافع عن نفسي وأحافظ على حياتي، وظلت قدماي ترقصان هلعاً كالجبناء.

عضدتُ شفتي وضغطت على معصمي بقوة، وبعينين امتلأتا بالدموع وبصوت مليء بالرجاء قلتُ راجياً: "ليو" حتى ذلك الوقت الذي أتمكن فيه من العودة لزمني، أرجوك علمني المبارزة بالسيف.

الفصل الثامن: بحثاً عن أجوبة

الشجاعة ليست هي غياب الخوف، ولكنها معرفة أن هناك شيئاً آخر أكثر أهمية من الخوف.

أمبروز ريدمون.

مضى شهر مذ بدأ "ليونهارد" بتعليمي استخدام السيف، الحقيقة كان ليو معلماً قاسياً للغاية فمنذ الصباح، كان يُلزمني بالقيام بتدريبات كثيرة لتقوية جسدي الضعيف- كما يقول- وكان يوكل لي كل المهام الصعبة، فكنتُ أنا من يجلب الحطب ويجلب الماء، وكنتُ أنا أيضاً من يذهب للمدينة من حين لآخر للتزود بالطحين وبعض المستلزمات الضرورية، وكان وقت العشاء هو المنفذ الوحيد للارتياح والسكون.

ذات يوم كنتُ أشعل النار وبينما أنا منهمك بذلك، فجأة شعرت بشيء قُذف ناحيتي من الخلف تمكنت من تلافيه، وما إن نظرت إليه، أدركت بأنه خنجراً قذفه ليو ناحيتي!

فقلت بدهشة معاتباً: ليو.. لقد كاد يصيبني.

اتجه ناحيته والتقطه من على الأرض، وجلس بجانبي قائلاً: كنتُ أريد أن أرى إلى أي حد أفادتك تدريباتي، لو رميته قبل الآن، لكان استقر بقلبك، لقد تفاديته حقاً بمهارة.

بوجل اعترضت قائلاً: ليو.. ماذا لو لم أتفادَه؟ ألا تعتقد أنك بالغت كثيراً!! كدت أموت.

ببرود قاطعني بقوله: كنتُ واثقاً بأنك ستتفاداه .. استعد لمثل هذه المباغتات مني بعد الآن.

- ليو أنت مرعب بالفعل.. لا تمزح معي هكذا رجاء.
- أظن أن الماء قد غلى الآن.

قالها دون اكتراث، ثم وضع الشاي والسكر بالإبريق وقلَّبهما، بينما لا زال قلبي يخفق من هول الصدمة، مد لي كوب الشاي قائلاً: الحقيقة منذ أن رأيتك ممداً على العشب، شككت بادئ الأمر كونك امرأة بسبب جسدك الهزيل ونعومته. أضف لملامحك الخالية من كل ذي شعر بوجهك، لكني سعيد جداً لما وصلت إليه الآن.

حككتُ شعري وأنا أجيبه بلكنة هازئة: وهل ينبغي لي أن أسعد بمديح كهذا؟!

ثم تابعت بلوم: لا زال قلبي يخفق "ليو"، لقد أرعبتني حقاً؟؟!!

بثقة أجاب: هدِّئ من روعك. ما كنت سأصيبك بها حتى لو لم تتفادَه، على الأرجح لم تكن لتتجاوز كتفك.

- وهل ينبغي أن أسعد بذلك أيضاً؟! عموماً سأعترف، أنا أيضاً حينما أنظر لنفسي كل صباح في صفحة الماء، انظر لجسدي وملامح وجهي التي بدت أكثر صرامة وشعري المبعثر هذا، أدرك تماماً مدى الاختلاف الذي كنت فيه، على الأرجح لو كنت في عصري فإنني في هذا الوقت سأكون خاملاً جالساً مع "زين" في أحد المقاهي في شوارع "لندن".

- "لندن" إذن ... أليست هذه المدينة كانت تابعة للإمبراطورية البريطانية؟
- بلى صحيح، كانت عاصمتها.
- سمعت عنها الكثير.

وقفت بحماس مشيراً إليه بسبابتي قائلاً: اعترف "ليو"، أنت تعرف الكثير لكنك تخفيه عني، لطالما أردتُ حقاً معرفة ما الذي آلت إليه الأمور، وكيف لكل تلك الدول أن تختفي!! وماذا بشأن دول العرب؟

كعادته ليو لم يجِب وتجاهلني تماماً، وضعتُ كوب الشاي ثم استأذنت للمغادرة قائلاً: أنت بالفعل قاسٍ، تتجاهلني دوماً، ولكني سأستطيع إخراج ما عندك، أنا ذاهب لأنام الآن.

لكنه أوقفني قائلاً: "راد"، ستذهب غداً للمدينة صحيح؟

- نعم سأشتري لك طحيناً وزيتاً أريد أن أعد لك (خبز) لم تذقه في حياتك.. هذا الشيء الوحيد الذي كنتُ أتقنه في الرحلات مع أصدقائي.
- بقرب منزل الطبيب، هنالك منزل لامرأة كبيرة في السن، وهي حكيمة للغاية.. إن أردت بإمكانك سؤالها، أعتقد أنها تملك أجوبة لجل تساؤلاتك.

بحماس عدتُ أدراجي وسألت: حقـــــــاً، ما اسمها؟؟

- سيدة "جين".

اندفعت نحوه معانقاً بفرح وربتُ على ظهره قائلاً: أشكرك، حقاً أشكرك أنت رجل عظيم بالفعل.

دفعني بانزعاج ثم ضحك وهو يقول: وأنت طائش ومبالغ في ردة فعلك دائماً.

وقفت معتدلاً قائلاً: حقاً أنا كذلك. المهم تصبح على خير.

بعدها رحت في نوم عميق، وفي الصباح الباكر استيقظتُ متأهباً للذهاب للمدينة بعد أن أديتُ صلاتي، لطالما كانتْ صلاتي تثير إعجاب "ليو" رغم أنه لم يصرح بذلك يوماً لكنه كان يظل دوماً بقربي حينها.

بعد ذلك اتخذتُ طريقي نحو المدينة، كنتُ أسير أكثر ثقة من ذي قبل رغم أني لم أتقن بعد مهارة السيف، لكن ما أتقنته كان كافياً للحفاظ على سلامتي على الأقل.

و ما إن أصبحتُ بوسط المدينة رحتُ أبحث عن بيت السيدة "جين"، وأثناء ذلك، وبينما أنا أتجول ارتطمت مصادفة برِجل كبير بالسن، وما إن انحنيت نحوه لأسنده، حتى تمنيت لو أني لم أقابله فهذا الشخص من بين كل الأشخاص الذين لم أتمنَّ مقابلتهم، كان صاحب تلك الدار من تلك الليلة.

- آسف بشأنك يا عم، لم أكن منتبهاً، هل أنت على ما يرام؟؟

ورغم أني أدرت وجهي سريعاً عنه إلا أنه قد عرفني فوراً إذ قال: أنت الشاب من تلك الليلة، دعني أرى.

قبض على يدي وتلمسها قائلاً: مذهل، يا لك من يافع حقاً! ثم اقترب من أذني هامساً: لديَّ كل ما يعجبك.

دفعته بانزعاج قائلاً: يا عم.. ابحث عن غيري.

وما إن استدرت حتى أبصرتُ "مارغريت" وهي تتجه نحو دارها، فناديتها قائلاً: مارغريت.. مارغريت.

أسرعتُ ناحيتها، وما إن وقفت أمامها حتى قالت: أهذا أنت! لقد تعافى صديقك ورحل.

حككتُ شعري بارتباك، وقلت: هذا جيد.. كنتُ أود السؤال عنه حقاً.

رمقتني بنظرة شعرت من خلالها أنها لم تصدقني، ثم أمسكت بمقبض الباب، فقلت: مهلاً.. كنت أود أن أسأل عن دار السيدة "جين". هل من الممكن أن تدليني عليها؟

استدارت ثم أشارت لأحد أبواب البيوت أمامي قائلة: ها هو ذا.. إنه قريب جداً.

حينها وصل لمسامعنا صوت تكسر شيء من داخل دار الطبيب، وصوت صراخ عالٍ ينادي: مارغريت.. مارغريت.

لوهلة بدت "مارغريت" مترددة أمام الباب، وبدا الخوف يكتسي ملامح وجهها الصغير؛ لكنها سرعان ما دخلت وأغلقت الباب خلفها.

كنتُ قادراً على سماع صراخ الطبيب عليها، والأعجب أنني كنتُ أسمع صوت صفعات عديدة، فشعرت بالتوتر والقلق، ولم أستطِع كبح فضولي، فاتجهت نحو النافذة الصغيرة فوراً، واسترقت النظر للحظة، وإذ بي أبصر "مارغريت" في إحدى

زوايا الغرفة ويداها تنزفان دماً، بوجه هلِع وهو واقف فوقها مسلط عليها خنجراً!!

لم أستطِع أن أشاهد أكثر ولا حتى الوقوف، فاندفعت سريعاً نحو الباب وفتحته؛ لأجد نفسي حائلاً بينهما.

فوجئ من دخولي هكذا، فاستشاط غضباً، وصرخ قائلاً: ما الذي تريده بوقوفك هنا يا هذا؟!

- بل أنت ما الذي تفعله بحق هذه الطفلة؟!
- لا شأن لك، أفعل ما أريده بها، تنحَّ وإلا كان هذا الخنجر بقلبك الآن.
- إذن كنتَ أنت من سبب لها تلك العلامات والكدمات على ذراعيها من تلك الليلة، والآن تجرحها بخنجرك، عجيب!! أنت تعالج الجروح للناس، فكيف تهبها كل تلك الجروح؟!
- لأنها فاشلة، وعلى الفاشل أن يدفع الثمن، للمرة الأخيرة، أخبرك بأن تتنحَّى من هنا.

بنظرة مقيتة بدت من عينيه، وجَّه خنجره ناحيتي، ورغم إيقاني بأن الأمر سيختلف تماماً عن التدريبات مع" ليو" ورغم إحساسي بالخوف، وضعت يدي على سيفي متأهباً فلم يكن أمامي خيار آخر.

لكن "مارغريت" وضعت يدها على كفي لإيقافي قائلة بنبرة هادئة، ولكن يشوبها الحزن: ليس هنالك داعٍ لكل ذلك، تنحَّ أرجوك. لقد اعتدت على ذلك. فأنا أَمَتُه بعد كل شيء.

فوجئت بالكلمة الأخيرة بالتحديد ولم أستطع فهمها مطلقاً فسألت:
ما الذي تعنيه بهذا؟!
فأجاب الطبيب عوضاً عنها: أرأيت لقد أخبرتك. مارغريت أَمَة مطيعة.
ابتسمت بسخرية وأنا أكرر: أَمَتك..؟!
أقلت أَمة حقاً ؟! أم أنني لم أفهم جيداً.

وهنا فقط شعرت بدقات قلبي تشتعل ويدي تنتفضان فأشهرت سيفي ناحيته، وقلت: "مارغريت"، تنحِّ جانباً .. هذا ليس من أجلك.

- رائع. هل أصفق لك، هل تريد أن تبدو أمامها بمظهر الرائع؟ لقد ولَّى زمن الفرسان النبلاء، حتى وإن اختطفتها الآن معك، لن تستطيع الهرب من الجنود.
رفعت سيفي قليلاً وأنا أقول: أختطفها، ليست فكرة سيئة.

اندفعت "مارغريت "وأمسكت بيدي مجدداً، وبدت الدموع تلتمع في عينيها الذابلتين، وقالت بصوت ممتلئ بالرجاء: أرجوك، اخفض سيفك، ليس هنالك داعٍ لتشهره من أجلي.

في وجهها كانت لمحة من الحزن ممزوجة بالقهر، جعلت من عينيها تبدو كالعيون المائلة في لوحات بيكاسو الزرقاء.

نظرتُ ناحية الطبيب وقلتُ موجهاً حديثي لها: قلتُ لكِ بأنه ليس من أجلك ولكن سأغادر من هنا.

دفعتُ بيديها جانباً وتابعت وأنا أكز على أسناني: بعد أن أكسر له خنجره طبعاً.

ثم اندفعتُ ناحيته مشهراً سيفي نحو خنجره، تأهب لي سريعاً وبدا متمكناً هو الآخر من القتال.

لكن ثمة شيئاً تشبث بي لحظتها أعاقني، التفتُّ إليها، لم تكن سوى "مارغريت" متشبثة بظهري صارخة: قلت توقف أرجوك...

كانت يداها ترتجفان بشدة، وصوتها مُزج بالبكاء وهي تصرخ بصوت متقطع دون وعي: وحش، قلت لك بأنه وحش، لا أريد رؤية المزيد من الدماء، يكفي أرجوك، إنه وحش... وحش...

ثم جثت على ركبتيها باكية، لم أعرف ما الذي يجب عليَّ أن أفعله، نظرت ناحية الطبيب، تلك النظرة المتعفنة التي ارتسمت في عينيه من قبل لم تكن كما هي الآن، لقد كان يرتسم في وجهه حزناً عميقاً، ربما أثرت فيه كلماتها الأخيرة وربما هنالك شيء لم أعرفه، أغمد خنجره دون أن يلتفت ناحيتي، وغادر المنزل بصمت في دهشة مني، أما "مارغريت" فكانت لا تزال تبكي بحرقة.

انحنيت نحوها قائلاً: هل أنتِ على ما يرام؟؟

أومأت برأسها مجيبة بنعم.

أخذت أتفحص ذراعيها، كان في كل ناحية منه ينزف.

- اللعين!! كيف سمحتِ له بفعل كل ذلك؟ أنتِ تنزفين من كل جانب.

تلفتُّ حولي بحثاً عن ضمادات لكنها أوقفتني قائلة: شكراً لك.. سأعتني بنفسي، فأنا ممرضة بعد كل شيء.

رفضتُ قائلاً: سأفعل أنا، لقد تعلمت ذلك أيضاً.

أسندتها وأجلستها على الكرسي وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة.

ثم ذهبت لأحضر الضمادات وشرعت بتنظيف جروحها قائلاً بحنق: تباً، لمَ قد يفعل ذلك معك.. أحقاً ما قاله بشأن أنك أَمَتُه.

- لمَ أنتَ متعجب هكذا؟؟ إن مثلي كثيرُ هنا.

توقفتُ للحظة مندهشاً، ثم تابعت لف الشاش على كلتا ذراعيها قائلاً: محال، هذا شيء لا يمكنني تصديقه.

- ألم أقل لكَ سابقاً بأن هذه المدينة مجنونة!!

تنهدت ثم تابعت: لقد اعتدت على ذلك، لا بأس معي، ذلك الطبيب هو بالفعل يحبني ويعاملني كابنة له؛ لكنه يفعل ذلك حينما يكون ثملاً فقط.

- حقاً أنتِ راضية بهذا؟!

أرخت برأسها للأسفل، وبدت وكأنها تغرق في حزن عميق ثم رفعت رأسها وقالت ببسمة باهتة: ذلك الطبيب لا يبدو كمظهره، داخله شيطان متوحش، من الأفضل أن لا تدخل معه

في أي نزال، خنجره ذاك قادر على خرق عظام ضحاياه، ولكني أشكرك لإيقافه بعد كل شيء، لقد كانت طعناته تلك مؤلمة.

فجأة فاضت عيناها بالدموع، وعبثاً كانت تدفعها وتتابع: مؤلمة للغاية..

وحينما لم تستطع أن تصمد أمامها أكثر، غطت وجهها وانفجرت باكية.

لا أدري لمَ حينها مددت يدي ماسحاً على رأسها، وقلت واعداً بكل ثقة: لا تقلقي، سأفعل شيئاً حيال ذلك.

رفعتْ رأسها ناظرة إليَّ بدهشة وهي تقول: ما الذي تعنيه بذلك؟

ابتسمتُ في وجهها، ثم قلت: لا أعلم، ولكن كل ما أعرفه أنني أصبحت مجنوناً منذ قدومي إلى هنا، وسأفعل شيئاً ولا شك. ثقي بي فقط.

ندت من شفتيها بسمة جميلة وهي تقول: أنتَ حقاً غريب!! أحسست بذلك منذ أن قابلتك تلك الليلة، ما زلت أذكر ملامحك حينما عدت تطرق الباب بحجة أنك قد غيرت رأيك، كان شكلك مضحكاً للغاية.

ثم ضحكت ضحكات خفيفة لكنها أشعرتني بالسعادة، كوني استطعت جعلها تضحك بعد كل شيء.

وقفتُ مستعداً للمغادرة ثم قلت: "مارغريت".. أنا آتي للمدينة عادة كل يوم أحد وثلاثاء، في حال أنك تعرضتِ للأذى أو أنك أردتِ الهرب، ابحثي عني في سوق المدينة ونادي باسمي "راد" وسآتي حالاً إليك...اتفقنا؟

أومأت برأسها بسعادة.

- حسناً أنا مغادر الآن.. أستأذنك.
- ليحفظك "يوسِع".

التفت إليها مبتسماً، فكما توقعت من تلك الليلة "مارغريت" لم تكن تعبد الشيطان كما يفعل البقية، وربما لهذا السبب يضطهدها الطبيب.

بدت مرتبكة وهي تتحجج قائلة: أعني، لم أكن أقصد "يوسِع" لقد عنيت...

ابتسمتُ قائلاً: لا تقلقي ولا تخافي، أعلم بأنك مسيحية.

ابتسمت بارتياح وقالت: شكراً لك "راد".

أغلقتُ الباب خلفي، واتجهتُ مباشرة ناحية الدار التي أرشدتني إليها سابقاً، وما إن وقفت أمامه، حتى التقطت أنفاسي متأهباً، فهنا سأجد أجوبة لأسئلتي التي طالما تمنيت أن أعرفها.

إلى أين ستؤول البشرية؟ هذا ما أريد معرفته.

وما إن هممت بطرق الباب، حتى أثار انتباهي بعض بقع الدماء على مقبضه، وبعضها كان منتشر أسفل الباب، ومن دون تردد وتفكير أدرت الباب بسرعة وظهر من خلفه امرأة ممددة على بطنها تسبح في بركة من الدماء!

الفصل التاسع: الموج الذي يحرك الأعماق

حرمان البشر من حقوقهم الإنسانية هو تحدٍّ لإنسانيتهم ذاتها.

نيلسون مانديلا

صحت بها عالياً: قلتُ مراراً بأنني لست قاتلها، كيف لي أن أقتلها وأنا مَن صرخ منادياً عليكم حال رؤيتي لها، أنتم كيف تؤدون عملكم؟؟ أنا حتى لم أرَها من قبل وليس لي أية علاقة تربطني بها!! فلمَ أعامل كمجرم الآن؟! فكوا وثاقي رجاء.

ورغم كل ثرثرتي هذه لم يكترث بي أحد، كان جميع الجنود منشغلين بفحص الجثة، وبعضهم وقف يسأل العابرين هناك، أما أنا فقد أُخذ مني سلاحي وقُيدت يداي وقدماي بحبال من الخلف كمشتبه به!!

خفضت رأسي بسأم، بعدما مللت من الصياح عليهم.

في أول لقاء لي بها، وفي اللحظة التي ظننتُ فيها أنني سأجد أجوبة لأسئلتي تُقتل هذه المرأة وأُتهم أنا، يا له من حظ جميل!!

ثم رفعت رأسي صارخاً مجدداً: إلى متى سأظل مقيداً هكذا؟!!

حينها اقترب مني خيل وترجل منه فارسه، حاولت أن أبصره؛ لكنّ أشعة الشمس التي انعكست من خلفه حالت دون ذلك، فخفضت رأسي، وإذ بي أسمع أحدهم يقول: نائب القائد.. لقد قبضنا عليه وبيده أثر من دمائها.

إنها هي إذن "فان جاك".

ناولها الحارس سيفي قائلاً: لقد وجدنا هذا بحوزته.

رفعتُ رأسي ناظراً إليها وصِحت قائلاً: قلت بأنني لست القاتل، أنا لم أرَها قبل اليوم، لقد لمست الباب الملطخ بالدم دون أن

أدرك. لا يمكن أن تعتقلوني لسبب كهذا صحيح؟! ثم إنني أنا من صرخت منادياً. من المفترض أن تبحثوا عن أعدائها بداية.

رمقتني بنظرة حانقة، وقالت: أنا أستطيع سماعك، لمَ أنت تصرخ هكذا؟!

ثم اقتربت مني كثيراً حتى أصبحت على مقربة مني فأحسست بالوجل ثم انحنت ناحيتي، وهمست في أذني قائلة: "ليونهارد".

اتسعت حدقتا عيني تعجباً، وقلت: كيف عرفتِ ليو؟

ما إن نطقت ببداية اسمه حتى باغتتني بضربة قوية بغمد سيفها على ظهري، جعلت أنفي ينزف دماً على أثرها، ثم قالت بصوت حاد معلقة: لا تتحدث ما لم آذن لك بهذا.

ثم أخرجتْ سيفي من غمده وأشهرته على ظهري وأنزلته سريعاً ضاربة به وثاقي لتحله، في لحظات بدت طويلة ظننت فيها بأن رأسي سيطير عالياً.

ما إن شعرت بحرية يدي، حتى ضغط عليها وقلت لائماً: كان بإمكانك أن تخبريني على الأقل بأنك ستحلي وثاقي. أنتِ هل تستمتعين بإرعاب الناس هكذا؟؟

ثم انحنيت لأحل وثاق قدميّ.

اعترض أحدهم قائلاً: سيدي نائب القائد، لماذا تحل وثاقه؟؟

أجابته قائلة: ببساطة، لا يمكن لأحمق كهذا أن يكون هو القاتل.

رمقتها بنظرات اشمئزاز طويلة.

هل تسخر مني تلك المتوحشة؟!

قَذفتْ بسيفي إليَّ، وما إن انحنيت لألتقطه حتى قالت لي: لا تعُد إلى هنا مجدداً، في المرة القادمة لن أتردد في إطاحة رأسك.

عقدتُ السيف في حزامي، وأنا أراقبها وهي تأمر جنودها بكل تلك الصرامة والقسوة البادية على وجهها.

هي تعمدت قول تلك الكلمات لي أمام جنودها، هي تعرف

" ليونهارد" ولا شك، وقد ضربتني؛ لئلا أنطق باسمه أمامهم، لكن لماذا؟!

هي ليست قاسية كما تبدو ولكن ما الذي تخفيه هي الأخرى؟!

ألقيتُ بنظرة أخيرة على جثة السيدة، شعرتُ حيالها بالأسى لموتها بتلك الطريقة الشنيعة، وشعرتُ بخيبة أمل رافقتني طوال طريق العودة.

وما إن وصلت، حتى وجدتُ "ليو" يشوي بعض السمك للغداء.

ما إن اقتربت منه حتى قال لي: ما لك تبدو مكتئباً هكذا؟! لا بأس إن لم تحضر الزيت والطحين، ستصنعه غداً لي.

- "ليو"، هل تواسيني بهذا!!
- اقترب، لنتناول غداءنا ثم نبدأ التدريب.

جلست بقربه أحدق بالنار، فقال هو: يبدو بأنك لم تقابلها.

- في الواقع.. لقد قُتلت.
- مـــــــــــــــــاذا.. هل أنتَ جاد؟؟

تناولتُ من السمك المشوي ثم قلت: لقد كان يومي فظيعاً للغاية، بداية كنتُ سأشتبك مع الطبيب، لقد استشطت غضباً من تصرفاته، لقد رأيته يضرب "مارغريت" بخنجره، محدثاً لها جروحاً طفيفة، كان يحاول تعذيبها بهذا.. أتذكرها؟ تلك الممرضة الصغيرة التي حدثتك عنها سابقاً.

- نعم أعرفها، إنها أَمَته.
- أكنت تعرف ذلك؟!

صمت قليلاً ثم تناول من السمك، ثم قال بجدية: "راد"، ذلك الطبيب شيطان بزي إنسان، أنت لست نداً له، أنتَ حتى لو بارزته مع مبادئك هذه التي تؤمن بها فلن تقتله.. لذا لا تشتبك معه مجدداً، فذاك الطبيب ما إن يشهر سيفه إما أن تقتله أو يقتلك.

سرحت بالنار قليلاً...

أنا حقاً لم أحمل السيف لأقتل، أنا فقط حملته لأدافع عن نفسي، ولن أتخلى عن مبدئي هذا، وإن كان ذلك مستحيلاً في هذا الزمن...

التفتُّ ناحية "ليو"، ثم قلت: هل نتدرب الآن؟

- هل أنتَ مستعد؟!

أومأتُ بالإيجاب وأخرجت سيفي من غمده.

وهاجمته سريعاً، وما إن التحم سيفانا حتى قلتُ: "ليو"...لقد قابلت نائب القائد "فان".

- وهل اشتبه بكِ في قضية مقتل "جين"؟
- كيف عرفت؟! أنا أشك بك، أنتَ هل تتبعني؟؟ أم أنكَ تعرف الكثير بالفعل؟
- أنا فقط أفكر كثيراً وأخمن، أنت أيضاً، تعرف الكثير والكثير "راد".
- لقد همست في أذني باسمك.. بعد أن حملت سيفي بيدها.

توقف "ليو" فجأة بدا فيها مصدوماً ثم باغتني بهجومه نحوي، صددته بسيفي، فقال صارخاً بوجهي: لا تدع ثغراتك مكشوفة هكذا يا أحمق.

- كل ما في الأمر أني فوجئت من ردة فعلك للتو، هي تعرفك ولا شك، ما هي علاقتكما؟

دفعني بكل قوته أرضاً وأشهر سيفه نحوي وهو يقول: لازلت ضعيفاً، كان عليك أن تسقطني بساقك قبل أن أصل إليك لتلتقط سيفك.

لم ينتهِ من قوله هذا، حتى دفعته بساقي فتعثر قليلاً، فأسرعت ملتقطاً سيفي وقلتُ: لقد فعلت، ومع هذا أريد أن أعرف..تلك

المرأة تبدو قاسية، لكنها ساعدتني لأكثر من مرة حتى الآن وقد رأيت دموعها أثناء إعدام المستشار، هل هي حقاً تابعة لهذا الحاكم؟؟

دفعني بسيفه وصددته، وهو يقول: "راد"، أنت تثرثر كثيراً.

- وأعرف كيف انتزع منك الكلام، يجب أن تخبرني على أية حال، وإلا لن أصنع لك الخبز غداً.

أبعد سيفه وعلت شفتيه بسمة مشرقة وهو يقول: هل نكتفي بهذا القدر ثم نتابع عصراً؟

أومأت برأسي موافقاً ثم قلت: سأعد بعض الشاي، لأستمع لقصتها، اتفقنا؟

وما هي إلا دقائق حتى جهزت الشاي وجلست بجوار "ليو" بشغف لسماع قصتها.

ناولته الكوب، فأخذ يضحك وهو يقول: أحقاً أتيت من الماضي "راد"؟ في أوقات كثيرة أكاد لا أصدق هذا.

- ولا أنا، ما زلت أشعر وكأني أحلم لكنه الواقع وهذا ما حدث.
- إني أتساءل: هل راودتك يوماً رغبة بتغيير مستقبل البشرية؟!

ابتسمت مجيباً: ربمـــــــا...

ثم خفضت رأسي لأسفل بحزن عميق، ثم قلت: أتعلم "ليو"، لقد مرت علي أيام كثيرة مقت بها البشر جميعاً، وكنتُ أقول

صراحة لو لم يكن في البشر نبي "كمحمد" وبقية الأنبياء لكرهت كل البشر.

- هذا نتيجة عاطفتك وحسب، أنت عاطفي للغاية، مهما فعلت، فأنت لن تتقبل هذه الحقيقة؛ لكنه الواقع بعد كل شيء، هكذا هم البشر منذ أن خُلقوا، الأقوى يستعبد الضعيف، والقوى العظمى في أي عصر هي التي تسيطر، تنتج لها بيادق لتضرب بها ضربتها وتحقق مآربها ثم تتخلص من كل من يعارضها، حتى بيادقها تتخلص منهم بدم بارد بعد أن يحققوا مآربها، أعتقد أن الأسوأ على مر التاريخ هم أولئك الذين استُغِلوا ليصبحوا بيادق.

أومأت برأسي مجيباً: هذا حقاً ما تعلمته من قراءتي للتاريخ، وحقاً أريد أن أقرأ تاريخ المستقبل هذا ما الذي جرى، أشعر بالسوء حقاً كونها قد قُتلت، ومع أني بدأت أشك بكون قتلها مدبراً؟؟ لا أظن أنها مسألة عداء أو حتى سرقة.

صفق ليو بكلتا يديه مظهراً إعجابه، وقال: رائع، أنت حقاً تدهشني!! قتلها مدبراً ولا شك، فهنالك مصلحة وراء ذلك.. وكانوا سيلقون القبض على أي شخص لإيقاع التهمة عليه دون أي دليل، الغريب بأنه قد تمت تبرئتك فوراً، ماذا فعلت لك "فان" هذه المرة؟؟

- الحمقى جنودها قيدوني وأخذوا سيفي واتهموني بقتل السيدة "جين"؛ فقط لأن يدي كانت ملطخة بدمائها، لقد لمست الباب الملطخ، وأيضاً قمت بحملها، ظننتها ما تزال حية.

أومأ إلي "ليو" بالمتابعة، فتابعت قائلاً: وما إن وصلت القائدة وتفحصت سيفي، حتى همست في أذني باسمك، ومن شدة ما فوجئت بذلك، لفظتُ اسمك؛ لكنها كانت قد ضربتني بغمد سيفها ضربة ظننت معها أنني سأصبح مشلولاً، ولا أظنها فعلت ذلك إلا لتسكتني ثم حلت وثاقي، وعلّقت بسخرية: لا يمكن أن يكون هذا الأحمق قاتلاً. لقد أزعجتني حقاً، رغم أنها أرادت صرف انتباههم عني.

ضحك "ليو" بخفة، ثم علا صوت ضحكاته أكثر فأكثر، ثم قال معلقاً: "راد"، لقد رأيت "فان" أول مرة وهي تبلغ من العمر عشر سنوات، لقد أُسرت في إحدى المعارك، وكانت من إماء الحاكم السابق، كانت عيناها تشعان بوهج قوي، وهج يأبى الظلم والانحناء، رأيت فيها شيئاً يختلف عن بقية أقرانها، لقد رأيت فيها بطلاً يمكنه أن يغير الكثير؛ لذا أخضعتها لتدريباتي، كانت تعدني كالأب لها، كبرت "فان" في القصر، ولأنها كانت تطيح بالرجال أثناء المبارزة، طلبت من الحاكم تعيينها كنائبة لي.. هل تصدق ذلك؟؟

حينما حدث الانقلاب وقعت "فان" في خديعتهم، وقد عيَّنها الحاكم الحالي نائباً للقائد الجديد أيضاً؛ لأنه لم يرد أن يخسر تلك الورقة الرابحة لكن يبدو أن "فان" كما هي لم تتغير، ذلك الوهج في عينيها لا يمكن أن ينطفئ، لا يمكن أن يرضى بالظلم... أتدري؟! في أحيان كثيرة أشعر بالندم لزجي بها وسط تلك الفوضى التي لا تناسب طبيعتها، ومع هذا لقد سعدت حقاً لقولك لي ذلك ، أنا سعيد حقاً بكوني عرفت هذا الآن.

- لا أدري لمَ طرأ بذهني الآن، قصة عذراء أورليان* .إنها تذكرني بها، أعتقد بأنها امرأة قوية حقاً.

قلب "ليو" الحطب بعصاه، وعلق قائلاً: مهما كانت قوية، هنالك شيء يجعلني أشعر بالندم تجاهها.

حككت شعري وقلت دون اكتراث: كنت أشك بذلك، إذن أنت من أحال ذلك الجمال إلى وحش.

تلقيت ضربة بعدها على رأسي بالعصا التي كان يقلب فيها "ليو" النار، وكاد شعري أن يحترق.

---

*عذراء أورليان : إشارة إلى جان دارك ولدت لعائلة من الفلاحين في الوسط الشرقي من فرنسا عام ١٤١٢ م قادت الجيش الفرنسي إلى عدة انتصارات مهمّة خلال حرب المئة عام، لطرد الإنجليز من بلادها ،ممهدةً بذلك الطريق لتتويج شارل السابع ملكاً على البلاد. قُبض عليها بعد ذلك وأُرسلت إلى الإنجليز مقابل المال، وحوكمت بتهمة "العصيان والزندقة"، ثم أُعدمت حرقاً بتهمة الهرطقة عندما كانت تبلغ ١٩ عاماً ، وبعد ١٩ عام من حرقها أقيمت محكمة خاصة لتكريمها ولقبت بالقديسة في عام ١٩٢٠م وأصبحت مصدر إلهام للعديد من المبدعين الفرنسيين والكتاب في العالم ورمزاً للمقاومة النسائية بالعالم .

الفصل العاشر: ابتسامتها المشرقة

موجع أن تُسلب حريتك وداخلك وجود يأبى
الفناء.

في اليوم التالي كنتُ قد ذهبتُ للمدينة وابتعتُ الطحين والزيت، وبينما أنا أتجول في السوق، وقفتُ أمام محل لبيع أنواع الشاي، وبينما وقفت متحيراً في ابتياع نوع جيد، سمعتُ صوتاً من خلفي يقول: أشتري هذا، فهذا النوع هو الأفضل "راد".

التفتُّ ناحيتها ثم قلت: أنتِ تلك الطفلة من البارحة "مارغريت"، لماذا أنتِ هنا؟! هل قررت أن تهربي معي؟

عبرت من أمامي وقد انبلجت من شفتيها بسمة مشرقة وهي تقول: ما هذا الهراء!!

أشرتُ لبائع المحل لذلك النوع لأبتاعه، وأنا أقول: هذا الهراء جعلك تضحكين الآن.. إذن سأفعل ذلك دائماً.

احمر خدّاها خجلاً ثم استدارت مغادرة، أخذتُ الشاي من البائع ثم تبعتها، وما إن تنبهت لي حتى قالت متسائلة: لمَ تتبعني؟؟!! لا تقل مجدداً: بأنكَ تظن حقاً بأني أفكر بالهرب .

- لست أتبعك، هذا طريقي.

خفضت رأسها بحرج وصمتت، فقلت متسائلاً: كنتُ أتساءل بشأن جروحك؟؟ آسف فأنا فضولي.

- أنا بخير الآن، لقد كان الطبيب ثملاً البارحة وحسب.
- وهل هكذا يفعل حينما يثمل؟؟ إلى أي حد تصبرين على ذلك؟ ما الذي يجبرك على البقاء معه!!

وقفتْ للحظة، وبأسى حدقت في عيني قائلة: إلى أي حد؟؟! كيف تسأل عن ذلك بهذه البساطة!! هل تدركُ كيف تكون معدماً من كل شيء؟! أنا كهؤلاء تماماً.

ثم أشارت بأصبعها السبابة يميناً، وقفتُ متصلباً في مكاني من دهشة ما رأيته، كانت هنالك منصة قد وضعت للعرض، وكان يقف فوقها رجال ونساء وأطفال مقيدين، وكان الناس مجتمعين حولهم يساومون حول أسعارهم!!

قلتُ معلقاً: ما هذا السخف!! لا يمكن، لا يمكن. كيف لهم أن يتاجروا بالبشر هكذا؟! هل هذا حقاً يحدث أمامي الآن!!

- أنت لم تصدق! هذه السوق تنصب كل شهر، أنا كنت ذات يوم منهم، لكن ربما حالي أفضل بكثير مع الطبيب؛ على الأقل أنا لا أقوم بأعمال شاقة حتى أموت تحت وطأة الشمس كما غيري.
- لا أصـــــــــدق، أبداً.
- لابد لشمس هذا العصر أن تفل، وأن تشرق شمس أخرى.

استدرت ناحيتها مندهشاً من كلماتها الأخيرة تلك، وقلت معلقاً: أنتِ أيتها الطفلة.. أنتِ تقولين كلاماً أكبر منك حقاً.

- اسمي "مارغريت"، هل نسيته؟! هذه المرة الثالثة التي تنعتني بالطفلة!! وأنا لست بطفلة كما ترى.

ثم تابعت: عموماً لقد قال ذلك (هينتون).

- لقد فاجأني ذلك حقاً!!

ثم لا أدري لمَ نبت فيني هذا الشعور المُلح لاستفزازها لذا تابعت متسائلاً: صحيح كم عمرك أيتها الطفلة؟

رفعت إحدى حاجبيها وبانزعاج أشارت بإصبعيها نحو أذنيها وهي تقول: أنت.. ألم تسمع ما قلته للتو؟! أنت مزعج بالفعل. عموماً لا أعلم بالتحديد كم عمري، ولكني لست بطفلة.

ثم خفضت يديها وتابعت بصوت يكاد يختفي: وما أعرفه يقيناً وما أنا متأكدة منه هو أن يوم ولادتي كان يوماً مشؤوماً وحسب.

ثم استدارت مغادرة وهي تلوح بيدها: إلى اللقاء.

التقطتُ يدها لإيقافها وقلت: أيتها الطفلة، لا زلت عند عرضي لك.

أفلتت يدها وهي تقول بدهشة: أنتَ شاب غريب حقاً!! أنت تتصرف بلا مسؤولية كالأطفال.. أنتَ كم عمرك؟؟

حككت شعري مفكراً ثم قلت: حسناً من المفترض، إن كنت هناك، أن أبلغ الرابعة والعشرين بعد يومين، وإذا أضفت إليها الألف عام ومئة.. أظنني أبلغ..

قاطعتني ولوحت بيدها مغادرة وهي تقول: هذا لا يحتمل. أنت أحمق.

وقفت للحظات غارقاً في الضحك.

لقد كانت تسخر مني، ولكني سعيداً حقاً كوني جعلتها تبتسم بسعادة هكذا.

ثم التفتُّ يميناً ببؤس، وكان البيع لا يزال ناصباً ولا يزال أولئك التجار يساومون الناس في أسعارهم.

هل حقاً ستفل شمس هذا العصر المظلم كما قالت "مارغريت"؟؟

لمَ كل ذلك الظلم يتكرر في كل حقبة زمنية، لمَ لا يتعلم الناس من أخطائهم؟!

فجأة ارتطمت بأحدهم وسقطت أرضاً، وضغطت بيدي على أنفي الذي كان ينبض بالألم، يبدو أنني الوحيد الذي لا يتعلم من أخطائه، لازلتُ أسرح وأرتطم بالناس!

مد لي الرجل يمينه قائلاً: آسف لقد آلمتك على ما يبدو.

هززت رأسي بالنفي، وما إن أزحت يدي عن أنفي حتى صرخ الرجل قائلاً: أنت هو القاتل من البارحة؟!

تلفتُّ حولي بانزعاج، كان الجميع يحدق بي حينها، فقلت معترضاً: ما الذي تقوله أنت؟

- آسف أقصد أنت الذي اشتبه به البارحة بقتل السيدة "جين".
- ولمَ لا ترفع بها صوتك كما فعلت بسابقتها، وجعلت كل الناس ينظرون ناحيتي بريبة.

صرخ بصوت مرتفع قائلاً: أنـــــــــت الذي اشـــــتبــــــه بــــــه البــــــارحـــــــة في القـــــتل ولـــــــســــــتَ القــــــاتـــــل...

هل يعجبك هكذا؟؟

بانزعاج رددت: يا لك من غريب حقاً.. من أنت؟

- آسف لقد رأيتك البارحة وأنت تخرج من منزل الطبيب، وتقف عند باب السيدة "جين"، لم تكن في أي حال من الأحوال بقادرٍ على قتلها.

عضدت شفتي بامتعاض وأنا أقول: والآن تقول هذا الكلام، لمَاذا لَمْ تقله البارحة وأنا أُقيد إذن؟!

- خشيتُ أن أعتقل أنا الآخر.

تمتمت بامتعاض مجدداً وأنا أمر من أمامه: تباً لك.. لقد أوجعني القيد حقاً.

أوقفني متسائلاً: مهلاً.. ماذا أردت من السيدة جين؟

التفتُّ إليه قائلاً: وما شأنك أنت؟؟!

- الكثير يأتي إليها لسؤالها عن علمها، كنت أود إرشادك لتلميذها، وهو أمين لمكتبتها أيضاً.

باهتمام عدت إدراجي نحوه وقلت: حقاً؟؟ ما اسمه؟ من يكون؟

- إنه هينتون، ستجده غالباً يجلس عند نافورة الكنييس وسط المدينة.

"هينتون"، أهو ذاك الذي ذكرته مارغريت قبل قليل؟.

- هل تعني بنافورة الكنييس هي تلك النافورة الضخمة التي يتوسطها تمثال لإنسان بقرن جدي؟؟
- نعم إنها هي، ذلك تمثال النوار.

تلك النافورة التي ذهبت إليها في أول يوم أتيت فيه إلى هنا ولا شك.

- سأرشدك إليها راد.

التفتُّ ناحية الصوت لقد كانت مارغريت لذا علقت قائلاً: لا تزالين هنا.. ظننتك غادرتِ.

أومأت بالنفي، فتابعتُ مازحاً: إذن هل قررتِ الهرب معي؟

انبلجت شفتاها ببسمة مشرقة وهي تقول: ما هذا الهراء مجدداً؟!

ثم استدارت مغادرة، وتابعت: اتبعني من هنا.

لحقتها وأنا أقول: سأفعل ذلك كلما قابلتك.

سرنا معاً حتى وصلنا لمنتصف المدينة أخيراً، وقفتُ أمام النافورة ورأيتُ شاباً بدا لي أنه في السادسة والعشرين من عمره، لديه عينان خضراوان حادتان، وشعر أشقر، وحاجبان عريضان، يقف على حافة النافورة ويحدث الناس.

ما إن سمعت صوته حتى انتابني الشك، ربما يكون هو ذلك الشخص الذي رأيته تلك الليلة أيضاً يحدث الناس.

لقد كان حديثه حقاً يأسر اللب، كان يتحدث عن العدل بين الناس والمساواة بينهم، وتحدث عن أصل الخليقة من آدم وحواء ثم اختتم حديثه بذات المقولة التي قالتها مارغريت سابقاً.

لا بد لشمس عصر الظلام أن تفل، وأن تشرق شمس العدل من جديد.

ثم انفض الناس من حوله بعد أن صفقوا له بحرارة.

لقد أدركت يقيناً أني أقف أمام منبر من منابر العهد الجديد، وربما يكون ذلك ما أنتجته "جين"؛ لذلك تم اغتيالها.

كان يتجه ناحيتي، ولكنه ما إن أبصرني أمامه حتى رمقني بنظرة استنكرتها، ثم سلك طريقاً آخر، فناديته قائلاً: مهلاً سيد "هينتون"، لقد أتيت بحثاً عنك.

ألقى بنظرة خاطفة على سيفي، ثم قال: وهل أتيت لتتجسس عليَّ من أجل الحاكم؟

ألقيت نظرة على سيفي ثم قلت: أقسم لك بأني لستُ كذلك.

- وسيف الكيليج* هذا الذي تحمله؟؟

ألقيت نظرة خاطفة عليه، ثم أجبته قائلاً: إنه ليس لي، لقد أعارني إياه أحدهم، ولا أستطيع أن أفصح أكثر من هذا، ولكني أقسم لك بأني لا أنوي بك شراً، ولستُ من جنود الملك.

- وبمَن تقسم؟؟

أشرت بإصبعي نحو السماء وقلت بثقة: ليس "بيسوع" طبعاً ولكن بربي رب هذه السماء.

ابتسم بارتياح ثم قال: لا يهم، المهم لا زال لديك عقل، ماذا كنتَ تريد؟؟

- الحقيقة كنتُ أريد لقاء السيدة "جين"، وقد أتيتُ البارحة لها، ولكني اعتقلتُ في النهاية واشتبه بي. قال لي أحدهم بأنكَ كنت أميناً على مكتبتها. أود لو تسمح لي بأن أطّلع على تلك الكتب؟؟
- وما الذي تريده بالضبط من كتبها؟؟
- أرجوك، أريد أن أعرف ما الذي حدث بالضبط بعد القرن الواحد والعشرين وما آلت إليه الأمور؟

---

*: سيف الكيليج :ظهرت أول مرة سيوف الكيليج في الدولة العثمانية عام ٤٠٠ م ويمتاز السيف بوجود نقطة التوازن في مقدمته وليس عند المقبض مما يولد قوة أكبر عند الضرب بالمقدمة وعندما فتح العثمانيون دول البلقان انتقلت تلك السيوف للدول الأوربية حتى أصبحت جميع الجيوش الأوربية بحلول القرن السابع عشر تستخدمها .

- أنتَ تسأل عن تاريخ قديم!! غريب أمرك لمَ أنت مهتم به هكذا؟؟

- ذلك يهمني حقاً.

- وهل تعتقد أن إجابة كتلك، ستجعلني أوافق!

قالها ثم استدار مغادراً فجذبته من كُم قميصه قائلاً: مهلاً، آسف على هذا، ولكني حقاً أريد أن أعرف.

حينها تقدمت "مارغريت" نحوه قائلة: أرجوك سيد "هينتون" أن تسمح له بذلك، إنه ليس جيداً، ولكنه ليس سيئاً أيضاً.

رمقتها بنظرات حادة وكززت على أسناني معلقاً: أنتِ يا طفلة!! هل تظنين بأنه سيوافق الآن بعد ما قلته؟

ولكني فوجئت بقوله: لقد وافقت. ولكن الكتب ليست باللغة الإنجليزية؛ بل بلغة مندثرة. إنها بالأرمينية ولن أقرأها لك أنا، أبحث أولاً عمن يجيدها.

- سأقرأها له إذن، أنا أجيدها، دعها في عهدتي.

التفتُّ ناحية "مارغريت" مندهشاً وقلت: أحقاً تجيدينها يا صغيرة؟؟ ولكن لمَ كانت بتلك اللغة ولم تكن بالإنجليزية؟

أجاب "هينتون" قائلاً: أتسأل عن ذلك حقاً!! ببساطة لم تكن تريد لبشاعة تلك العصور وأسلحتهم الفتاكة أن تنتقل مجدداً لهذا العصر. لقد أخبرتني ذات مرة، بأنهم كانوا قادرين على إسقاط

النيازك من السماء لتُحدثَ انفجاراً مدوياً قادراً على نسف مدينة بأكملها خلال دقائق معدودة.

- أقلتَ نيزك من السماء؟؟!!

أومأ برأسه موافقاً وأتم: كانت تسمى بلعنة "أوبنهايمر".

توقفت للحظات مفكراً، هو كان يشير إلى السلاح النووي بذلك ولاشك. هل أفهم من ذلك بأن نهاية الحقبة التي أعيشها ستكون بالنووي والأسلحة الكيميائية؟

- ما الذي تفكر به "راد"؟ إذ لم تلحقه، سنفقده.

تنبهت لها فتبعته ثم التفت ناحيتها وقلت باستياء: أنتِ يا صغيرة.. ما الذي جعلك تقولين بأني لستُ جيدا؟؟ ما الذي رأيته مني؟؟ - ليس جيداً ولكنه ليس بهذا السوء- ما هذا الوصف الرائع؟! ألم أكن أنا من أنقذك ذلك اليوم؟ أنتِ ناكرة للجميل.

توقفت للحظة وقالت بانزعاج: أنت ثرثار بالفعل. توقف عن مناداتي بالطفلة والصغيرة أولاً. قلت لك مراراً اسمي "مـــــــــارغـــــريت".

تظاهرت بعدم السماع لإغاظتها قائلاً:

- مـــــــــــــــاذا لم أسمع جيداً.. راغا.. ريتا.. أم غريت.

توقفت مهددة وهي تقول: أنت ناديتني باسمي سابقاً، ولكنكَ تتظاهر بذلك الآن؛ لتغيظني وحسب.. لن أقرأ لك أبداً الكتب.

ثم استدارت مغادرة، أوقفتها معتذراً:

- مهلاً.. مهلاً.. "مــــــــــارغـــريت".. أهذا يرضيك الآن؟

التفتت ناحيتي ببسمة مشرقة وهي تقول: طالما نطقته جيداً، فسأقرأ من أجلك.

الفصل الحادي عشر: استفاقة ساعة الزمن

أنا على يقين بأن من سيكتب التاريخ بعد مائة عام سيقولون بأن النفط لم يحقق الثروة للعرب إلا التعجيل بهلاكهم.

أمين معلوف

في يوم الأحد، وهو اليوم الذي اتفقت فيه مع هينتون ومارغريت لنتقابل معاً في مكتبة السيدة جين لقراءة الكتب، حيث لم يتسنى لنا المرة السابقة ذلك بسبب حدوث أمر طارئ جعل هينتون يعتذر، كانت خيوط الفجر تنتشر شيئاً فشيئاً.

اتجهت ناحية القِبلة وكبرتُ لصلاتي، وما إن انتهيت حتى وجدت ليو كعادته يجلس خلفي مديراً ظهره لي، فقلت معلقاً: ليو.. ألن تكف عن هذا؟؟ لا أعتقد أن قُطاع الطرق سيأتون مجدداً.

- لا يمكن أن أدع ظهرك مكشوفاً هكذا، لا يمكننا أن نتنبأ بما سيحدث.

ندت من شفتي ابتسامة مشرقة، وقلت: أشكرك لهذا ليو. أنت شديد الحذر حقاً.

- ألستَ ذاهباً اليوم لمكتبة جين؟ هيا لنتناول إفطارنا سريعاً.
- بلى. صحيح أنا متشوق لذلك بالفعل، لم يسمح لنا المرة الفائتة بدخولها.
- إذن لنسرع، ولكن لا تمكث حتى الظهر، فلديك تدريبات كثيرة.

ألقى بنظرة ناحية المدينة وتابع: أشعر بأن مداً هائلاً على وشك أن يحدث.

قلت مستغرباً: ما الذي تعنيه؟؟

- ستفهم ذلك في وقته.

هززت كتفي بسأم وقلت معلقاً: هكذا أنتَ ، تحب الغموض.

تناولتُ إفطاري وما إن هممتُ بالمغادرة حتى قال ليو: راد. خُذ هذا المال واشترِ لك ملابس من سوق المدينة، إن ملابسي تبدو أكبر منك بكثير.

- حقاً منظري يبدو بائساً بها، لقد سئمت منها بالفعلــ..

لم أكمل كلمتي إذ باغتتني صفعة على جبيني أخرستني.

علق قائلاً بتهكم: لا زلت تحتاج لتدريب! لمَاذا لَمْ تتفادَها؟

أجبته بامتعاض: أشعر بأني سأفقد جبيني أو رأسي قبل أن أتمكن من تلافي ضرباتك.
تناولت المال منه، ثم اتجهت مسرعاً صوب المدينة.

قابلت مارغريت أولاً، رحبت بي ثم سرنا معاً نحو المكان الذي حدده لنا هينتون.

وبعد ساعة من المشي تخللها عدة مشادات بيني وبينها، كنت حريصاً خلالها على إثارة غضبها. وصلنا أخيراً للمكان، لقد كانت المكتبة قابعة في أقصى المدينة في الجهة الغربية من الكنييس الشيطاني.

- وصلنــــــــــا.

قالتها مارغريت بينما وقفت آخذ نفساً عميقاً، فأخيراً وعلى بُعد خطوات، سأجد إجابات أسئلتي.

التفتُّ إليها متسائلاً: هل سنطرق الباب الآن؟؟

أومأت بالإيجاب، وما إن همَّت بطرقه، حتى فُتح الباب وظهر من خلفه هينتون مُرحباً، وقال: أهلاً بكما.. تفضلا.

وما إن دخلت حتى أخذتني الدهشة، كانت المكتبة عبارة عن غرفة متوسطة الحجم، تحيطها رفوف كثيرة، كانت مكتظة بالكتب الكثيرة، وفي إحدى الزوايا، كانت هنالك مجموعة من الكتب جُلدت بغلاف أحمر، علمت بعد ذلك بأن تلك الكتب هي التي ألفتها جين سابقاً.

تلفتُّ حولي بدهشة متسائلاً: سيد هينتون، من أين سنبدأ؟؟!!

ما إن أنهيت سؤالي، حتى رُفع سيف هينتون في وجهي، تراجعت للوراء قليلاً ، وقلت: ما الذي تفعله الآن؟؟ لمَ تمزح معي هكذا.

- أنا لست بمازحٍ معك. أنت لست من أتباع الحاكم، ولست أيضاً من هنا وتتحدث إنجليزية غريبة بعض الشيء. شعرك أسود باهت وعيناك بُنيتان، باختصار ملامحك لا تبدو أبداً من هنا. مَن تكون أنت فعلاً؟؟

بدا واضحاً بأني أخفي شيئاً، وأنا أجيبه بتوتر: أنا حقاً، أنا كما أخبرتك اسمي راد، وأنا جئت من بلاد...

قاطعتني مارغريت قائلة: راد من أصول عربية، وولد معي في مملكة ببين.

نظرتُ إليها بدهشة، ولكني لم أشأ تخريب ما ابتدأته فخضت معها بذات الحديث، وأكملت قائلاً: نعم لقد قدمت من مملكة ببين، لا داعي لكل هذا الشك. اخفض سيفك رجاء.

أعاد سيفه لغمده وهو يقول: في الحقيقة لا يهمني من أين أتيت، ولا يهمني أصلك أو من أي بلد جئت، ولكن ما لا أفهمه هو اهتمامك المبالغ فيه بالبحث عن تلك الحقبة؟! ما عرفته من والدتي وما سمعته من أحاديث مختلطة من الناس، والعديد من الحكماء بأن تلك الحقبة كانت الأسوأ على مدار التاريخ.

- لذا أنا مهتم بها، كونها الأسوأ.

اتجه ناحية أحد الرفوف وتناول كتاباً ضخماً ووضعه على الطاولة أمامي قائلاً: هذا مجلد واحد من تسعة مجلدات، ابدأ فيه أولاً.

- إذن سأنسحب الآن.

قالتها مارغريت وهي تستدير مغادرة، جذبتها من كُم ثوبها قائلاً: مهلاً، مهلاً يا طفلة، لمَ غيّرتي رأيك الآن؟؟ كيف تتركيني هكذا؟! أنتِ حقاً ناكرة للجميل. أنتِ الأسوأ على الإطلاق.

دفعت بيدي جانباً وقالت: أنتَ هو الأسوأ. اقرأها بنفسك إذن.

قلبتُ صفحات الكتاب بارتباك وقلتُ: أنتِ تمزحين!! كيف تتركيني وحيداً مع هذه الطلاسم المخيفة بعد أن وعدتي بمساعدتي!!.

ابتسمت بخبث، وقالت: اطلب ذلك مني بأدب إذن، وسأنفذ ذلك.

رفعتُ حاجبيّ متعجباً وتمتمت بصوت منخفض: أهذا ما يسمى بكيد النساء!!

- ماذا قلت؟؟ لم أسمع.

وقفت مشيراً بيدي للكرسي أمامي قائلاً: آنسة مارغريت هل من الممكن أن تؤدي لي هذه الخدمة وتتفضلي وتقرئي لي هذا الكتاب. من فضلك رجاء؟

كتمت ضحكتها، وقالت: حسناً ما دمت مُصراً هكذا.

بينما كان السأم يتسلل إلى هينتون جراء حوارنا هذا، فعلق مبدياً انزعاجه: أنتما الاثنان تتصرفان كالأطفال حقاً!!هل أنتما حقاً صديقان؟

أجبته بعد أن خفضت رأسها وألصقته بالطاولة: أي صداقة؟!! لا يمكن أن تخلط بيننا هكذا!! أنا أكبر من هذه الطفلة بعشر سنوات.

بالكاد استطاعت أن تقف بعد أن تمكنت من رفع رأسها ودفع يدي ثم دفعت بكرسيها بانزعاج، وقالت بلهجة غاضبة: لقد اكتفيت. أنا مغادرة.

جذبتها من كُم فستانها وقلت بتملق: آنسة مارغريت، لن أكررها رجاء أقرئي لي.

- طفلان أحمقان.

علق بها هينتون ثم اتجه نحو كرسي في آخر الغرفة، وتناول أحد الكتب وقال متوعداً: رجاءً لا تُحدثا أي أصوات غير ضرورية، وإلا فسأطردكما من هنا.

التفتُّ إليها ولُمتها قائلاً: أسمعتِ؟ لقد تمت السخرية منا للتو.

وجهنا أنظارنا نحوه وقالت وقد بدت مستاءة بالفعل: لم يسخر مني أحد من قبل هكذا. ولم ينعتني أحد بالطفلة؛ بل كثيراً ما كان الجميع يشيد بعقلي. حدث هذا لأنك معي. أنت هو الطفل الكبير هنا.

- بل كان يقصدك أنتِ، كان ينظر إليك حينها.

صمتت مارغريت للحظات تنظر إلي ثم ضحكت بخفة وضربت على الطاولة بكفها، ودوَّى صوت ضحكاتها عالياً في المكان، حاولت إيقافها وأنا أسترق النظر لهينتون الذي كان يرمقنا بنظرات ازدراء، ومع هذا استسلمت لها وشاطرتها الضحك، كنتُ سعيداً للغاية وأنا أراقب ضحكاتها بوجه مبتسم وملامحها الضاحكة تلك الممتلئة بالسعادة.

أخذتْ نفساً عميقاً ثم فتحت الكتاب وتصفحته سريعاً ثم نظرت إليَّ متسائلة: حسناً راد، أي شيء تريده بالتفصيل؟؟

بجدية أجبتها بصوت أقرب للهمس: قبل ذلك أريد أن أعرف منذ متى تعرفين أني عربي؟؟

- ألا يبدو هذا واضحاً!! منذ البداية خمنت ذلك.

مددتُ يدي ناحية الكتاب وقلتُ: إذن هل يمكنكِ نطق اسمي صحيحاً "رائد" هكذا؟؟

صمتت للحظة، ثم قالت: رائد هكذا؟

ظللت واجماً للحظات فقد نطقت اسمي بكل بساطة وكأن لسانها عربي! فقلت مجدداً: لحظة هلا نطقته مجدداً؟؟

- لمَ أنت متعجب هكذا؟! هو ليس بصعب لهذه الدرجة. لمَاذا لم تخبرني بأن اسمك رائد بداية. كنتُ أظنه (راد).

ضغطتُ على رأسي بكلتا يدي وقد علت شفتي بسمة مندهشة، وقلت معلقاً: لقد أمضيت أربع سنوات في بريطانيا لم ينادِني أحد برائد، كان صعباً عليهم، وأنت تنطقينه الآن بكل سهولة. هذا شيء غريب فعلاً.

قلبت بعض صفحات الكتاب وهي تقول معلقة: ربما لم أخبرك، لأنني أيضاً لستُ متأكدة من ذاكرتي تماماً، ولكن ربما تكون جدتي من أصول عربية. الحقيقة لدي ذاكرة باهتة عن طفولتي وربما لا يكون صحيحاً على أية حال. على العموم راد، من أين أبدأ؟؟

أحسستُ بخيبة فقلت معاتباً: لمَ الآن تناديني براد، نادِني رائد؟

أجابت دون اكتراث: لن أفعل حتى تكف أولاً عن مناداتي بطفلة وصغيرة.

عضضتُ على شفتي وعلقت بامتعاض: أنتِ أخبث مما تبدو عليه ملامحك.

رفعت كلا حاجبيها وكتفيها ساخرة مني. أشرتُ ناحية الكتاب وقلت:

لا بأس إذن، ابحثي عن نهاية القرن الواحد والعشرين، ما الأحداث التي جرت في العالم العربي والأوروبي والأمريكيتين وشرق آسيا.

أخذت تقلبُ الكتاب باهتمام. وكانت عيناها تضيقان أحياناً وتتسعان. وبعد مضي بعض الوقت نظرت إلي، قائلة: أنا أخشى أن لا يعطيك هذا الكتاب ما تطمح إليه. كما إنني أخشى أن لا يكون بالضرورة كتاب قد سجل التاريخ دقيقاً. ربما تكون مجموعة روايات جُمعت من عدة أشخاص. لأنه لا يذكر تواريخ بالتحديد.

- لا بأس، اقرئيه عليَّ رجاء.

دققت النظر في الكتاب وبدت مترددة، ثم قالت: حسناً.. سأبدأ من هذه النقطة...

كانت دول العالم الثاني تغوص في ويلات الحروب الأهلية، إذ كان سكانها طوائف وفرقاً متعددة، فكانت كل فرقة تتهم الأخرى

بالضلال، وتقوم بإبادتها مدعية أنها تملك حقاً مشروعاً في ذلك. أدت هذه الأوضاع المضطربة لانفلات الأمن، وحدوث مجازر كثيرة وضعف الأجهزة الأمنية في تلك البلاد، أخيراً إلى ضعف تلك الدول وإنهاكها.

نظرت إليَّ وقالت: راد هذا مشابه لهنا أيضاً.

أومأت بالإيجاب مشيراً لها بالمتابعة، فأكملت قائلة: وكانت دول العالم الكبرى تقوم بتمويل بعض تلك الحكومات، وتمدها بالسلاح لجعلها في النهاية تقع في شرك ديونها، فتسقط تحت سيطرتها وتخضع لقوانينها وحمايتها أخيراً ثم أعيد نسخ نظامين متناقضين لتمثلهما دول في نفس القوة، لخلق نوع من الكراهية بينهما. وراح ضحيتها الملايين من الشعوب...

أسندت ذقني على يدي اليسرى وقلت: أيمكن أن يشير هذا إلى الرأسمالية والشيوعية كما حدث في العالميتين؟؟ أم أنه يشير لأنظمة أخرى؟؟

عادت مارغريت تنظر للكتاب ثم تابعت: وكانت حكومة العالم الخفية تعبث بالمصارف المالية، فتقوم بسحب السيولة وتحدد القروض الممنوحة وتضغط على بعض الدول الكبرى لإعطائها حق صرف العملات.

فتمكنت بذلك من خلق فوضى ويأس وفقر لإيجاد مناخ ملائم لقيام الثورة العالمية الكبرى..

بنظرة مُلئت شغفاً قالت: راد.. ما المقصود هاهنا بالحكومة الخفية والثورة العالمية.. هل تعلم بشأن هذا؟؟

حككت ذقني مفكراً حينها وقلت: لا أعلم بالتحديد، ولكن ربما تكون أبسط طريقة لتبسيطها لك.. بأنها متمثلة فيما تشاهدينه اليوم في الكنييس الذي يقع بجوارنا...ببساطة في اللادينيه.

صمتت للحظة، ثم قالت معلقة: الحقيقة لم أفهم بعد ما الرابط بينهما؟؟!

وكعادتي أردت استفزازها فربتُّ على رأسها قائلاً: لا بأس، هذا الموضوع أكبر من أن تستوعبه أدمغة الأطفال.. أكملي رجاء.

ضربت على الطاولة بكفيها بغضب وقامت مغادرة قائلة: أنتَ تستمتع بمضايقتي.

تشبثتُ بها مجدداً وقلت متملقاً: مارغريت مهلاً.. لا أعلم حقاً لمَ أزعجك هكذا؟! آسف، أعد بأنني لن أكررها.

رفعت احدى حاجبيها وهي تقول: وعـــــــد؟

مددت كفي ناحيتها بعد أن ضممت كل أصابعي عدا الخنصر قائلاً: وعد.

دفعت بكفي قائلة: أنت الطفل الكبير هنا.

ثم جلست معتدلة، وعادت تنظر للكتاب وقالت: حسناً...ماذا تريد أيضاً؟

- ما الذي حدث بعد ذلك؟ ماذا كانت نتيجة تلك الثورة العالمية؟

قلبت الصفحة الأخرى وأخذت تنظر إليها ثم قالت: سقطت كل دول العالم ذاك.

بدت على عيني الدهشة وأنا أقول متسائلاً: كيف لكل تلك الدول أن تنتهي مرة واحدة؟؟

- هذا ما سأقرأه الآن. ليس دفعة واحدة، ولكن بعد أن استخدمت تلك الدول الكبرى أسلحة كيميائية فتاكة على دول العالم الثاني، دخلت فيما بينها في صراع على السلطة وضم المزيد من الثروات لديهم ثم حدث أن أسقطت نيازك عليهم من السماء كانت قادرة على نسف مدينة بأكملها تحوي خمسة ملايين شخص. اجتاحت تلك البلاد بعد ذلك الفوضى وموجة موجعة من الجوع والفقر، فكان الناجون من الدول المستهدفة يموتون جوعاً في الغالب، وأما الدول المعتدية فلم تلبث أن غرقت بالديون، ثم اجتاحتها موجة من الفقر والجوع ومنذ ذلك التاريخ وحتى بعد ألف عام لم تقُم دولة بقوة تلك الدول في تلك الحقبة ومع تلك الأسلحة التي استخدمت للدمار الشامل، لم يعد هنالك أية بقية للعلوم التي نجح بها هؤلاء وبدأت تندثر شيئاً فشيئاً لنقص الأموال، كما ظهرت بعد ذلك حركات وأنظمة في الممالك التي أقيمت بعد ذلك في أوروبا كانت تضطهد كل من يحاول أن ينشر العلم، أو يحاول تطوير العلوم وتصفه بأنه مصاب بلعنة.
- أليس هذا تماماً كما حدث في القرون الوسطى. أكملي رجاء. ماذا عن دول آسيا إذن؟

- كانت الممالك التي أقيمت بعد ذلك في القارة الآسيوية، لم تصمد هي الأخرى.

وكانت تدمر الواحدة منها الأخرى، في أحد العصور ازدهرت بلاد تدعى الرافدين، وكانت تحث على التعليم وتشجع طلاب العلم، ولكنها لم تصمد هي الأخرى.

أخفيت عيني بأصابع يدي اليسرى وضغطت عليها قائلاً: يا لها من نهاية مرعبة حقاً، أن ينتهي البشر من حيث ما بدأوا. أكاد لا أصدق هذا حقاً.

- هل تريد مني الإكمال؟؟

هززت رأسي نافياً: كلا، لقد اكتفيت، لا أريد أن أسمع المزيد، هذه كانت نتيجة حتمية بالفعل لأطماعهم. كان أي شخص يمكنه التنبؤ بذلك حقاً، ولكني لم أعتقد أن تؤول الأمور لهذا الحد وتصبح بهذه الشناعة. شيء غريب بالفعل، أكره ذلك حقاً.

أغلقت الكتاب وهي تعلق: ولكني سمعت من السيدة جين ذات مرة أن حضارة جداً متطورة لا تزال قائمة في أورشليم وأن من يزورها يظن أنه في زمن غير زماننا.

تساءلت بتعجب: أورشليم*؟!!

---

*: أورشليم : هي القدس باللغة العبرية .

أجابت: نعم المدينة التي صُلب بها المسيح وبعث*.

ابتسمت قائلاً: تعني بيت المقدس إذن، سأصدق هذا.

وقفتُ معتدلاً والتفتُ ناحية السيد هينتون قائلاً: أشكرك سيد هينتون لاستضافتي هنا، لقد قدمت لي خدمة لن أنساها.

ثم هممت بالخروج، أمسكت بكف مارغريت وسحبتها معي، لكنها سرّحت كفها من بين أصابعي وبدت وجنتاها محمرتين، وقالت باستياء بالغ: أنت فظ للغاية! ما الذي تظنه بسحبك لي بتلك الطريقة، وضربك رأسي سابقاً على الطاولة؟

أجبتها بسأم: لديك قدرة عجيبة لتحويل كل شيء لمشكلة. بالطبع أردت أن نخرج فقط.

- أخبرني بذلك وسأفعل. ما كان عليك أن تسحبني كما الأطفال هكذا.

---

*٢:صلب المسيح وبعثه : كما في عقيدتهم بأنه قد صلب عليه السلام ثم بعث من بعد الموت ولكن القرآن الكريم يبطل ذلك بقولة تعالى : {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا(١٥٧)بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا(١٥٨)} (سورة النساء:١٥٧-١٥٨).

اقترب هينتون منا بكل هدوء، ثم دفعنا من كتفينا بخفة وأغلق الباب خلفنا.

التفتُّ ناحية مارغريت لائماً: هل رأيت لقد سخر منا مجدداً بسببك.

- المهم أن تضع اللوم عليَّ فقط. أنت فعلاً طفل كبير لا تجيد سوى إلقاء اللوم على الآخرين!!
- على العموم أود أن اتجه لسوق المدينة لشراء ملابس لي، هلا رافقتني؟

سبقتني ببضع خطوات مجيبة: أُفضل أن أسير مع أحد الجنود مقيدة، على أن أرافق شخصاً مثلك.

اقتربت منها وسرت بجانبها، فرفعت حاجبيها مستنكرة وقالت: ولمَ تتبعني الآن؟

ببرود أجبتها: لا أتبعك، أنا أسير في طريقي فقط.. لماذا في كل مرة تصرين على أن أتبعك.

أشاحت بوجهها عني واتجهت نحو أحد الأزقة بينما وقفت أراقبها بعد أن انفجرت ضاحكاً.

حقاً لمَ أنا أستمتع بإزعاجها واستفزازها هكذا؟؟ لقد كنت أفعل ذلك كثيراً مع زين، لديهما ذات ردة الفعل المضحكة والملامح البريئة لكن أنا نادراً ما أثق بأحدهم هكذا وأنخرط معه بكل تلك الشفافية، حقاً لمَ أنا أعمد لمضايقتها؟!

في النهاية، ولأن شمس الظهيرة كانت في أوج حرارتها، قررت أن أعود وأترك شراء الملابس ليوم آخر.

وفي الطريق وأثناء عودتي، شعرتُ بشيء يهتز داخل جيبي الأيمن.

أخرجت الساعة الزمنية وأخذت أتفحصها، لكنها توقفت عن الاهتزاز.

وبينما كنت أقلِّب فيها، وإذ فجأة ينبعث منها وميض طفيف للغاية، تلاه وميض أشد قوة جعلني أغمض عيناي من شدته ولكن حينما فتحت عينيّ، كانت الأضواء قد انطفأت ولم تعد الساعة تومض! ولازلت واقفاً بذات المكان.

الفصل الثاني عشر: الهـــــــــــدير

يغيب عنا الفرح ويحيد عنا الفرج ومع هذا نظل نؤمن دوماً، بأن ما نعيشه في ظلمة اليأس، يمحوه بياض الأمل.

في اليوم التالي نزلتُ للمدينة، واتجهت مباشرة للسوق، وما إن وصلت إلى هناك، حتى اتجهت عند أحد باعة الملابس، لم يرق لي أي منهم، ولكن لا خيار آخر لدي، فلا بد لي من أن أرتدي من ثياب هذا العصر.

وبينما أنا منهمك في الاختيار، ارتطم بي صبي صغير فجأة، وسقط على الأرض انحنيت نحوه وأسندته قائلاً: آسف، هل أنت بخير أيها الصغير؟

أبعد كفي بفظاظة، ثم قام يجري مسرعاً، مختفياً من أمامي!

استنكرت فعلته تلك، وما إن التفتُ ناحية البائع وأشرت لأحد الثياب، وهممت بإخراج النقود حتى أدركتُ بأني تعرضت لعملية سطو من ذلك الصغير.

بسرعة أطلقت ساقيّ للريح واتجهتُ بحثاً عن ذلك الصبي السارق، وما إن بدا واضحاً لمرأى بصري حتى رأيته يرتطم بأحدهم ويسقط على الأرض بقوة.

أسرعتُ إليه وما إن أصبحت ماثلاً أمامه حتى قامت مارغريت تنفض التراب من على ثوبها، وبانزعاج قالت: هذا أنت راد؟!! لماذا لا تظهر إلا لجلب المصائب؟!

التفتُّ إليها قائلاً: هذا ما أردت قوله تماماً لك. المسكين ظننته ارتطم بصخرة.

رفعت حاجبيها مستنكرة وهي تقول: صخرة...أية صخرة؟!

ثم صرخت قائلة بعد أن استوعبت ما قلته أخيراً: مهلاً هل تقصدني أنا؟

أبعدتها قائلاً: سأرى موضوعك بعد أن أنتهي من هذا الصغير.

مددت يدي نحوه قائلاً: أيها الصغير، كن عاقلاً وأعد لي نقودي. أعرف تماماً أنك سرقتها.

وقف الصبي وبدا محرجاً، وعيناه تنظران للأسفل؛ لكنه سرعان ما باغتني بدفعة للأمام بكل قوة، فتعثرت، ثم عبر من أمامي هارباً من جديد. وقفت سريعاً وسحبت مارغريت من كم ثوبها ودفعتها للانطلاق خلفه معي.

عبثاً حاولت أن تخلص نفسها من قبضتي وهي تصرخ باستياء قائلة: دعني أنت، ما الذي تفعله؟ لماذا تجعلني أركض معك أنا أيضاً، لقد سرق مالك أنت، ما شأني أنا؟!

- قلتُ لك بأنني سأرى موضوعك بعد أن أقبض عليه.
- عن أي موضوع تتحدث أشعر بأني حمقاء وأنا أركض ورائك هكذا. ثم إن الجميع ينظر صوبنا بريبة وأنت تسحبني من كُم ثوبي هكذا!!
- جبينك منتفخاً من اليمين. لقد خاب ظني بك. ظننتك أصلب من هذا.

توقفت فجأة تتلمس جبينها...

- جبيني..ما الذي حدث؟ لمَ هو منتفخ هكذا حقاً!!

سحبتها مجدداً وأسرعتُ قائلاً: قلتُ لك سنرى ذلك بعد أن أقبض عليه.

- حسناً، سيتمزق ثوبي هكذا، دعه لن أقاومك، سأركض معك.

توقفنا عند أحد الرواق، إذ غلب على ظني بأنه قد عبر من خلاله.

- أتعتقدين أنه قد دخل هنا؟؟ ربما يسكن هنا.

أجابتني وهي تلهث من أثر الركض: كلا ليس من هنا.

- ماذا هل رأيته؟؟

عدلت رأسها ونظرت إليَّ وقالت بضجر: أنت مزعج بالفعل. ما الذي جعلني أقابلك؟! على الأرجح لقد عاد لمنزله. أنا أعرف ذلك الصبي.

- تعرفينه ولماذا لم تقولي ذلك من قبل؟!
- وهل منحتي فرصة لأقول ؟!!
- كان عليك أن تقولي ذلك بدلاً من الاهتمام بشأن ثوبك البالي.
- ثوبي كان جيداً وأصبح بالياً الآن بسببك.
- تضعين اللوم عليَّ الآن، حتى تجعليني أشتري لكِ ثوباً آخر.

أشاحت بوجهها للجهة الأخرى وهي تقول: حسناً أنا مغادرة الآن، وأبحث عمن يرشدك إلى منزل ذلك الصغير.

- سيدة مارغريت.

قلتها متملقاً كعادتي، عادت لتلتفت ناحيتي بابتسامة ماكرة وهي تقول: حسناً، عليك أن تكون مؤدباً دوماً هكذا.

قلتُ بتذمر: تباً، لمَ ينتهي بي المطاف بالخضوع لك دوماً!!

عبرت من جانبي تختال قائلة: هذه نتيجة حتمية لمن يحاول استفزازي. اتبعني، فبيته ليس بعيداً من هنا.

سرنا معاً، وما إن أصبحنا عند الباب حتى وقفت مارغريت فجأة، وبدا عليها التردد والارتباك، ثم قالت بلهجة جادة: اسمع راد. ذلك الطفل هو مملوك.

ثم نظرت إليَّ وتابعت: وأخشى إن علم سيده أن يقوم بضربه أو تعذيبه.

- أتفهم قلقك هذا. بالطبع أنا لن أوافق على هذا، كما أنني لن أوافق على سرقته.

فجأة سمعنا صوت وقوع شيء على الأرض خلفنا، فاستدرنا سريعاً، كان الطفل جاثياً على ركبتيه، غارقاً في بكائه وهو يقول: آسف لأنني قمتُ بخداعك وسرقت مالك ولكني مضطر لذلك.. أمـــــــي.. ستموت إن لم أحضر لها العلاج وسيدي لم يكترث لمرضها؛ بل أراد التخلص منها بحجة أن لا نفع منها الآن، أنا لم أستطِع فعل شيء ولم أستطِع الوقوف مكتوف اليدين، دون أن أقوم بأي شيء.. أي شيء.

لم أستطِع نطق شيء حينها، لكن مارغريت انحنت ناحيته ومسحت دموعه بلطف قائلة: يا صغير.. أرفع رأسك رجاء..

أنا سأعاين أمك، قد لا أكون طبيبة ماهرة، ولكن لدي الكثير من الخبرة التي اكتسبتها من عملي ولن آخذ منك شيئاً.. دعني أرى أمك فقط.

- حقاً، هل ستعالجينها؟؟

ضم يديها ودموعه تنهمر عليها وبصوت ممتلئ بالبكاء قال: أنا شاكر لكما.

ثم وقف وأخرج النقود وناولني إياها معتذراً: هذا مالك سيدي، آسف بشأن ما حدث.

أعدته إليه رافضاً وقلت: لا بأس معي الآن. احتفظ به وعده هبة مني. لم أعد بحاجة إليه، بإمكانك أن تشتري به لوالدتك الدواء.

دخلت مارغريت إلى حيث والدته لتعاينها بينما وقفت بالخارج أنتظرها. في تلك الأثناء سمعت صوت أبواق كثيرة كتلك التي سمعتها سابقاً.

اتجهت لنهاية الرواق حيث الشارع الرئيسي، وإذ بي أرى مسيرة من الجنود تتقدمهم مجموعة الخيالة، وكانت تلك المجموعة تلف شرائط حمراء على نحورهم، كان في مقدمة المسيرة، فارس بحصان رمادي وعلى غرارهم كان يرتدي وشاحاً أحمر يغطي كل صدره. ممسك بيديه صليباً أحمراً

معكوفاً، كانت بشرته قمحية، وذا شعر بندقي، لكن عينيه اللتين كانتا شديدتَي الاتساع، كان ثمة شيء فيهما يبرز بقوة يجتاح اتساعهما ويمتد، ثمة رفض ربما، أو إنكار!!

أما المؤخرة فكانت من المشاة الذين يعزفون على البوق، وبينما أنا واقف أراقبهم مندهشاً.

- هل أنت مندهش لهذا الحد؟؟

التفتُ ناحيتها، كانت مارغريت قد عادت، فسألتها بلهفة: كيف حال المرأة؟؟

خفضت رأسها بأسى قائلة: إنها لن تحتمل المزيد. يبدو أنها ستموت قريباً. ذاك الطفل المسكين، عليه أن يتحمل المزيد من الأعمال الشاقة الآن.

خفضتُ رأسي بأسى صامتاً للحظات وما زالت تلك الجموع تعبر من أمامنا وأصوات أبواقهم تعلو وتعلو ثم التفتُ لمارغريت متسائلاً:

- هل هذا نوع من الطقوس؟؟

أومأت برأسها موافقة، ثم قالت: نعم، هو نوع من الطقوس تمارسه الفرقة الخامسة حينما يصدر الحكم بإعدام أحدهم.

عضدت على شفتي قائلاً: تباً، لا تخبريني بأنهم سيحرقون أحدهم كما فعلوا المرة السابقة.. من سيكون هذه المرة؟؟

ابتسمت بسخرية وهي تقول: على الأرجح الحاكم السابق، إنهم يستفزون "ببين".

ثم استدارت مغادرة نحو الرواق وتابعت: ربما بعد يومين من الآن.

ولوحت بيدها مودعة، وما إن خفضت يدها حتى انزاح شيء من طرف فستانها العلوي كاشفاً عن جزء من كتفها، وبرزت من خلالها كدمة في غاية الوضوح.

أسرعت ناحيتها وجذبتها من ذراعها، مما جعلها تلتفت ناحيتي بذعر قائلة: أنت!! لقد أخفتني.

أشرتُ بعيني ناحية الكدمة فحجبتها سريعاً باستحياء، وقالت: هذا لأنك شددتني دون حرص. لقد أفسدت ثوبي.

ثم دفعت بيدي لتغادر، جذبتها من كفها هذه المرة ضاغطاً عليه، ناظراً في عينيها مباشرة، وقلت: أهو من فعل ذلك الطبيب؟؟ أكان ثملاً هذه المرة أيضاً؟

أشاحت بوجهها عني وبدأت عيناها تهربان، ثم عادت لتنظر إلي بنظرة منكسرة قائلة بصوت يهتز: وأنت من تظن نفسك لتمسك بيدي هكذا؟ أو لتسأل عني!! أنت لا تجلب سوى المتاعب معك، وتتدخل فيما لا يعنيك.

ثم سحبت يدها بقوة وأدارت بوجهها عني، وما إن تقدمت بضع خطوات حتى توقفت، كنتُ قادراً على سماع صوت بكائها

المخفي وتخيل منظرها وهي تغالب دموعها قائلة: لقد كنت خائفة البارحة كثيراً، وأشعر الآن بخوف أكبر.

ثم ضمت ذراعيها اللتين كانتا ترتجفان بشكل واضح، وتابعت: ما كان علي عصيانه، فأنا أمته بعد كل شيء، ولا يحق لي أن أعترض لكنني كنتُ خائفة حقاً وهربت. على الأرجح هو يبحث عني الآن لمعاقبتي.

- جيـــــــد مارغريت. تعرفين جيداً عقوبة العصيان.

بوجل التفتنا معاً ناحية الصوت، كان يقف ذلك الشيطان نهاية الرواق.

وبدأت أقدامه تقترب من مارغريت وهو يقول: وأرى أنك لا زلت تتسكعين مع هذا الشاب!! ماذا.. هل طلبتَ منه بأن يساعدك؟ أم نويت الهرب معه؟

ثم جذبها ناحيته من شعرها بقوة، لم أستطِع أن أبقى هادئاً أبداً وأشاهد بصمت ورغم إيقاني بأني ما إن أشهر سيفي فإن الأمر سيختلف تماماً عن تدريباتي مع ليو، إلا أنني آمنت منذ تلك اللحظة بأنه من الجبن أن أظل واقفاً أيضاً، وأن بعض الأشياء لا تؤخذ إلا بالقوة. تقدمت بخطواتي ناحيتهما وأنا أشهر سيفي من غمده متأهباً وقلت: أيها الطبيب، أنت محق من ناحية واحدة فقط، فهي ستهرب معي الآن لكنها لم تطلب مساعدتي أبداً، من المؤسف بأني أحمق كبير وأتدخل فيما لا يعنيني وأجلب

المتاعب. مما يعني أني لن أسمح لك بفعل أكثر من شد شعرها قبل أن تأخذ رأسي، أو أسقطك جريحاً.

شخصت عينا مارغريت بينما بدا الغضب ينفجر من عينيه، فقذفها بقوة فارتطمت بجدار الرواق، ثم أخرج خنجره من غمده قائلاً: رائع، أشعر بأن دمائي تغلي، أحب مبارزة الشباب الطائشين أمثالك، فهم لا يضعون حساباً لحياتهم. ليكن ذلك، ولكن لا تبكِ على شبابكَ في الجحيم.

ثم اندفع بكل قوته مسدداً نحوي ضربة قوية، بداية تلافيتها لكنه حقاً كان كما الشيطان لا يمكنك التنبؤ مطلقاً بحركاته، كان كل ما أقوم به حينئذ هو صده فقط دون أن أستطع توجيه ضربة واحدة له، وأثناء ذلك تمكن من جرحي بساقي وبيدي، ونزفت الدماء منهما ملطخة سيفي، رغم انها إصابات خفيفة.

واستمر ينهال علي بهجماته، وكنتُ أصده كل مرة؛ لكن حركتي غدت أبطأ من قبل بسبب إصابتي، مما دفع مارغريت التي كانت تراقب بذعر أن تقف على ساقيها المرتجفتين وتصرخ بأعلى صوتها: توقفـــــــــــــــا.

التفتُ ناحيتها، تاركاً كتفي مكشوفة أمامه دون أي دفاع.

فاندفع ذاك الشيطان مستغلاً ذلك وسدد ضربة على كتفي سريعاً؛ لكن مارغريت كانت قد تنبهت واندفعت بأسرع ما يمكنها، جاعلة من كتفها درعاً لي، وليستقر خنجره بكتفها، سحبه بقوة وبدت يده ترتجف وهو ينظر إليها وهي تسقط

بجانب قدميّ ودماؤها قد انفجرت في كل اتجاه ملطخة بذلك حتى وجهي، انحنيت صوبها سريعاً ورفعتها صارخاً بلوم: حمقاء. ما الذي جعلك تقفين أمامي هكذا؟؟

قالت بصوت يعتصر من الوجع: احذر.

ما إن قالت ذلك حتى رفعت رأسي، وإذ بي أجد خنجره وهو مسلط على رأسي، ابتلعت ريقي بهلع ولكن فجأة قُذف به بعيداً وطارت الدماء في كل اتجاه، ظننتها بداية دمائي.

ولكن ما إن استوعبت ما حدث، حتى كان الطبيب ممسكاً بيده المصابة الغارقة بالدماء ورجل واقف بيني وبينه، كان يرتدي وشاحاً أسوداً يغطي كتفيه وفمه، صرخ في وجهي قائلاً:

- راد، ما الذي فعلته؟؟ لقد جعلت من نفسك هدفاً سهلاً له، أهكذا علمتك؟؟
- ليونهارد، أنت هنا؟!

أحسست براحة عجيبة تملكت قلبي، أشار إلي بعينيه لإغماد سيفي وقال: خذ هذه الفتاة لمكان آمن الآن لإيقاف نزفها. إن لم تفعل سريعاً مع جسدها الضعيف هذا ستموت وانتبه لإصابتك، سألحق بك بعد أن أنتهي من هذا.

- وكأني سأسمح بذلك!

صرخ بها الطبيب وهو يشتعل غيظاً، ثم اندفع ناحيتي، محاولاً إعاقتي لكن ليو صده مجدداً قائلاً: عليك أن تتجاوزني أولاً.

حملتُ مارغريت بيديّ رغم أنها لم تكن قد فقدت وعيها تماماً وألقيت بنظرة أخيرة عليهما قبل أن أغادر، تمكن الطبيب من التقاط خنجره آنذاك، سابقت خطواتي بعدها، ولأن دماءها كانت تنزف بشدة، قررت أن أتوقف جانب العين قبل أن أصل للكوخ.

مددتها بجانب الماء ورحت أغسل لها الجرح، مزقت قميصي لأوقف النزف.

وما إن اطمأننت لتوقف النزف، حملتها وعدت للكوخ، كانت كالعصفور الصغير المقصوص جناحه بين يدي لا تبدي أي حراك.

وهناك تمكنت من وضع الدواء على الجرح ولفه بضمادات نظيفة ثم غطيتها بمعطفي الرسمي الذي كنت ألبسه ذلك اليوم بالمتحف لتدفئتها، ولكنها ظلت فاقدة للوعي حتى عاد ليونهارد ليلاً، وكانت علامات الإرهاق بادية على وجهه، استند على خشبة المنضدة، أسرعت وناولته الماء فقال معاتباً:

ما الذي فعلته اليوم؟؟ لقد جعلت من نفسك هدفاً سهلاً، لو لم أكن هنالك لكنت ميتاً بلا شك.

- لم أستطِع تركها تنزف دون أن أتحرك.

لأول مرة يصرخ ليو في وجهي معاتباً: ما كان عليك أن تتردد للحظة واحدة إذن، كان عليك أن تؤمِّن نفسك أولاً لتستطيع حمايتها، أن تتردد وسط نزال يعني بأنك ستخسر.

خفضتُ رأسي بأسف وقلت: أعتذر، لقد أخطأت بالفعل.

أشاح بوجهه، هدأ قليلاً ثم قال: لا زال ينقصك الكثير، ستعاقب على ذلك بشدة. على العموم..

ألقى بنظرة سريعة ناحيتها ثم سأل: من تكون؟

- ألم تعرفها؟! إنها مارغريت.
- أمة ذلك الطبيب إذن. لقد كبرت حقاً. كانت طفلة آخر مرة رأيتها فيها.
- لازالت طفلة.

دقق النظر بعيني وقال: أتعرف مدى خطورة ما اخترته لها؟!!

صمتُ للحظات ثم قلت: لا أعلم بالتحديد إلى أي مدى أخطأت. ولا أعلم إلى أي مدى ستكون خطورة بقائها هنا. لكن ما أنا موقن به، أني مهما كنت ضعيفاً أو قوياً، لن أدع أمامي طفلة تهان هكذا وأقف صامتاً، سأشعر بالمهانة أكثر وبالاحتقار لنفسي، إن تركت شيئاً كهذا يحدث أمامي.

قام متكئاً على خشبة المنضدة، وقد علت شفتيه بسمة مشرقة وهو يقول: أظنها قد وثقت بك، وربما ستكون سعيدة باختيارك لها ولكن لمَ أنت مهتم بها هكذا؟؟

ببرود مصطنع أجبته: ومَن يهتم بأمرها؟؟ لقد وصفتني بالسيئ وبشخص لا يجلب سوى المتاعب ويتدخل فيما لا يعنيه، كل ما

في الأمر أني لم أستطِع تركه يفعل بها ما يحلو له، كما أخبرتك.

أطلق ضحكات عالية وقال معلقاً: راد، أنت أحمق بالفعل، ثلث سكان هذه المدينة مثلها، فهل تستطيع فعل شيء حيالهم؟!

ثم اتجه ناحيتها ووضع يده على جبينها متفحصاً، ثم قال معلقاً: هذا جيد. حرارتها ليست عالية. أعتقد أنك قد أحسنت إسعافها.

علقت متباهياً: لا بأس، عليك أن تعتمد عليَّ فقط.

اقترب مني وأمسك بمعصمي وضغط عليه بقوة، فصرخت متوجعاً: ليو، هذا مؤلم.

علق بتهكم: أعتمد عليك وأنت حتى لم تضمد جرحك؟! أنت بائساً حقاً. أنت أسوأ تلامذتي على الإطلاق.

ضحكتُ بصوت عالٍ وقلت: دائماً ما يقال هذا عني..

عاد ليتكئ على المنضدة، فسألته: ماذا عن الطبيب ليو؟؟ هل قتلته؟؟

هز رأسه نافياً، ثم نظر مبتسماً بسخرية وقال: راد، أعتقد أني بشكل أو بآخر أصبحت أحمقاً مثلك ولكني مع هذا أصبته إصابة بليغة من الصعب أن يعود ليمارس معها مهنته.

شعرت بارتياح وأطلقت زفرة كانت قد أثقلتني، وقلت: الحمد لله. أنا حقاً سعيد لسماع ذلك.

ضحك ليو بصوت عالٍ وهو يقول: أحقاً سعيد وهو كان سيقتلك؟! أنت غريباً حقاً.

أجبته: لقد كرهته لتعامله القاسي مع مارغريت ومع هذا.. أنا لا أجد أي سبب يجعل الإنسان يقتل إنساناً آخر، هذا ما أؤمن به.

وقف معتدلاً متجهاً ناحية الباب، ثم قال: لذلك قلت بأنك أحمق.

توقف قليلاً ثم علت شفتيه بسمة شاحبة، وقال: لو أن الجميع لديهم ذات الإيمان، ألا تظن أن المستقبل سيكون أفضل مما عليه يا ترى؟؟!! أنا ذاهب لاستنشاق بعض الهواء.

ثم أشاح بوجهه عني، وكأنه أرد أن يخفي شيئاً، أكانت تلك التي رأيتها تلتمع للتو هي دموعاً، هل كان ليو يبكي ؟؟!

سمعتُ حينها صوت شيء يتحرك خلفي، كانت مارغريت قد استعادت وعيها محاولة النهوض، أسرعت ناحيتها وأسندتها، بدت مرتبكة وهي تنظر حولها، ثم قالت متسائلة: ماذا أفعل أنا هنا؟؟ ما الذي حدث؟؟!!

نظرت لكتفها المضمدة وبدت محرجة، غطيتها بمعطفي، وقلت لها بلهجة استفزازية كعادتي: أنا مدين لك بثوب جديد، لقد مزقته لأضمد جرحك، فجعلته أسوأ.. آسف حقاً بشأنه.

حاولت الوقوف عبثاً، ولكني سرعان ما أعدتها لفراشها، وثبتُ سبابتي على جبينها، وقلت: لقد قمت باختطافك ولا يحق للمخطوف

أن يبدي أية مقاومة، كوني طفلة عاقلة، والتزمي الهدوء حتى أحضر لكِ طعاماً تأكلينه الآن.

- مهلاً.. لمَ أنا هنا؟

كررت: لا يحق للمخطوف أن يبدي أية معارضة.

وما إن وقفت عند الباب حتى أتممت مازحاً: أيتها الطفلة، لا زال جبينك منتفخاً.

الفصل الثالث عشر: الحِـــــــلف.

لقد تعلمت باكراً بأن الحق لا يُعطى لمن يسكت عنه، وأن على المرء أن يُحدث بعض الضجيج؛ ليحصل على ما يريد.

مالكوم إكس.

في صباح اليوم التالي، كان ليو يحضر الفطور- كعادته- وأكواب الشاي، بينما اقتربت أنا من النار؛ لأضع المزيد من الحطب، فقال متسائلاً: ماذا قررت بشأنها راد؟ أعني تلك الفتاة.

أجبته بانزعاج: لمَ تعاملني وكأنني أخطأت ليو؟ بدأت أشعر بثقل في صدري حقاً.

- وهل تظن عكس ذلك؟!!

- وماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني؟ لا أظنك ستقف عاجزاً أبداً.

لم يجب ليو، وندت منه بسمة ساخرة، بيد أن عينيه بدت وكأنهما تختزلان حكاية أخرى، وكأنهما تسبحان داخل بحر عميق من التناقضات، تدفعه ذكريات موجعة يحيل معها التجديف. ثبت تلك النظرة في عينيه، ثم أجاب بعد طول صمتٍ: كنتُ سأهرب، أنتَ لا تعرفني راد، لقد هربت وهربت، لقد هربت كثيراً.

ورغم أني شعرت بمدى مرارة كلماته الأخيرة تلك إلا أني آثرت الصمت ولم أعلق، ثم قلت: على العموم سأبقيها هنا مؤقتاً، لأجد لها مكاناً مناسباً. المهم هي لم تعد أمة ذلك الطبيب، وأنا لن أعترف بذلك أبداً.

- هل تعني أنك ستتزوجها؛ لتنهي رقها إذن؟

فوجئت بسؤاله هذا ولم يخطر ببالي مطلقاً، لدرجة جعلتني أهم بوضع يدي التي أحمل بها الحطب في النار، ولم أشعر إلا ولسعات النار تحرقني، فقذفت بالحطب ، وأبعدتُ يديّ صارخاً بتوجع بينما انفجر ليو ضحكاً علي، فقلتُ معاتباً وأنا أنفخ عليها:

- لمَ أنت تضحك هكذا بدل أن تطمئن على يدي؟؟!

- ولمَ ارتبكت أنت لهذا الحد؟

- لأنه لم يكن هذا سؤالاً لتسأله، ومن يرغب بالزواج من طفلة؟!

- لا أعلم عن أية طفلة تتحدث أنت!! ربما تبلغ "مارغريت" السادسة عشرة أو الثامنة عشرة قد لا يبدو هذا عليها بسبب جسدها النحيل وملامح وجهها الصغير، ولكني واثق من ذلك، لقد رأيتها أول مرة وهي في السادسة من عمرها.

صمتٌّ للحظات أحاول استيعاب ما قاله ليو للتو، وذكرى ذلك اليوم في المكتبة حينما ضربت برأسها على الطاولة، وحينما جذبتها من كمها راكضاً، هززت رأسي نافياً الفكرة، وقلت معلقاً: ليو بالحديث عن عمرك أنت، لاشك بأن ذاكرتك أصبحت سيئة، وقد أخطأت بالفعل.

- ما الذي تقوله الآن؟ هل تريد القول بأني أصبحتُ كهلاً؟؟ لا أزال في الثلاثين، أنت لا تريد أن تصدق هذا وحسب.

- سمعت عن أناس يصابون بـ(الزهايمر) مبكراً.

تلقيت حينها لكمة على جبيني موجعة، تحسست جبيني معلقاً: أنت لن ترتاح حتى تحدث في جبهتي عاهة مستديمة.

صمت ليو قليلاً، ثم قال: هل ستدفع ثمنها- إذن- للطبيب أيها الطائش؟

- بالطبع لا، وهل أملك مالاً أصلاً!!

باستياء أجاب: هل تظنُ بأن الأمور تؤخذ بمثل هذه الفوضى !! هل كنتم تدبرون أموركم في الماضي بهذه الفوضى؟! أنت حقاً عجيب!! لن تتزوجها، ولم تشترها أيضاً! يعني أنت- حقاً- اختطفتها.

أجبته: أنا لن أعترف بِرقها من الأساس.

بتهكم أجابني: ومن ينتظر اعترافك؟! قل ذلك حينما تقف على منصة الإعدام.

ثم بجدية أردف قائلاً: إذن، هل تريد مني ابقائها وتدريبها؟

بتهكم أجبته: لتصنع منها وحشاً هي الأخرى! ستكون وحشاً بلسان سليط، ستكون الأسوأ.

وكعادته ليو في الرد، باغتني بضربة على جبيني أفقدني معها توازني هذه المرة فوقعت على الأرض، وما إن رفعت رأسي حتى وجدت "مارغريت" فوقي، رافعة إحدى حجابيها للأعلى ترمقني باستياء، وهي تسأل: من هي الأسوأ؟؟!

أجبتها: هل قلتُ أنا ذلك؟! أكيد بأني لم أقصدك.

ابتسمت بمكر، ولم أنتبه بأنها كانت تحمل في يدها حفنة تراب إلا بعد أن رشقتني بها، انفجرا الاثنين ضحكاً ساخرين من منظري المعفر بالتراب هذا، حتى ليو الذي لم أشاهده يوماً يضحك بكل هذا السعادة، ضحك بملء فيه، تمنيت لتلك اللحظات لو تطول أكثر، تمنيت لتك السعادة أن لا تختفي أبداً، بل تمنيت أن يتوقف كل شيء يحدث صوتاً حولي؛ لأستمع إلى ضحكاتهما الطفولية فقط.

ما إن غربت الشمس، حتى أصابني الإنهاك من تدريبات اليوم، ألقيت بظهري متوسداً العشب، ألتقط أنفاسي بصعوبة، وقلت: ليو.. لقد أرهقتني اليوم.

كان هو الآخر يلتقط أنفاسه بإنهاك، وبنفس متقطع أجابني: أنت تستحق ذلك، هذا عقاب لك لما فعلته البارحة.

- أنت قاسٍ حقاً ، أشعر بأن كل خلية من جسدي تؤلمني؛ لدرجة تجعلني أعتقد بأني لا أستطيع أن أنام بالكوخ، مفضلاً النوم بمكاني هذا.

- على كل حال أنت لن تنام داخله وتلك الفتاة تنام هناك، الغرفة لا تتسع سوى لشخصين.

اعترضتُ قائلاً: هل تريد مني أن أنام بالعراء؟!ثم أنها ليست فتاة؛ بل طفلة على كل حال.

قمتُ معتدلاً فجأة بعد أن تذكرتُ الساعة الزمنية، فأخرجتها من جيبي متفحصاً.

- مـــــــــــاذا؟؟ لمَ انتفضت هكذا فجأة، هل عرفت كيف تعمل؟؟

- كلا، لكن ذلك اليوم اهتزت الساعة، وأطلقت وميضاً فجأة! نسيتُ إخبارك عن هذا.

وقف معتدلاً متجهاً نحو الكوخ وهو يقول: ربما ستعمل في أي وقت إذن.

ثم دخل الكوخ، وما هي إلا دقائق حتى عاد، وألقى بلحاف على وجهي قائلاً: هذا يكفي لإبقائك دافئاً.

تناولته، وتغطيت به وأنا أنظر للنجوم التي تراصت في السماء، وقلت معلقاً: أظن بأن النوم هنا تحت هذه السماء، ليس سيئاً لهذه الدرجة.

تمدد ليو بجانبي، وبعدها أغمضتُ جفني ورحتُ في نوم عميق.

لا أعلم كم ساعة نمتها، ولكني فتحتُ عينيّ فجأة- والظلام لا يزال حالكاً- وإذ بي أرى ليو أمامي، وقد ارتدى ذلك الوشاح الأسود مغطياً أنفه وفمه، وقد ربط السيف يسار حزامه، ووضع أيضاً خنجراً يمينه!

مسحت عيني لأتأكد مما رأيته - لم يكن حلماً بالتأكيد- وقفتُ أمامه ففوجئ بي، وقال: راد، لمَ استيقظت باكراً هكذا؟؟

- إلى أين؟ ما الذي تنوي فعله بشكلك هذا؟

بكفه ضغط على كتفي بقوة، ثم عبر من جانبي وهو يقول: أنا متجه للمدينة لدي أعمال يجب علي أن أنهيها، وحتى ذلك الوقت اعتني بالكوخ وبمارغريت، وإذ لم أعد، بإمكانك المكوث فيه حتى تعود لعصرك.

اعترضت طريقه بيدي وقلت: ليو أنت ذاهب من أجل إنقاذ الحاكم السابق؟ ألهذا اجتهدت في تدريبي اليوم؟ أهذا ما تفكر به؟

نظر إلي للحظات بدهشة ثم سرعان ما أطلق ضحكة ساخرة، وعلق قائلاً: راد، أنت حقاً شديد الملاحظة. نعم ما قلته صحيح.

اشتعلت عيناه تحدياً وهو يستدركُ قائلاً: لقد اكتفيتْ من هروبي كل هذا الزمن، سئمتُ من بقائي وأنا أرى سيفي يصدأ ببطء، لذا لن أسمح لهم بأن يمسوا شعرة من شعراته حتى لو كان ذلك يعني موتي، أتعلم.. أن أقسى المعارك هي تلك التي يخوضها الإنسان حفاظاً على مبادئه.

ثم أزاح يدي عنه، وابتسم برضاً- ناحيتي- وقال: راد، حقيقة لا أعلم ما السبب الذي جاء بك إلى هنا؟! لكنني حقاً سعيد بالأوقات التي قضيتها معك.

اعترضتُ طريقه مجدداً بيدي، نظر إلي باستغراب، فابتسمت قائلاً: حتى أنا لا أفهم لمَ أنا هنا؟! ولمَ التقيت بك؟! ولكني لا أستطيع أن أنكر ما علمتني إياه، فلو كنتُ الآن بعصري فإني

على الأرجح سأكون ممداً على فراشي الدافئ أشاهد التلفاز بعينين ناعستين وبيدي قصص مصورة للأطفال، أو أنني نائم على إحدى طاولات الجامعة وبيدي كوب قهوة، ليو إن لم تدرك لقد غيرت داخلي أشياء كثيرة وإن تركتك الآن، فهذا يعني بأني سأكون عدواً لمبادئ التي أؤمن بها..

أزاح بيدي مجدداً وهو خافض رأسه، ومع هذا تمكنت من رؤية الدموع التي امتلأت بها عينيه وهو يجيب: شكراً لك راد.

ثم تجاوزني، وما إن ابتعد بخطوات حتى لحقته واعترضت طريقه للمرة الثالثة، وقلت: ليو، لطالما كنتُ درعاً لظهري طوال هذا الوقت، وجاء اليوم الذي سأقف لأكون درعاً لك، دعني أحارب معك من أجل مبادئي- أنا أيضاً.

- ابتعد، أنا لا أريد أن أسبب لك المشاكل، أو أن تفقد حياتك بسببي. لا زلت شاباً، ولا زال هنالك من ينتظرك في عصرك.

- لذا لن أدعك تذهب وحدك، لأنني ببساطة، أصبحتُ مجنوناً هنا.

رفع عينيه المتأثرتين ناحيتي، آذناً لدموعه بالسقوط وهو يقول: وأنا أعتقد بأني استحلت إلى أحمق كبير مثلك.

مددتُ كفي له، وقلت: إذن، هل سنذهب سويّاً؟؟

صافحني موافقاً.

صمتُ للحظات، ثم قلت متسائلاً: لكن ألم تضع خطة لذلك؟؟

- لم أخطط لشيء، كنتُ أنوي اختراق السجن وحسب.

صمتُ لدقائق مفكراً، ثم قلتُ معلقاً: لكن هذا سيعرضنا لخطر كبير، ومن المستحيل نجاح ذلك. ماذا لو تمكنا من تشتيت انتباههم أثناء أدائهم طقوس إعدامه، ومن ثم تحريره؟

- وكيف يكون ذلك؟ سيكون هنالك الكثير من الجند! فكيف سنتمكن من تشتيتهم؟!

ابتسمت بمكر وأجبته: رغم أني أكره هذا، ولكن يمكننا إرعابهم بقنبلة يدوية، لن تكون ذات أضرار كبيرة ولكنها ستكون قادرة على تشتيتهم وإرهابهم إن قذفناها بعيداً وستمنحنا بعض الوقت.

- وكيف ستصنع هذه القنبلة؟

- سأحتاج لبعض الأدوات طبعاً، ولكن لا أعلم إن كنتُ سأستطيع إيجادها في تلك المدينة.

- أنا أعرف، أعرف أين ستجدان الأدوات اللازمة.

التفتنا سويّاً لمصدر الصوت، لقد كانت مارغريت تقف مستندة على باب الكوخ.

- مارغريت!! هل أنتِ واثقة مما تقولينه؟؟

- مالم تعرفه راد، بأنني قد عدتُ لتلك المكتبة عند السيد هينتون، وقرأت بعض تلك الكتب الأرمينية، وقرأت عن هذه المتفجرات، وأعرف تماماً أين ستجدها في المدينة. لذا ثق بي.

قلتُ معلقاً وأنا أنظر لليو ولها: أنتِ، لا يمكن أن أزج بِك في خطر كهذا مجدداً؟!

وجهت إصبعها السبابة نحوي، وثبتته على جبهتي، ودفعت برأسي قليلاً للوراء قائلة: وما المشكلة؟! لقد أصبحت هاربة، ولن تكون جريمة أخرى إن أردت مساعدة إنسان سيحرق ظلماً!! عليك أن تحمل عبء نفسك أولاً؛ لأنك أصبحت سارقاً.

- أيتها الطفلة، رقبتي ستكسر هكذا.

أزاحت إصبعها، وما إن عدلت رأسي ونظرتُ إليها حتى كانت شفتيها ترسم بسمة جميلة وهي تقول: في النهاية، لن أندم على انضمامي لحلف المجانين هذا، أيها الطفل الكبير.

سألت: إذن، هل ننطلق؟؟

نظرنا سويّاً تجاه المدينة بأعين ممتلئة بالأمل وبروح مفعمة بالثقة، ثم رفعت عينيّ ناظراً للسماء، وقلت: إنها ليلة مقمرة جميلة.

علق ليو قائلاً: لكنها ستكون ليلة طويلة على ما يبدوا أيها الطفل الكبير.

الفصل الخامس عشر: انحســـــــار.

الخسران هو الوقوف بينما أنت قادرٌ على الاستمرار.

كان الفجر قد أوشك على البزوغ، كنا- ثلاثتنا- قد تسللنا داخل المختبر الذي أرشدتنا إليه مارغريت، وكان لعالم يدعى "لانسلوت" أُلقي القبض عليه سابقاً لنشاطه العلمي، وزج به في السجن.

وما إن أصبحتُ داخل مختبره حتى أحسست بالضياع وسط كل تلك الأدوات والمواد الكيمائية التي جَهِلت جُلها.

كانَ الارتباكُ بادياً على وجهي وأنا أتفحصها على عجل، مما جعل ليو يسأل: لمَ أنت مرتبك هكذا؟

باستياء أجبته: تباً له من عالمٍ هذا! لمَ لمْ يكتب على الأقل أسماء هذه المواد؟؟ الحقيقة أشعرُ بالحيرة، ظننتُ أنه كمختبر الكيمياء في الجامعة.

- ولمَ يضطر لكتابتها وهو يحفظها تماماً؟! أنت ألم تكن تتباهى قبل قليل بأنكَ تعرفها؟!!

قالتها مارغريت وهي تشير إلي بتهكم وسخرية فأجبتها: وإن يكن يعرفها. كان عليه على الأقل أن يكتبها؛ ليستفيد منها غيره.

- وما أداراه هو، بأن حلفاً من المجانين سيأتي بعده؛ ليعبث بأدواته!!

اقترب ليو منا حتى وقف بمحاذاتنا، وبدا واضحاً بأنه قد سئم من تصرفاتنا، فعلق ساخراً: طفلة، وطفل كبير، أنتما تضيعان الوقت بالكلام!!

بصوت واحد أجبناه: ولمَ أنتَ تستخدم هذه؟ إنها خاصتي.

وكعادته ليو- مباغت ماهر- فسريعاً ما أخرسنا بضرب رأسينا ببعض.

تعثرتُ وكدتُ أسقط، وما إن تماسكتُ قليلاً حتى قلت: ما الذي فعلته ليو لتضرب رأسي بصخرة؟ أنتَ تستخدم سلطتك علينا؛ كونك الأكبر سناً!! هذا ظلم.

ردت باستياء : من، من هي الصخرة؟! لقد أحسستُ بأني اصطدمت بجبل للتو.

علق ليو قائلاً: سأضطر لترككما هنا والعمل وحدي إن لم تصمتا، أنتما تثيران غضبي.

حينئذ اتكأتُ بيدي مستنداً على إحدى الطاولات الحديدة، وما إن هممت بالرد عليها حتى انزلقت يدي ووقعت على الأرض، لينفرج ذلك الشيء ويُفتح!

وقفتُ سريعاً وتفحصت ما بداخله باهتمام، وكانت المفاجأة بوجود شيء لم أتوقعه، ولم يخطر ببالي مطلقاً؛ فارتسمت على شفتي بسمة انتصار وأنا أقول معلقاً: يبدو بأنه كان صندوقاً وليست طاولة كما ظننا، ويبدو بأن هذا العالم لم يكن سهلاً مطلقاً. لقد صنع مسبقاً ما كنا نبحث عنه، وخبأه هنا، هذا شيء لا يصدق.

علق ليو ببهجة وهو يقترب : حقاً، هل أنت واثق مما تقوله؟!

رفعتُ إحداهن أمامه، وأجبت: كل الثقة.

بدا مرتاحاً وهو يزفر الهواء، ويعلق قائلاً: من كان يحلم بذلك؟ الآن لم يتبقَ لنا سوى أن ننتظر أبواقهم اللعينة وطقوسهم الشيطانية لنحيل احتفالهم إلى مأدبة عزاء.

- هل رأيتما كم أبدو نافعة؟!

قالتها مارغريت متباهية، التفتنا ناحيتها، وبصوت واحد قلنا: مارغريت، ستبقي هنا.

صمتت للحظة؛ لتستوعب، ثم اعترضت قائلة بإصرار: كلا، سأذهب معكما.

نظر إليها ليو بنظرات أشبه ما تكون آمرة، وبصوت جاد أعاد عليها مؤكداً: كلا، لن أُعرّض حياتك للخطر، ستبقي هنا.

بدت عيني مارغريت منهزمة أمام إصراره، وخفضت رأسها برفض واضح، لذا اتجهتُ نحوها محاولاً مواساتها، فربَّت على رأسها بخفة، وقلت: لا تقلقي مارغريت سنعود بالتأكيد لأخذك بعد أن ننجح في مهمتنا، وإن أصبتْ، فعديني بأنك ستعتنين بجرحي، فأنت مدينة لي بعد كل شيء.

التقطت معصمي وأنزلته بضجر واضح، ثم ضغطت عليه بقوة وكأنها أرادت أن تعاتبني بذلك، وقالت باستياء: أنتَ تعاملني كطفلة، رغم كل شيء.

صمتت قليلاً، ثم أرخت معصمي، وتابعت: عدني إذن بأنكما ستعودان.

ابتسمتُ بثقة، وقلت: أعدك بذلك، لا تقلقي.

رفعتْ رأسها؛ لتظهر عينيها الدامعتين، أردت ممازحتها فضربت جبينها بخفة، وغطيت عينيها بكفي معلقاً: تباً، توقفي عن النظر إلي هكذا، إن عينيك وكأنها تقول لي بأني سأموت! قلت لك: بأنني سأبـــ...

حينئذ كانت مارغريت قد أنزلت بكفي وقبلت راحته، ولدهشتي ظللتُ واقفاً أمامها للحظات دون أي حراك حتى سحبني ليو من ياقة قميصي معلقاً: إلى متى ستظل واقفاً هكذا!!

ثم لوح بيده لمارغريت قائلاً: سنلتقي.

أما أنا فلم أستطع الالتفات خلفي، ولم أستطع تهدئة تلك الفوضى التي عصفت بقلبي حينها وأربكتني.

حتى وصلنا لتلك الساحة ووصلت إلى آذاننا أصوات تلك الأبواق اللعينة.

- لقد أوشكوا على الوصول، راد.

هززتُ رأسي بالموافقة، وقلت: سأتجه ناحية الشمال كما اتفقنا.

- وسأظل أنا قريباً من المنصة بانتظار اللحظة المناسبة.

أدرنا ظهرينا لبعض، وقلت: أعدكَ بأنني سأحدث فوضى ستربكهم للحد الذي سيجعلهم يتراقصون بسيوفهم هلعاً.

- وأعدكَ بأني سأخلص الملك فوراً لحظتها، ولنلتقي بمكاننا المعهود.

ثم سار كل منا بطريقه بينما علت أصوات الأبواق، وتقدم المشاة، واصطف بعض الجنود من الجهة اليمنى للمنصة، ضاربين على طبولهم ألحان الشيطان.

بينما تقدمت مجموعة الخيول، وفي وسطهم رُبط خيل كان يركبه الملك المقيد تماماً، كما حدث في المرة السابقة، وكانت القائدة "فان" تتقدم الجنود بوجه ممتلئ بالجمود المصطنع كعادتها.

كان الناس من كل حدب وصوب يتجمهرون، في تلك اللحظات كنتُ قد حددتُ الموقع المناسب لي لإطلاق أول قنبلة تشتت انتباههم، وما إن تم تقُيّد الملك على الخشبة المنتصبة،

حتى قذفت بأول واحدة، وأحدثت صوتاً مرعباً، جعلت الخيول تثور ذعراً، وسقط بعض فرسانها منها، واتجهت أنظارُ الجميع ناحية ذلك الانفجار.

بعضهم قد صرخ بهلع بأن لعنة "أوبنهايمر" قد وقعت بهم، دبّ الرعب في قلوبهم، وبدا الناس يفرون في كل اتجاه، استغللت تلك الفوضى وتسللت لمكان أقرب من المنصة وفي المكان الذي رأيته قد خلا من الناس، قمت بقذف واحدة أخرى مجدداً.

في تلك اللحظة أسرع ليو وقطع وثاق الملك.

صعدت المنصة شاقاً طريقاً لي بين الغبار والأدخنة المتصاعدة، لأصبح أنا وليو والملك بجانبنا، لكن سرعان ما تبدد الدخان قبل أن نتمكن من الهرب، ووجدنا أنفسنا وقد حوصرنا من عدة اتجاهات، لقد أدركوا تحركاتنا، ووقفوا على أهبة الاستعداد.

- ليو، لقد حوصرنا قبل أن نهرب!
- هل بقي معك من تلك المتفجرات؟
- بقيت واحدة ولكن انظر أمامك، لن استطيع قذفها وسط هذا الحشد من الناس. تباً لهم، كان من المفترض أن ترعبهم، لمَ تجمهروا مجدداً؟!
- أهذا أنت ليونهارد؟؟!!

التفت إليه ليو مجيباً: نعم جلالتك.

بلوم قال: ما الذي تفعلانه؟؟ لمَ أحدثتما كل هذه الجلبة؟! لمَ قد تجران حياتكما للموت الآن.

ابتسم ليو مجيباً: جلالة الملك، ابقَ خلفي. لقد اتخذنا قرارانا، ولا وقت للتراجع الآن، راد.

أسندت ظهري إليه متسائلاً: ماذا؟

- لمَ سيفك يهتز هكذا، هل أنت خائفاً الآن؟!!

فوجئت لدقة ملاحظته ثم هززت رأسي نافياً، كان العرق يتفصد مني وأنا أراقبهم وهم يستلون سيوفهم استعداداً لمهاجمتنا، وقلت: أنا لستُ خائفاً أبداً، أبداً، كنتُ أفكر فقط بغريزة البقاء التي ذكرتها سابقاً، وكنتُ أتساءل ماذا لو هم أحدهم الآن بقتلي، ما الذي سأفعله**!**؟

ابتسم ليو بثقة وهو يعلق قائلاً: هل تعلم كيف تعيق حركتهم دون تردد؟؟

- بجرحهم في مقدمة أرجلهم وأيديهم.
- صحيح، تلميذي العزيز. لقد أصبحت أحمقاً كبيراً مثلك.

ثم اتجه كل منا يشق طريقه بسيفه، كان ليو بارعاً يشق طريقه أمام العشرات بضربة واحدة، وكنتُ أبذل جهدي أنا الآخر في التصدي لهم، واستطعتُ إصابة العديد منهم ولكن ما لم نتوقعه كان قد حدث، حيث قام القائد الأول بالتسلل مستغلاً انشغالنا، وقام بإشهار نصل سيفه فوق عنق الملك، وصرخ فينا قائلاً: اخفضا سيفكما الآن. للأسف لقد انتهى عرضكما.

صرخ الملك في وجهي حينها قائلاً: لا تخفضا سيفكما، دافعا عن نفسيكما واهربا حالاً.

لكن آنذاك لم استمع لما قاله، فقد تملكني اليأس وبلغ الإجهاد مني مبلغه؛ تأرجح سيفي في يدي، فخفضته قليلاً، وحينها فقط قفز أحد الجنود ناحيتي بسيفه، وهام به على رأسي، لكن السيف كان قد قُذف به بعيداً قبل أن يصل، حال دون وصوله إلي، ذلك

الشاب - من الفرقة الخامسة- الذي رأيته قبل يومين يتقدم المسيرة بعينيه الرافضتين، استدار ناحيتي ورمقني بنظرات لم أستطع تميز كنهها، تقدمت نائب القائد وربّتتْ على كتفه قائلة: أحسنت عملاً "ستييف".

ثم التفتت لذلك الجندي الذي أراد قتلي، وصرخت في وجهه معاتبة: ما الذي أردت فعله أيها الجندي، أليس من المعيب أن تقتل رجلاً خفض سلاحه؟!

- سيدتي، إنه خائن، والخائن يقتل.

- ليس قبل أن نستجوبه.

ثم التفتت إلي، لم تكن عيناها عيني شخص يضمر شراً، ومع هذا وبلمح البرق شعرتُ بشيء يخترق كتفي غدراً، لقد كان سيفها مغروزاً داخله! ثم أزاحته سريعاً، فصرخت بتوجع مع انفجار الدماء.

أدارت ظهرها لي، وقالت: اعتنوا بجرحه. ثم ألقوهما في السجن، ربما يكونان مبعوثين من مملكة بيين.

ثم أشارت لذلك الجندي، وقالت بغضب: كان تصرفك متهوراً، ربما كنا سنفقد ورقة مهمة بفعلك الطائش، كن أكثر حكمة.

اقترب منها القائد الأول مصفقاً، وعلق بتهكم واضح: أحسنتِ قولاً. ورقة مهمة إذن؟! فـــــــان، ألا تعتقدين بأنك قد تجاهلتِ أوامري؟

بالكاد تمكنتُ من رفع رأسي والنظر ناحية ليو لقد كان مصاباً في صدره ودماؤه تنزف هو الآخر.

كانت عيناي تدمعان ، وشعرتُ بضباب يملأ عينيّ ثم لم أعد أشعر بشيء.

الفصل السادس عشر: المـــــــــــد.

ربما تضطر إلى أن تخوض نفس المعركة أكثر من مرة واحدة؛ لتفوز فيها.

مارغريت تاتشر.

بالكاد استطعتُ فتح عيني، شعرتُ كما لو أن جسدي كان مخدراً، وما إن أبصرتُ الجدران من حولي حتى نهضت بعجل، شعرت معه بوخز موجع في كتفي المصاب، إضافة إلى الألم في معصميّ وقدميّ المقيدتين، فقد كنتُ مقيداً بأصفاد من حديد نقش عليها قرني ذلك الجدي الشيطاني، تذكرتُ حينها ما حدث، فناديت بفزع: ليونهارد... ليونهـــــــــارد.

جاء صوته مطمئناً: لا ترفع صوتك هكذا، أنا قريب منك.

أمسكت القضبان، لألقي نظرة حولي، كان "ليو" في الزنزانة التي أمامي متكئاً على القضبان مديراً ظهره لي.

- لقد ظللتَ نائماً طوال ذلك اليوم بعد الحادث.

- مـــــــــــــــاذا؟؟!! ما الذي حدث بعد ذلك؟؟ ما الذي جرى للحاكم؟

لم يجبني ليو، وصمت كثيراً. صمت لدقائق عديدة، أظنه كان يغالب فيها دموعه، ومع هذا كان صوت نحيبه المتقطع يصلني بين حين وآخر، ليجيب عن سؤالي.

خفضتُ رأسي بأسى متنهداً، وحينها أحسست بأن جيب بنطالي غدا خاوياً من الساعة الزمنية.

لقد انتزعوها هي الأخرى مني، ولا شك. ربما ظنوا بأنها ستحدث انفجاراً كتلك القنابل.

وصلني صوت ليو ممزوجاً بالألم واليأس قائلاً: آسف راد. لقد رميتُ بك في هذه المغامرة الخطرة، وأنت لا يد لك فيها. ما كان علي بأي حال من الأحوال أن اسمح لك بالدخول في خضم معركة كان الفشل فيها مؤكداً.

تنهدتُ قليلاً، ثم اتكأت على القضبان الحديدة مديراً له ظهري- أنا الآخر- وأجبته قائلاً: ما الذي تتفوه به "ليو"؟!! لقد جئتُ إلى هنا بمحض إرادتي، حتى لو تركتني هناك، كنت سأتبعك على أية حال.

اهتز صوته وهو يعلق: أنت، أحمق بالفعل وطائش.

ابتسمت بثقة وأنا أجيبه: هل نحتاج أن نفكر إن أردنا إنقاذ أحدهم؟! ربما يتردد الانسان في قتل أحدهم، لكن نحن نندفع بفطرتنا لإنقاذ الآخرين. فثانية فقط ربما تكون هي الفيصل في أن يعيش أو أن يموت.

صمت "ليو" ولم يجب، ألقيتُ بنظرة على راحة يدي، وندت من شفتي بسمة خجلة ثم تابعت: ومع هذا لم نستطع أن نفي بوعدنا لها.

- لا تقلـــــق، لا شك بأنها قد علمت بفشلنا، فرائحة الاحتراق، قد انتشرت يومها.

بيأس أطرقت رأسي لأسفل، وزفرت بألم قائلاً: إذن لقد أعدم بالنهاية!

ظل ليو غارقاً في صمته، أما أنا فشعرت بالغضب يتملكني، فضربت القضبان بكفي قائلاً: كدنا ننجح لولا تدخل تلك المتوحشة.

- أنتَ بقيت محتفظاً برأسك بفضلها، عليك أن تكون شاكراً لها.

باعتراض رددت: ما الذي تعنيه ؟! هي لم تتردد للحظة واحدة في غرز سيفها بكتفي.

- ربما كنتَ مغيباً عن الوعي؛ بسبب نزفك الكثير من الدماء، لكنها لو لم تفعل ذلك، لكنت أعدمتَ بنفس الوقت، لقد فعلت ذلك لتهبنا بعض الوقت، وإلا فهي أكثر شخص يعرف حقيقة هويتي، ومع هذا لفتت انتباههم بالاشتباه بكوننا جواسيس أو مبعوثين من مملكة بيين، تلك الطفلة قد كبرت كثيراً حقاً.

صمتُ للحظات دون أعلق، ثم قلت متسائلاً: وما الحل الآن؟؟ ما الذي سنفعله؟

- على الأرجح "فان" ستسعى لإخراجنا من هنا، لكنّي لا أريد أن أزجها في هذا، فعلى ما يبدو بأن القائد الأول "نيروا" لديه شكوك حول وفائها، في النهاية لم يعد السبب الذي سعيت من أجله موجوداً هنا. أُفضلُ أن أموت على أن أتعفن في قذارة هذا العالم.

خيم الصمت للحظات قبل أن أقول: "ليو"، هل أخبرتك سابقاً، بأنني معجب بك؟

أدار رأسه قليلاً ناحيتي باهتمام، كنتُ قادرة على رؤية نصف وجهه فابتسمت متابعاً: ومع هذا لم أتوقع بأنك ستنخرط في حزنك هكذا وتستلم. إن كان السبب الذي سعيت من أجله ليس موجوداً الآن فأعتقد بأن الحفاظ على تلك التي منحتك الوقت هذا لتعيشه الآن هو سبب مهم أيضاً؛ لتعيش من أجله. ألا تعتقد بأن موقفك هذا سيخذل ما سعت هي لحمايته؟ أنت أردت حماية الملك، وهي أرادت حمايتك. لا أعلم كيف كانت الأيام التي عشتماها سويّاً، ولا أعرف لمَ هي قد وقعت في فخهم. لكن، ما يظهر لي- وما أنا أصبحتُ متأكد منه الآن- بأنها ولا شك، لازلت تكن لك الاحترام والحب، " ليو".

أرخيتُ رأسي قليلاً، وأكملتُ مازحاً: ومع هذا كان عليها أن لا تضربني بكل تلك الوحشية. أشعرُ بأن كتفي قد تمزق تماماً. لقد صنعتَ منها وحشاً.

ضحك " ليو" بصوت مرتفع. بدت ضحكاته وكأنها تخرج من أعماقه، ثم استطاع أخيراً أن يلتفت ناحيتي مبتسماً رغم عينيه المحمرة، وقال: حينما نخرج من هنا، ذكرني بأن أضرب جبهتك لهذا.

- سأفعل ولا شك.

بعد ذلك لزمنا الصمت، وظل كل واحداً منا غارقاً في أفكاره. مضت أكثر من ساعة ونحن على هذه الشاكلة، حتى وصلنا صوت وقع خطوات أقدام كثيرة تقترب، وما إن رفعت نظري،

حتى رأيت نائب القائد تقف أمامي، وبجانبها وقف ذلك الشاب من الفرقة الخامسة المدعو "ستيف"، والعديد من الحراس.

ما إن رآهما ليو حتى أدار لها ظهره، فسألت: كيف هي حال جرحيكما؟؟؟

تحسست كتفي، وأجبت باستفزاز: ألم تجدي مكاناً أفضل لطعني فيه؟

التفتت ناحيتي، وجذبتني من ياقتي بغتة، ورفعتني في دهشة مني واستنكار.

هذه المرأة رغم بنية جسدها كانت قادرة حقاً على رفعي، أجابتني وهي تبتسم بتهكم: بلى، كان رأسك أقرب، ولكني تركته. لأنه يحمل شعراً أسوداً كغالبية سكان "بيين".

أمسكتُ بكفها لأبعده قائلاً: أنتِ أسوأ امرأة قابلتها على الإطلاق.

قذفت بي، وقالت وهي توجه حديثها لليو: على العموم لا أحد يستطيع أن يصمد لدقائق أثناء الاستجواب. سنرى إلى أي حد تستطيعان الصمود. بعد غد ستخضعان للاستجواب، وحتى ذلك الوقت، اعتنيا بجرحيكما جيداً.

رفعت يدي ناحيتها باستسلام وأنا أقول ساخراً: وكيف سأعتني بجرحي بيد مأسورة بهذه الأصفاد؟

رمقتني بنظرة استياء، ثم قالت وهي تشير لأحد جنودها: قيد يديه على القضبان.

سرعان ما فتح الزنزانة وشرع بربط يدي على القضبان فصرخت باعتراض قائلاً: ما هذه القسوة!! أنتِ حقاً أسوأ مخلوق قابلته بحياتي كلها.

لكنها تجاهلتني تماماً، وأدارت ظهرها مغادرة غير أبهة بصراخي، ثم لحقها بقية الجنود.

تأملت يديّ المقيدتين على القضبان، لم يعد بإمكاني التحرك بعد الآن، فقلت ببؤس: ليو، أنا لن استطيع النوم جالساً هكذا؟؟ إنها لا تملك رحمة بقلبها.

- عليك أن تلوم لسانك السليط أولاً. ما كان عليك أن تستفزها هكذا!!

أرخيتُ برأسي على القضبان ناظراً للسقف، وقلت: لقد صنعت وحشاً فعلاً.

حينئذ سمعتُ صوت وقع أقدام يقترب مني، وما إن رفعت عينيّ حتى رأيت "ستيف" ممسكاً مفاتيح بيده. انحنى نحوي، وفك السلاسل التي كانت تقيدني بالقضبان وألقاها جانباً ثم استدار مغادراً دون أن يتحدث بأي كلمة.

الفصل السابع عشر: الفجـــــــر.

العظمة في الحياة ليست في التعثر، ولكن في القيام بعد كل مرة تتعثر فيها.

نيلسون مانديلا.

في الليلة التالية، لاحظنا انتشار الجنود حول زنزانتنا بشكل مريب بعكس الليلة السابقة.

للحد الذي جعل أصوات أحاديثهم وضحكاتهم الصاخبة، تصل إلى آذاننا.

وفجأة اعتلى المكان صوت جلبة وامتلأ بالضجيج، أمسكتُ بالقضبان عليّ أستطيع أن أرى ما الذي يحدث حولنا، كان " ليو" هو الآخر قد وقف؛ ليتفقد الأمر، نظر إلي وقال معلقاً: أعتقد بأن خلاصنا قد اقترب.

وما هي إلا دقائق، حتى كانت "فان" واقفة أمامنا، وقد غطت جل وجهها بوشاح، تقطر الدماء من أصابع يديها.

اقتربت من زنزانة " ليو" ثم أحنت رأسها له باحترام، وقالت: معلمي، آسفة بشأن كل شيء.

فأجابها " ليو" متسائلاً: "فان" ما الذي تخططين لفعله؟ ما الذي يحدثُ بالخارج؟

رفعتْ رأسها ناظرة إليه دون أن تجيب، ثم اتجهت نحو قفل الزنزانة وفتحته، ثم حررت الأصفاد من على يديه ورجليه.

ثم أسرعت ناحيتي وفتحت القفل، وحررت يديّ وقدميّ، فتلمستُ كتفي المصاب بتوجع، وقلت معلقاً: أنا شاكر لك، ولكن أما كان عليك أن تكوني أكثر لطفاً، أنا أشعر بتوجع كتفي لحد الآن.

قذفت إلي بساعتي الزمنية وهي تسأل: أهذه لك؟؟

التقطها وأنا أقول: أنتِ مفيدة بالفعل.

كان "ليو" قد علق سيفه في حزامه ثم ناولتني السيف، والتفتت ناحيته قائلة: معلمي، انعطف يساراً ستقابل أحد جنودي سيرشدكما إلى الطريق، لا شك بأن بقية الحراس سيصلون الآن.

بقلق تساءل "ليو": وأنتِ؟ لمَ تعرضين نفسك للخطر؟! ماذا لو ألقي القبض عليك، فستتهمين بالخيانة ولا شك؟!

ابتسمت بثقة، وقالت: معلمي، أنتَ أكثر شخص تعرف بأني لا أدخل معركة أعلم يقيناً بأني سأخسرها. المهم يجب عليكما أن تختبئا في أي مكان بالمدينة سريعاً، قبل أن يتحرك المد.

أومأ بالإيجاب، وعيناه بدأت تدمعان وهو يقول: أنا أثق بك، أكثر من أي وقت مضى.

ثم انطلقنا سريعاً حيث أشارت إلينا وأرشدنا أحد الجنود إلى بابٍ للخروج، وما إن أصبحنا خارج أسوار السجن حتى اختبأنا بأحد الأزقة، ننتظر مرور الجنود المنتشرين في كل مكان.

عبرت عن قلقي بقولي: بدأت أشعر بالقلق، لمَ الجنود في كل مكان هكذا؟! أخشى على هذا النحو أن نقع في أيديهم مجدداً. كيف سنخرج؟؟

- لا تتحدث كثيراً، وابقى هادئاً سنخرج بالتأكيد.

- ما الذي كانت تعنيه "فان" بقولها: (قبل أن يتحرك المد)؟؟

- ومن يدري الآن.. ما الذي سيحدث!!

لوهلة طرأت في خاطري "مارغريت" فاستدرت نحو الناحية الأخرى.

أمسك ليو بذراعي متسائلاً بهمس: إلى أين تتجه؟؟ هنالك حشد من الجنود أمامك.

- "مارغريت"، لازالت تنتظرنا.

- لا تكن أحمقاً، لابد وأنها قد عادت.

- وما يدريك بأنها قد عادت حقاً؟! "ليو" هؤلاء الجنود لا يبدو أنهم منتشرون من أجلنا؛ بل ربما لم يعلموا بعد بشأن هروبنا.

- أنا أيضاً أشعر بذات الشيء. لكن ستكون من الحماقة إن عدنا هناك. لا تغامر الآن.

أبعدت يده قائلاً: آسف، هذا المرة، لن أطيعك.

ثم افترقت عنه واتجهت إلى آخر الرواق، وتمكنت من التسلل عبر الأروقة عابراً الجنود، حتى وصلت إلى المختبر حيث تركنا "مارغريت".

وما إن وقفت أمام الباب وفتحته وأصبحت داخل المختبر، جلتُ بعيني في كل الاتجاهات بحثاً عنها ، لكني لم أكن قادراً على الرؤية بسبب الظلام.

حينئذ وصلني صوتها المجهد وهي تقول: أهذا أنتَ "راد"؟؟

اتجهتُ ناحية الصوت سريعاً، كانت تجلس مستندة على الصندوق الخشبي، ضامة كلتا ساقيها، وبالكاد رفعت رأسها متسائلة: أهذا أنتَ ؟؟ أين "ليو"؟؟ لقد تأخرتما كثيراً.

انحنيت نحوها، ونظرت إليها عن قرب، لقد بلغت مني الصدمة مبلغاً، كانت شفتاها جافة من أثر الظمأ، وعيناها غائرتين من الجوع. كان من الواضح جداً بأنها لم تتحرك من هنا بعد أن غادرنا، فقلت معاتباً: أنتِ، لا تخبريني بأنك ظللت هنا لثلاثة أيام دون طعام وماء!!

ثم ناولتها سريعاً قربة الماء التي كانت بحوزتي، وما إن ارتوت وبدا الانتعاش بادياً على وجهها حتى سألتني: ما الذي حدث؟ وأين "ليو"؟؟

أجبتها سريعاً: لا وقت لدينا الآن لأخبرك. دعينا نخرج من هنا أولاً.

وقفتُ سريعاً، ثم مددت لها يدي؛ لكنها نظرت إلي بعينين ذابلتين، وقالت: أنا- حقاً- لا أستطيع الوقوف الآن، لا طاقة لدي.

ثم أسندت ذراعها على الصندوق، وحاولت الوقوف عبثاً؛ لكنها سرعان ما فقدت توازنها وسقطت، انحنيت نحوها وأسندتها، ثم قلت محاولاً استفزازها كالعادة: لا مفر، يبدو بأني مضطر لحمل هذه الصخرة الكبيرة على ظهري.

لم تبدو منزعجة كعادتها، ولم تشتمني. كان من الواضح جداً بأنها منهكة للغاية، فحملتها على ظهري، وأرخت رأسها على كتفي المصاب بوهن، وقالت وقد أغمضت عينيها: هل يؤلمك كثيراً؟! حينما أتعافى سأعالجه لك. آسفة.

- لا بأس، ولكنك أثقل مما تصورت بالفعل.

رفعت رأسها وكأنها استعادت نشاطها فجأة، وعلقت قائلة: ألم تقل بأني طفلة؟؟ هل أنت عاجز الآن عن حمل طفلة ؟!

أجبتها بانزعاج: أية طفلة !! أنتِ صخرة.

- وأنتَ ستسقطني هكذا!

ثم شدت ذراعيها علي؛ لئلا تسقط. في تلك اللحظة فقط أدركت مدى قرب رأسها مني، ولا أعلم لماذا شعرتُ بالحرج وبفوضى تضرب أرجاء قلبي مجدداً، لم استطع إنكارها، فأشحت بوجهي إلى الجهة الأخرى بخجل وأنا أُقول: أبعدي رأسك عني. أنتِ قريبة مني جداً.

دون اكتراث رفعت رأسها سريعاً، وأرخت بها على كتفي الآخر.

أغمضت عيني وأصررت على أسناني وقلت: أنتِ لم تفعلي شيئاً.

فتحت نصف عينيها وهي تجيبني ببرود: وأين تريدني أن أضع رأسي إذن؟!

صمتت للحظة ثم أتمت: رائـــــد.

ابتسمت برضا لمناداتها لي برائد، فقلت معلقاً: أبقي كما أنتِ، وناديني دوماً هكذا، لكني لا أضمن لك نفسي؛ إن رأيت أحد الجنود فسأقذف بك جانباً وأهرب.

وما إن دفعت الباب بقدمي حتى شعرت بالخدر يسري بجسدي. لقد أدركتُ بأن هذه الليلة لن تنتهي على خير.

حيث وجدت أمامي فرقة كاملة من الجنود مصطفة تقف بانتظاري، وفي وسطهم كان "ستيف" يمتطي خيله، وقائد الحرس الأول يمتطي خيله هو الآخر ومشهراً سيفه.

رحب بي هازئاً: أهلاً، لقد أتيت إلى هنا كما توقعنا سيد هارب. أم من الأفضل أن أقول: تلميذ القائد الخائن "ليونهارد"؟

تراجعتُ قليلاً للوراء، وبدا العرق يتفصد مني. شدت "مارغريت" علي بذراعيها، وبدأت أشعر بضربات قلبها الوجِل وهي تسأل: رائد.. ماذا سنفعل؟؟

همست إليها لأطمئنها قائلاً: لا تقلقي، أنتِ خارجة عن الموضوع.

ومع أني مدرك مدى ضعف موقفي تماماً إلا أنني قلت: أكيد قائد "نيرو"، أنتَ لن تهاجم شخصاً لا يستطيع إشهار سيفه للدفاع عن نفسه وهو يحمل امرأة مريضة خلف ظهره.

ابتسم "نيرو" بخبث قائلاً: هذا يعتمد على الشخص. إن كان خائناً، فهذا سبب، وإن كان يحمل خلف ظهره أمة هاربة من المفترض أنها معلقة على الخازوق الآن، فهذا سبب أخر يجعلني أرغب بقطع رأسيهما معاً والآن.

ما إن أنهى كلمته تلك وأشار بعينه لأحد جنوده، حتى اندفع ناحيتنا مهاجماً.

لكن شخصاً ما حال بين وصول سيفه ناحيتنا، كان " ليو" يقف صاداً سيفه ثم قذف به بعيداً بعد أن أصاب ذراعه.

هتفت ببهجة: "ليـــــو"، الحمد لله.

- ضعها جانباً بسرعة، واحمل سيفك.

أنزلت "مارغريت" من على ظهري سريعاً، وقلت لها:
مارغريت، حاولي أن تبقي خلفي وخلف ليو وأنا لن ابتعد كثيراً عنك. فهمتِ؟!

أشار القائد لجنوده بالتوقف ثم تقدم بخيله متجهاً نحو "ليو" بزهو وهو يقول هازئاً: من الممتع رؤيتك "ليونهارد" القائد السابق.... ثلاث عشرة سنة!! لقد تغيرت حقاً لدرجة أني لم أعرفك بداية، لقد أقسمتُ يميناً بأن مقتلك سيكون على يدي. من الرائع فعلاً أن تعود لتمنحني شرف هذه الفرصة سيدي.

ثم ابتسم بخبث ورفع يده عالياً وتابع: لكن بعد أن أرى لأي حد أصبحتَ واهناً.

ثم صرخ بجنوده آمراً: اقتلوهم جميعاً.

رفع كلانا سيفه، جاعلين "مارغريت" خلفنا. وتلك الجموع تندفع نحونا مشهرة سيوفها بلا تردد، فصرخ ليو قائلاً:

- "راد"، إن لم أعد. عليك أن تضرب رأسك بصخرة.

- لا تقلق سأعد، وستضربني أنت.

ثم اندفع " ليو" يهاجمهم، أما أنا فبقيت أصدهم وأعيق اقترابهم من "مارغريت" لكن أعدادهم كانت تزيد وتزيد، وبدا بأن لا نهاية لأعدادهم. وبدا الإجهاد واضحاً على كلينا، خاصة مع إصاباتنا السابقة، ونزفنا للكثير من الدماء. كنتُ أتقدم تارة مهاجماً، وأقف تارة لإبعادهم عن مارغريت، ومع هذا اتجه أحدهم ناحيتها، مستغلاً انشغالي بمبارزة أخر، وما إن أراد أن يطيح بسيفه عليها ووصلنا صوت صراخها، حتى وقفت "فان" في وجهه وصدته وقذفت بسيفه بعيداً ثم انطلقت نحوي وأسقطت العشرات من الجنود أمامي بضربهم الواحد تلو الآخر، وسط ذهول من الجميع.

حينئذ صرخ "نيرو" الذي كان يراقب الموقف من على خيله قائلاً: توقفـــــــــــوا.

فتوقف الجميع، والتفتوا ناحيته.

ترجل من خيله ومشى مختالاً وهو يصفق متجهاً نحو "فان"، وما إن أصبح بمقربة منها حتى قال: "فان"، كم أنتِ رائعة حقاً،

أنتِ تقفين حائلاً بين الخونة وبين جنودي؟! هل تدركين معنى تصرفك هذا؟ أم أنه الحنين لذلك المعلم الهالك؟؟!

أشار إلى الجنود الساقطين على الأرض، وأتبع: هؤلاء الجرحى من جنودكِ قائد "فان"؟ فهل تعلمين ماذا يعني هذا؟؟

رفعت سيفها وأشارت بنصله ناحيته وأجابت: خيانة... إن كان سيكتبني التاريخ خائنة لأنني كرهت الظلم القابع تحت سيوفكم، فإني سأتشرف بذلك. وليكن.

أبعد سيفها بيده، واقترب منها أكثر قائلاً بسخرية: كنتُ من البداية معارضاً بأن تكون امرأة نائبة لي، لم تحتمل عاطفتك رؤية معلمك مقيداً!!

لكنه لم يكد يكمل جملته، فسرعان ما أشهرت "فان" سيفها وسددت به ضربة في عضده، محدثة له جرحاً ثم أزاحت سيفها.

تلمس عضده الذي كان ينزف بهلع، ثم اشتعلت عينيه بحنق هو الآخر، وقال وهو يزمجر غضباً: هل تدركين مدى ضعف موقفك؟؟ الكثرة غلبت الشجاعة يا سيدتي.

ثم أشهر سيفه، وصرخ بصوت مرتفع آمراً: أيها الجنود، اقتلوها مع الخونة جميعاً.

وقفنا أنا و"ليو" خلف بعضنا متأهبين، وأعيننا تدور في كل اتجاه حولنا، لكن الهدوء الذي سكن المكان حينئذ جعلنا نتلفت

حولنا بريبة مندهشين من وقوف الجنود دون أي حراك، كما كان "نيرو" هو الآخر يتلفت بوجل، وحين لم يتقدم أحد أعاد صارخاً: ماذا ألم تسمعوا الأوامر؟!

حينها كان سيف "ستيف" قد سُلط حول عنقه في دهشة أخرستنا، التفت إليه بعينين تدوران من الخوف قائلاً: "ستيف"، ما معنى هذا؟؟ هل أنت ستقف مع الخونة أيضاً؟!!

أجابه قائلاً: من له الحق هنا بتصنيف الناس والحكم عليهم؟! لا أعرف إن كانوا خونة أم لا، ولكن ما أعرفه جيداً. على الجنود في الفرقة الخامسة تنفيذ أوامر القائد في حال غياب نائب القائد فقط وبما أن سيدتي تقف هنا، فالفرقة الخامسة لن تستمع إلا لأوامرها.

ارتسمت على شفتيه بسمة منهزمة، وقال بتهكم: منذ متى شُرع هذا القانون؟!

- منذ هذه اللحظة بالضبط.

أدار رأسه ناحية "ستيف" ورمقه بغبن، وقال بصوت يتوعد بيأس: هذه خيانـــــــــــــــــــة، مجموعة حثالة، سأنتقم منكم جميعاً.

قرب "ستيف" سيفه أكثر دون تردد من رقبة نيرو وهو يقول: عليك أن تستسلم فبينما أنت لاه مع حاكمك بقصره، هناك من سعى لعصر جديد.

اقتربت منه "فان" قائلة: بذات الطريقة التي انفصلت منها "دومدري" عن مملكة "بيين" أطاحت بها مملكة "بيين"، إن لم تكن تدرك، فإن جيش مملكة "بيين" على الأبواب. انتقاماً لقتل الحاكم السابق. وملكك هذا قد تم اغتياله الآن ولا شك، وإن لم تدرك فإن ثلث سكان هذه المدينة - الذين استعبدتموهم- يحتشدون الآن بعصيهم وسيوفهم وحجارتهم برفقة "هينتون"؛ لينالوا حريتهم.

ثم وجهت سيفها بين عينيه، وأكملت بصوت مرتفع: لا مكان للعبودية ولا الظلم ولا الفقر ولا حتى النوار بعد الآن في "دومدري".

ثم أشارت لجنودها بتقيده.

جثا على ركبتيه من هول الصدمة مستسلماً ولم يكن هو الوحيد، حتى أنا كنتُ قد ترنحت جاثياً على ركبتي، ألتقط أنفاسي، فأخيراً، قد نجونا.

أمرت "فان" الجنود بإغماد سيوفهم ثم اتجهت ناحية " ليو"، وقف الجميع يشاهد هذا المشهد بصمت، وكأنه التقاء والد بابنته بعد مضي عدة أعوام.

انحنت له باحترام، وجلست تفترش الأرض بركبتها، ثم أمسكت بكفه وقبلته، قائلة: معلمي، أشكرك؛ لأنك وثقت بي هذه المرة، وأقسم بأنني لن أكون الشخص الذي يعضك أبداً بعد اليوم. لعل هذا يكفر عن خطيئتي السابقة.

مسح على رأسها بيده الأخرى وأخذ يربت على رأسها بصمت دافعاً دموعه. أما هي فقد كانت دموعها تبلل الأرض.

ذلك المشهد الذي ساده الصمت. كان مليء بالمشاعر التي تقف الكلمات أمامها عاجزة عن البوح. كانت ممتلئة بالندم، وربما الشوق، وربما الود، لكنها ولا شك كانت تحمل نوعاً من الألم يحاصرها أيضاً، اللحظات التي يعبرها الأسف محملاً بأمطار من ندم، تُنبت بأعماقنا إحساسا بالحب لا يمكننا نسيانه. أعتقد بأن ذلك المشهد قد أخذ جزءاً من ذاكرتي لا يمكنني حقاً نسيانه.

بعد أن رفعت رأسها ووقفت معتدلة، قالت: معلمي، ابقَ هنا الليلة بداخل المختبر حتى أوفر لكما طريقاً بعد أن يهدأ الوضع في المدينة.

ثم التفتت إلي مبتسمة وهي تقول: أنت أيها الشاب الطائش.. أشكرك؛ لأنك اعتنيت بمعلمي جيداً. كان من الواضح جداً مدى عمق العلاقة التي تربطكما.

ثم امتطت خيلها، ولكني أوقفتها متسائلاً: مهلاً أريد أن أسألك سؤالاً. في تلك الليلة التي قابلتني فيها أول مرة، قلتِ لي: بلغه سلامي إن قابلته؟ هل كنتِ تقصدين "ليو" حينها؟

أومأت برأسها موافقة، وقالت: لقد عرفت من الثياب التي تلبسها بأنها له، ثم تأكدت بعد ذلك من سيفه. فأنت إن لم تكن تدرك بأن السيف الذي أعطاك إياه "ليو"، سيف "الكيليج" هذا، هو السيف الذي رافقه طيلة حياته داخل "دومدري" إنه مجده الذي يعتز به.

ثم ضربت سراج خيلها، وانطلقت مع فرقتها كما الريح، استدرت متجهاً نحو "مارغريت"، وقلت لليو بامتنان: لم أكن أعلم بأنك قد منحتني أعز سيف لديك!! شكراً لك.

ثم تابعتها بعيني وهي تختفي مع خيلها وأردفت: أنها تستحق الإعجاب حقاً، لقد اعتنيت بها جيداً ليو.

- إذن هل غيرتَ رأيك بكونها متوحشة؟

- أنا لم أقل بأنها غير متوحشة. أنا عنيت فقط بأنك اعتنيت بها جيداً، ومع هذا صنعت منها وحشاً، لأكون صادقاً وأقول: وحشاً بقلب رقيق.

ثم انحنيت نحو "مارغريت" قائلاً: هل أنتِ بخير الآن؟

بالكاد استطاعت أن تفتح نصف عينيها متسائلة: هل نحن بمأمن الآن؟
ربتُ على رأسها لإزعاجها، قائلاً: لا تخشي شيئاً، حلف المجانين بمأمن الآن.
ابتسمت برقة ثم أغمضت عينيها، وغطت في نوم عميق.
وما إن حملتها بين ذراعي حتى نظرتُ " لليو" الذي رشق على وجهه الماء ثم اخرج سيفه من غمده، فقلت متعجباً: لا تقل لي؟؟
ابتسم قائلاً: لقد خيبت توقعاتي هذه المرة، ظننتك ستعرف وجهتي ولا شك.

ابتسمت قائلاً: أمهلني دقيقة فقط. سأضعها بالمختبر ثم نتجه سويّاً، ولأنني خيبت توقعاتك، فإني سأكفرها هذه المرة بالمضي معك إلى وسط المدينة.. أليس كذلك؟
أومأ برأسه موافقاً.
وما هي إلا لحظات حتى انطلقنا سويّاً، نخترق الصفوف مدافعين عن عامة الناس في أطول ليلة مرت علي في حياتي.
وعند انتشار خيوط الفجر كانت ساحة النافورة قد ملأها الهتاف، وسرعان ما دقت الطبول، وعزفت الأبواق معلنة انتصار "بيين". لم تزهق العديد من الأرواح؛ ذلك لأن غالبية الجنود نزلوا على شروط البقية حفاظاً على حياتهم، وبهذا سقطت "دومدري" أخيراً، وانبثق فجرٌ جديد.
عدت خائر القوى، وما إن وصلت للمختبر وفتحت الباب.
حتى ألقيت بنفسي جانب "مارغريت"، وقلتُ بصوت منهك: أنتِ، عليك أن تتعافي بسرعة وتعالجين جراحي.
بوجل بادي على وجهها سألت: ما كل تلك الجلبة بالخارج، ما الذي يجري؟؟؟
أجبتها بأنفاس متقطعة :"مارغريت"، سأعيدك إلى "بيين" حيث ولدت، أعدك بذلك.

ثم غطيت بعدها بنوم عميق.

الفصل الثامن عشر: الـــــــوداع.

كان هيجل على حق عندما قال: إننا نتعلم من التاريخ،
أنه يستحيل على البشر التعلم من التاريخ.
جورج برنارد شو.

مضى بعد ذلك خمسة أيام، مكثنا- ثلاثتنا- في كوخ "ليونهارد"، وفي صباح اليوم الخامس

وبينما كان "ليو" يشعل النار، كنتُ أنا أعجن الدقيق لصنع الخبز.
أما "مارغريت" فلم تكن مفيدة كعادتها سوى بالشجار معي.
وبينما نحن منغمسون في إعداد الفطور، وصل إلى آذاننا صوت وقع أقدام تقترب.
وما إن وقفنا جميعاً ننظر في ذات الاتجاه، حتى بدا لنا زوال شخص يقترب منا، وما هي إلا لحظات حتى أدركنا بأنها لم تكن إلا القائدة "فان" تعلوها ابتسامة مشرقة لم أرها سابقاً عليها.
ألقت علينا التحية، وحينما لم يصلها أي رد منا- فقد فوجئنا جميعاً حقاً لمعرفتها بمكاننا هنا - قالت معتذرة بحرج: آسفة بشأن قدومي دون موعد.

ولأن "ليو" كان صامتاً في دهشة، قمت بالترحيب بها وقلت معلقاً: من الجيد بأننا لم نتناول إفطارنا حتى الآن، دقائق وسيجهز كل شيء، من الجميل أن تشاركينا.

وما إن جلستْ حتى قال "ليو" متسائلاً: "فان"، كيف عرفت بهذا المكان؟

خفضت رأسها إلى الأسفل، ثم قالت: الحقيقة، كنتُ أعرف بشأن هذا المكان، منذ أكثر من ثلاثة أعوام ولكني لم أجرؤ على الاقتراب أبداً.

ابتسم "ليو" بإعجاب، ثم سرح بالنار للحظات، ثم قال معلقاً: أحقاً مضت ثلاث عشرة سنة؟! أكاد لا أصدق.

أجابته قائلة: حينما حدث ذلك كنت في الخامسة عشرة.

- لقد كبرت بالفعل "فان"، أنا فخوراً بك، كيف هي أوضاع المدينة الآن؟؟

- لازالت تتعافى، خراب ثلاث عشرة سنة لا يمكن إصلاحه في أيام. لكن بإمكانك النزول إليها متى ما أردت الآن دون خوف أو قلق.

ابتسم "ليو" دون أن يعلق بينما كنتُ مشغولاً بخبز العجين، ناديت على "مارغريت" قائلاً: مارغريت ضعي الماء في الإبريق لإعداد الشاي.

وما إن جَهّزتْ الإبريق واقتربتْ من النار لوضعه، حتى نزعته من يديها، وقلت لاستفزازها: على الأطفال أن لا يقتربوا من النار كثيراً لهذا الحد.

استشاطت غضباً ونزعته مني قائلة: ألست أنت من أقر بأني امرأة في المدينة تلك الليلة؟ أم أنك نسيت؟؟!!

نزعته مجدداً، وانسكب بعض الماء منه، وقلت: من؟ ماذا؟ و متى؟

انتزعته من يدي مرة أخرى، وأجابت: حينما أحاطنا الجنود، هل نسيت؟

- تحلمين!! كنتِ غافية حينها على ظهري، هذا حلماً أكيد.

انتزع "ليو" الإبريق من يدها، ووضعه على النار بصمت، ثم جلس بجانب "فان"، فقالت معلقة: هذان، هل يفعلان ذلك دائماً؟؟!

أجابها قائلاً: من الصعب الاعتناء بطفلين حقاً، إنهما لا يصمتان أبداً. أشعر دوماً بالصداع بسببهما.

استدرتُ وأنا أقول- كالعادة ملقياً اللوم عليها-:هل رأيتِ لقد تمت السخرية منا من قِبَل "فان" أيضاً، بسبب طيشك كالعادة.

- طيش من منا؟ ستصيبني بالجنون!! أنت أكبر طفل قابلته، لولا هذين الساقين الطويلتين لظننتك طفلاً حقاً.

حينئذ ولأول مرة أرى فيها "فان" تضحك بملء فيها، وتقول معلقة: معلمي، لديك حقاً حلف من المجانين أحسدك عليه. أنهما صاخبين للغاية.

بعد ذلك تناولنا إفطارنا جميعاً، وشربنا الشاي، وحينما وقفت "فان" مغادرة، قالت موجهة حديثها لليو: في الحقيقة جئت إلى هنا لأعرض عليك العودة للعمل في القصر. الجميع يبلغك تحياته واحترامه.

هز رأسه نافياً وهو يقول: أشكركم على مشاعركم هذه وثقتكم. ولكن لا نية لدي بالعودة مطلقاً.

لوحت بيدها مغادرة وهي تقول: لن آخذ هذا وكأنه جواب منك، سأمنحك بعض الوقت للتفكير بالطبع.

أخذ يراقبها وزوالها يختفي شيئاً فشيئاً، وتمتم بكلمات لم أفهمها، لكن حوارهما ذلك جعلني أفكر بشيء ما، إن عاد "ليو" للقصر حقاً، فأين سأكون أنا؟

اتجهتُ مسرعاً نحو الكوخ، وأخرجتُ الساعة الزمنية، وأخذت أعبث بها، وأقلبها بين يدي، وأطرق على زجاجها بإصبعي.

- ماذا تفعل؟؟ ما هذا الشيء الذي في يدك؟؟

اقتربتْ "مارغريت" مني، والتقطتها من بين يدي، وأخذتَ تمعن النظر إليها، رمقتها باستياء وأنا أنزعها من يدها، وقلت: ألم يعلمك أحدهم قواعد الأدب؟!أهكذا تنتزعينها من يدي؟!

نظرت إلي متسائلة: فيمَ تستخدم هذه؟؟ إن شكلها جميل.

- أين الجميل فيها؟! إن شكلها عتيق للغاية، لدرجة أني بدأت أشك في إمكانية إصلاحها.

ببساطة أجابتْ: خذها لمحل إصلاح الخردوات.

- لا ينفع، هذه ليست شيئاً عادياً ليصلحها عامل يدوي. هذه تحتاج لعالم فيزياء على الأقل.

بدهشة تساءلت: ولـــــمَ ذلك؟!

ابتسمت قائلاً: هل ستصدقين إن قلتُ لكِ بأن عمري الآن ألف ومئة وأربعة وعشرون عاماً؟؟

بدا على ملامحها خليط من الدهشة والإنكار، فأطلقتُ ضحكة، وتابعت: من الصعب تصديق هذا. حتى أنا بداية لم أكن أصدق، ولكن "مارغريت" الحقيقة، أنا قادم من القرن الواحد والعشرين، وانتقلتُ عبر الزمن عن طريق هذه الساعة الزمنية إلى هنا.

لم تجب "مارغريت"، واستدارت بصمت، وخرجت من الكوخ، لحقتها وأوقفتها مستنكراً وقلت: لم تبدي أية إجابة؟ حتى أنك لم تهزئي بي كعادتك!! لن أطلب منك تصديقي، فهذا- حقاً- شيء لا يمكن تصديقه وغريب.

دفعت بيدي، وقالت بنبرة هادئة: هذا ليس غريباً- أعني انتقالك عبر الزمن- ولكن أنت الغريب.

لم تتحدث بعدها "مارغريت" معي، ولم تتشاجر معي طيلة اليوم، حتى جاء وقت العشاء واجتمعنا سويّاً حول النار، نظر إلي "ليو" متسائلاً: ماذا عن آلتك تلك؟؟

أخذت عوداً من السمك وأنا أجيب: لا شيء، كما هي.

- وما الذي تخطط لفعله الآن؟؟ لقد سمعت عن عالم يسكن في بلاد العرب، في بلدة يجري فيها نهران، أخبرني عنه العالم "لانسلوت" فقد قابله من قبل، وقال بأنه واسع العلم ربما يستطيع إفادتك.

بحماس سألت: هل أنت جاد في ذلك. هل أنت متأكد؟؟

- نعم، بإمكانك أن تسأل "لانسلوت"؛ لتأخذ منه تفاصيل أكثر، لابد وأنه قد تمت تبرئته وخرج من السجن.

وقفت هاتفاً بحماس: هذا رائع من ناحيتين. سأشاهد كيف أصبحت الدول العربية الآن، وسأصلح آلة الزمن، أظن بأنها ستكون مغامرة رائعة.

- لا تتحمس كثيراً "راد" فالأوضاع هناك ليست بأفضل من هنا.

- حقـــــاً؟؟

أومأ برأسه مجيباً بنعم.

عدت لأجلس مجدداً، وقلت: ومع هذا سأذهب، أنا هنا لا أستطيع فعل شيئاً سوى الانتظار، ما رأيك "ليو"؟؟

ابتسم وهو يقلب الحطب بعصاه، ثم نظر إليّ، وأجاب: أعتقد بأني لن أترك تلميذي الأحمق يسافر وحده، ستكون فرصة جيدة- أيضاً- لرؤية ثقافة مختلفة.

صفقت كفي بكفه بحماس وأنا أقول: رائع اتفقنا "ليو"، أكاد لا أصدق.

صمتُ فجأة إذ أشار لي بعينه ناحية "مارغريت" إذ كانت هادئة وعيناها سارحتان بالنار وتشوبهما نظرة حزن ويأس.

صمتُ للحظات انظر إليها متردداً، ثم قلت: "مارغريت"، سنمر على مملكة بيين أولاً. لتعودي لموطنك.

رفعت رأسها ناظرة إلي بصمت، ثم وقفت مغادرة وهي تقول: لا تقرر نيابة عني.

التفتُ لليو قائلاً: ما بالها؟!! إن مزاجها سيئ هذا اليوم.

باغتني "ليو" بالعصا فوق رأسي بسرعة، فتفاديتها وكاد شعري أن يحترق، فصرخت قائلاً: لا تمزح معي هكذا كدت تحرق شعري.

- كنتُ أريد فقط أن أضيء دماغك.

- وتضيئه بإشعال شعري!!

- هذا أفضل لأحمق مثلك. لقد تحدثت بكل برود، وقررتَ بشأنها الموضوع بكل أنانية، لقد سألتني اليوم عن حقيقة كونك قد انتقلت عبر الزمن بتلك الآلة- هي تصدقك- ولكن أعتقد بأنها تشعر بشيء من الولاء تجاهك، من الأنانية أن تقرر تركها بكل ذلك البرود بعد أن أنقذتها أنت. هل سألتها إن كانت تريد فعلاً العودة لبيين؟! ربما لن تجد أقارب لها هنالك، هلا فكرت قليلاً؟!

- ولكني أخبرتها سابقاً بأني سأعيدها لبـــ..
لم أكمل عبارتي حتى باغتني مجدداً ليو بالعصا، وتلافيتها، وقلت: "ليو"، كدت تحرقني فعلاً هذه المرة.

وقف وهو يقول: أطفئها قبل أن تنام، وكن مستعداً، سنتجه غداً إلى المدينة، سأطلب من "فان" أن تهيأ لنا خيولاً لرحلتنا، حان الوقت لأرد لك دينك.
ثم غادر باتجاه الكوخ.
في صباح اليوم التالي توجه ثلاثتنا نحو المدينة، كنتُ أشعر بغرابة ممزوجة بالسعادة وأنا أسير برفقة "ليو" داخل المدينة، وما إن أصبحنا وسطها حتى انفصل عنا "ليو"، متجهاً لمقابلة "فان".
وبقينا أنا و"مارغريت" سوياً.
كانت تتلفت بنظرها في كل الأشياء حولها، عداي!
قلتُ معلقاً: لقد تغيرت المدينة حقاً، أشعر بأنها قد أصبحت منتعشة عن ذي قبل، على الأقل لم تعد تلك النظرة البائسة تكتسي وجوههم، ألا تعتقدين ذلك؟؟
تجاهلتني تماماً، ولم تجب. التفتُ ناحيتها، وقلت بضجر: إلى متى ستظلين تتجاهلينني هكذا؟؟
تجاهلتني مجدداً، واتجهت نحو النافورة غير أبهة، تبعتها قائلاً: لا تتصرفي وكأنك لا تسمعينني! هل أنت صماء؟؟ هل أصبتِ بالصمم فجأة؟!
أشحت بوجهي وأنا أتمتم: لذلك أكره أن أتعامل مع الأطفال!!
رمقتني باستياء، ثم جلستْ على النافورة بصمت، فجلست بجانبها، وأرخيت برأسي مستنداً على ذراعي، ورحت أتمتم بضجر على مسمع منها:

- ما الذي فعلته لكِ لأعامل وكأني مجرم؟! على الأقل أخبريني لأعتذر.

أشاحت بوجهها، وأخيراً أجابت: أفضل أن أموت وأتعفن على أن أخبر أحمقاً كبيراً مثلك.

عدلت رأسي مبتسماً، ثم وقفت معتدلاً، وسحبتها من يدها ودفعتها للمشي فاعترضت قائلة: توقف، لمَ تسحبني فجأة هكذا؟؟

- تذكرت شيئاً ما؟؟

- ولمَ تجرني معك هكذا؟! سأنتظر سيد "ليو" هنا.

توقفتُ فجأة، والتفت ناحيتها مبتسماً، وقلتُ معلقاً: أنا حقاً لا أجيد التعامل معك، لا تقلقي لن نتأخر.

ثم سحبتها وسرنا سويّاً حتى وصلنا إلى سوق المدينة، ثم توقفنا عند أحد محلات الأثواب النسائية، فسألت هي: لماذا نقف هنا؟؟

- اعتقد بأني مدين لك بثوب غير ذاك الذي أفسدته لك ذلك اليوم وأنا أسحبك معي.

أفلتت يدها وهي تقول: لا تكن أحمقاً، لا أريد.

أمسكتُ بيدها مرة أخرى وقلت محاولاً استثارة غضبها: صحيح هذا المحل لا يناسب قياساتك. سنبحث عن محل للأطفال إذن.

أفلتت من يدي، واتجهت نحو المعروضات وهي تقول: لا تندم بعد ذلك، سأشتري أغلى شيء هنا.

ثم ندت من شفتيها بسمة جميلة، ووقفت متحيرة للحظات، ثم نظرت إلي، وقالت: أيهما أشتري؟؟

اقتربتُ منها متفحصاً المعروض، وقلت: الحقيقة أنا لا أملك أي ذوق في هذا، ذات مرة اشتريت لأختي فستاناً لم تلبسه إلا أمامي مرة واحدة، ثم وجدته ملقى عند حاوية جمع الملابس للتبرعات.

وجَمتْ للحظة، ثم علقت قائلة: أنت سيء ولا شك.

أشرتُ إلى فستان بلون الكرز الفاتح وقلت: ما رأيك بهذا؟؟

تناولته، وأخذت تنظر إليه وهي تقول: أنت حقاً تملك ذوقاً سيئاً، ولكن أعتقد بأنه راق لي مع هذا، سأشتريه.

أخذت "مارغريت" الفستان لتجربته، ووقفتُ خارجاً بانتظارها، وما هي إلا دقائق حتى خرجت ووقفت أمامي، كان الثوب طويلاً بلون الكرز بأكمام قصيرة، خيطت أطرافها بخيوط الكتان، وتتدلى منه أقمشة بيضاء خيطت بزمام؛ لتغطي بقية ذراعيها وتنزل حتى تصل لركبتيها، أما ياقته فكانت بفتحة دائرية طرزت بخيوط الكتان أيضاً، وفي منتصف خصرها وضعت حزاماً به عقود بقطع دائرية ذهبية، وطرزت أطرافه السفلية بذات النقوش النباتية.

اقتربت مني، وقالت: ما رأيك هل هو جميل؟؟

أشحت بوجهي للجهة الأخرى مخفياً وجهي المرتبك عنها، لوهلة أبهرني مظهرها؛ إذ بدت لي به وكأنها أميرة رومانية، خاصة وأنها قد عقدت مقدمة شعرها بضفائر وجعلت الباقي ينساب على كتفيها بنعومة، فقلت مجيباً: هذا أسوأ ما رأيته عليك على الإطلاق.

تقدمت أمامي قائلة: هو ذوقك بالنهاية، لا يـــــــهم.

- اخلعيه إذن، لا يناسبك مطلقاً.

- لن أفعل. لقد اقتنعت وسأسافر به.

- لا أملك نقوداً، إما أن تخلعيه أو تنتظري ليو ليدفع طبعاً.

كزت أسنانها بغيظ وقالت: لا يُعتمد عليك حقاً. هذا محرج!! لماذا لم تخبرني سابقاً؟

تقدمت أمامها قائلاً: لنسرع للنافورة.

ثم استدرت ناحيتها، وأتممت: لقد دفعت ثمنه قبلاً، كنتُ أمزح معك فقط.

وما إن اتجهنا عائدين حتى وجدنا "ليو" بانتظارنا ومعه حصانين، وقد ربط على السراج لوازم السفر، وما إن رأى "مارغريت" حتى قال معلقاً: تبدين جميلة جداً بهذا الثوب.

رمقتني بنظرة، ثم أجابت: أظن بأنه أسوأ ثوب لبسته في حياتي، إنه ذوقه.

رمقتها بذات النظرات وأنا أقول: فعلاً هو الأسوأ تبدين به كقطعة بطاطا حشرت بقماش.

- ماذا ؟؟!! هل تقصد بأني سمينة بذلك؟!

- وهل كنتِ تعتقدين غير هذا؟!

رفعت إحدى حاجبيها باستياء، واتجهت ناحية "ليو" وهي تقول: لهذا السبب سأركب مع السيد "ليو"، لن أتهور بركوبي مع خيال مبتدئ في النهاية.

اتجهت إلى الخيل الآخر؛ لأمتطيه وأنا أقول: وهل كنتِ تظنين بأني سأعرض عليك بأن تركبي معي؟! أنا أشفق على هذا الحصان.

رفعها "ليو" على خيله، ثم امتطاه وهو يقول: أتساءل إلى أي حد يمكنني حقاً تحملكما؟!

ثم انطلقنا خارجين من المدينة متجهين شمالاً نحو مملكة "ببين".

حينما أوشكت الشمس على المغيب قررنا التوقف؛ لترتاح الخيول، وننام هذه الليلة بالعراء.

بعد أن أشعلنا النار في الحطب الذي كان بحوزتنا، تمدد "ليو" متوسداً الأرض، وأغلق عينيه؛ ليغفو، أما أنا فتمددت على ظهري ناظراً للسماء. وبعد مضي بعض الوقت، تحدث "مارغريت" متسائلة: هل نمت راد؟؟

- كـــــلا، لم أنم بعد، ماذا؟

- أريد أن أخبرك بشيء. إلى أن تصلح الساعة الزمنية، وحتى ذلك الوقت. أريد أن أبقى برفقتكما...من فضلك؟

اتكأت معتدلاً قائلاً: ما الذي تتحدثين بشأنه الآن؟!

بدت مترددة للحظات وعينيها تنظران للأسفل وهي تجيب: قد أكون ولدت في "ببين"، ولكني لا أذكر أحداً فيها. لقد سُقت كأَمَة، وابتاعني الطبيب وأنا في الخامسة أو السادسة من عمري، إن ذاكرتي مشوشة، كما أنني..

صمتت للحظة، ثم رفعت إلي عينيها وهي تبتسم برقة وتابعت: قد أحببت... حلف المجانين هذا.

شعرت بخفقات قلبي تعلو فجأة، اتكأت على يدي ناظراً للسماء في صمت، كانت تزدحم في داخلي الكثير من المشاعر المتناقضة، لم أستطع البوح بها، لكني شعرت بشيء ينساب من عيني بهدوء كان أقوى من أن أكتمه، فقلت بتأثر: "مارغريت" أعتذر منكِ؛ لأنني قررت إبقائك في "ببين" بكل أنانية، الحقيقة حتى أنا أشعر بأني لا أريد أن أترك أبداً حلف المجانين هذا، ولكن وحتى أصل لبغيتي والتقي بذلك العالم، سأقرر حينها متى سأعود لعصري، لذا....

صمتُ للحظة قبل أن أتم: بإمكانك أن تبقي معنا إن كانت هذه هي رغبتك.

ثم نظرتُ إليها مبتسماً، وتابعت: بالمناسبة سأكون صادقاً هذه المرة، ثوبك جميل جداً، وهذا اللون يليق بك كثيراً.

شخصت عيناها بذهول وأدارت بظهرها للجهة الأخرى دون أن تعلق بشيء، كنتُ قادراً على سماع صوت بكائها المكتوم، ومع هذا لم أستطع أن أتحدث بأي شيء وآثرت الصمت، محاولاً إغماض عيني.

لكن فجأة حدث ما لم أكن أتوقعه، حيث انتشرت أضواء ساطعة تنبعث من جيبي.

وقفت معتدلاً، أخرجت الساعة الزمنية، وبدأت الأضواء تنتشر بشكل أكبر أمامي، وبدأت أشعر بأن "مارغريت" الواقفة و"ليو" الممد نائماً يتلاشيان من ناظري خلال هذه الأضواء، وفجأة شعرت بيد تشبثت بيدي اليمنى، فإذ هي "مارغريت" بوجه مخطوف الملامح وعينان دامعتان، ثم شعرت بيد أخرى تشبثت بيدي اليسرى، كان "ليو".

حاولت أن أتمسك بهما لكن الأضواء كانت قد تداخلت أكثر فأكثر حتى لم أعد أراهما وأشعر بيديهما.

لقد انتقلت بالزمن مرة أخرى.

الفصل التاسع عشر: العالق في الزمن.

البشر يخطئون ويدركون بأنهم يتعلمون بذلك، لكن سرعان ما تمحو ذاكرة العدم ما يتعلموه قاذفة به نحو جدارٍ من النسيان.

ارتشف من كوب القهوة الذي أمامه، ثم زفر بألم وهو يقول:

- البقية تعرفها أنت، فعكس ما توقعت لم أعد لمتحف "برن"، ووجدت نفسي هاهنا وسط المدينة، رحتُ أبحث عن منزل والدي؛ لأفاجئ الآن بأنه قد مضى أكثر من ثلاثون عاماً على اختفائي وسفري عبر الزمن! حسناً، ليس مهماً أن تصدق، ولكني أشعر ببؤس الآن، فأنا بلا هوية هنا، وأصغر من عمري بكثير، لن استطيع أن أعيش وأن أعمل. ما إن تكتشف أمري الشرطة سيزج بي في السجن، هذه مأساة حقاً!

ثم أخرج من جيبه ساعة الزمن ووضعها أمام "عمّار" قائلاً: حقاً!! لماذا لم تعد بي إلى حيث كنت هذه الآلة العتيقة؟!!

نظر إلى عمّار الذي كان ينظر ناحية الآلة متأملاً بصمت، وعلق قائلاً: أعرف بأنك لن تستطيع تصديقي.

نظر إليه "عمّار" بعينين جادتين، وقال: أكره أن أقر بذلك، ولكنك حقاً تشبه والدتي، لهذا السبب أعطيتك هذه الملابس خاصتي، وأحضرتك هنا لتأكل وتشرب. لو علم والدي بهذا، لزج بي وبك في السجن حتماً.

- ألهذه الدرجة هو صارم؟!

أخرج هاتفه النقال من جيبه يتفحص الرسائل، ثم قال: أكثر مما تتوقعه.

ثم رفع رأسه ناظراً إليه، وقال: اسمع، لقد اتصلت بأحمد ابن صديقك "زين" وأخبرته بأن يحضر هاتف والده النقال القديم، لقد أخبرني ذات مرة بأنه يحوي صوراً لك أعني لخالي.

ضرب على الطاولة بحماس، وقال: حقاً، هل أنت واثق من هذا؟؟ بالحديث عن الصور الآن تذكرت، لقد التقطنا صورة "سيلفي" أمام مستحثه لإنسان "النياندرتال"، وجعلنا أحد الزوار يلتقط لنا صورة أمام الغرفة الخاصة بأعمال "أينشتاين".

قال بعد أن ارتشف من قهوته ووضعها جانباً: إن صدق كلامك، فإني سأجعلك تقابل أمي، لتثبت ذلك.

وما هي إلا دقائق حتى وصل "أحمد"، حينئذ وقف "رائد" بدهشة ناظراً إليه، وبدأت عيناه تذرفان الدموع، فقد كان "أحمد" شبيهاً جداً "بزين" لكن حتى الآخر لم تكن دهشته أقل وهو يشير إلى "رائد"، ويقول لعمّار: من يكون هذا يا عمّار، إنه يشبه.. يشبه..

وقف "عمّار" قائلاً: أعطني الهاتف أولاً.

أخرجه من جيبه قائلاً: ها هو ذا.

هتف حينها "رائد" ببهجة: إنه هو ذا نفسه! هاتف زين..

جلسا بجانب بعضيهما، قلّبا سويّاً في ملفات الصور ثم حدقا في ذلك الجالس أمامهما، وعلق أحمد قائلاً: مهلاً.. ما الذي أراه عمّار، هذا الرجل يشبه الذي كان مع والدي، لا أنه نسخه طبق

الأصل!! لا يمكن لشخصين أن يتشابها لهذا الحد ! هل هو ابنه؟؟ هل هو ابن خالك؟؟ مهلاً ألم يختف خالك وهو في الرابعة والعشرين؟ ألم يمت؟!!

صمت "عمّار" دون أن يجيب، ألقى بنظرة على ذات الصورة التي حدثه عنها "رائد" قبل قليل، ثم وضع الهاتف أمامه قائلاً: تماماً مثلما قلت، أنت وهو متطابقان في كل شيء.

- بل إنني هو نفسه.

وقف "عمّار" وبجدية، قال: سأفي بوعدي إذن، وسأجعل والدتي تقابلك، ولكن ليكن في علمك بأننا لم نسمح لأي واحد من المحتالين الذين ادعوا ذلك من قبل.

- أنا لا أريد شيئاً، أريد أن أرى شقيقتي وحسب.

- والدي في العمل الآن، لذا من الأفضل أن نسرع.

أوقفهما "أحمد" قائلاً: مهلاً، أريد أن أفهم يا "عمّار"، كيف يكون هذا خالك؟؟ إن عمره قريب من عمرنا؟؟؟

- هي قصة طويلة، سأفهمك إياها لاحقاً، إن كان والدك يحتفظ بشيء لرائد أرجوك أن تحضره.

ثم صعد "رائد" سيارة "عمّار" متجهين نحو بيته، فعلق رائد قائلاً: يبدو بأنني قد اعتدت على الخيول أكثر.

رمقه بنظرة قائلاً: ومع أن قصتك غريبة كل الغرابة إلا أنني لا أستطيع أن أنكر أن بها شيئاً من الصحة.

وما إن وصلا ودخل "رائد" غرفة الضيوف، حتى غادر "عمّار" لإخبار والدته.

ولكن ما لم يتوقعانه أبداً بأن والد "عمّار" قد شاهدهما وهما يدخلان البيت، فأبلغ الشرطة لتعتقل "رائد".

وبدلاً من أن يقابل "رائد" شقيقته، أُلقي القبض عليه، وأدخل إلى السجن للتحقيق معه.

على رف من ورق:

نزل "أحمد" سريعاً من سيارته؛ ليقابل "عمّار" أمام مخفر الشرطة، وبحوزته ورقة لمشروع قديم لرائد ووالده، كانا قد كتباه سويّاً للجامعة وعليه بصمتيهما.

تناوله "عمّار" قائلاً: أحسنت صنعاً، لم أتوقع بأن تجد شيئاً مهماً كهذا، الآن سنعرف إن كان صادقاً أم كاذباً، بتطابق البصمات لكن دعنا ندخل؛ لنرى ردة فعله أولاً.

- لنفعل، ولكن، هل أنت تصدقه "عمّار"؟؟

- الحقيقة، لقد ملت لتصديقه، على العموم سنعرف كل شيء الآن.

ما إن دخلا وطلبا زيارته، واتجها برفقة الشرطي إلى سجنه.

حتى فوجئ الجميع بأن الزنزانة كانت خالية، ولم يكن بها ذلك السجين غير المعروف والذي تم استجوابه وعودته لهذه الزنزانة قبل دقائق معدودة فقط.

*****

لا أحد يعلم إن كانت رغبة "رائد" قد دفعت بساعة الزمن لنقله مرة أخرى لعام (٣١٠٠م)، أو أنه قد عاد من حيث كانت البداية لمتحف "برن" في سويسرا، أم أنه انتقل لفترة زمنية أخرى؟!!

لكن كانت هنالك قصاصة ورق، مركونة بإحدى الزوايا كُتب فيها:

نحن لا يمكننا تغير التاريخ، لكن يمكننا تغير أنفسنا وصنع تاريخ أفضل.

المغامرة الثانية .. امرأة .

{ قَالَ مَعَاذَ اللَّه}

سورة يوسف (٢٣)

إلى الغارقين بحثاً عن كَنه الإنسان.

عن الشعور الذي يقيمه كإنسان.

هل كان الإنسان يوماً سوى موقفٍ وذكرى وتاريخٍ؟!

الفصل الأول: المسافر مجدداً.

نحن نبتسم، لأننا نشعر بأننا نريد ذلك.

نحن نبكي، لأننا نشعر بأننا نحتاج لذلك.

نحن نستمر، لأننا نشعر بأنه من الواجب علينا المُضيُّ.

نحن نقف، لأننا نشعر بأنه علينا أن نقف.

نحن نقيم الأشياء أخيراً وَفقَ ما نشعر به، وهذا ما يعنيه ضرورة أن نكون مختلفين.

كانت الرمال من تحته كمَا لو أنها تتحرك، ومع انعكاس ظله الذي بدَا وكأنه ثابت، أدرك بأنه محمول على جَمَل، وما إنْ حرك جسده محاولاً النهوض حتى أحس بأن يديه مقيدتان للخلف بحِبال متينة، حاول أن يحرك رأسه عبثاً، لكن كان أقصى ما تصل إليه عيناه، هو رأس الجمل المربوط عليه!

فصرخ حينها بأعلى صوته، مستغيثاً: ليفكّ أحد وَثاقي، ما الذي يحدث هنا؟

كررها مراراً دون أن يجيبه أحدٌ، لكنه أخيراً أبصر ظل رجل يقترب منه.

وما إنْ رفع رأسه حتى وجد أمامه رجلاً قمحيَّ اللون، ذا حاجبين عريضين، وشاربٍ عريض، عيناه شديدتا السواد والاتساع، يرتدي ثوباً طويلاً يغطي كامل جسده، يتوسطه حزام عريض من قماش، وعلى رأسه تتربع عِمامةٌ تنسدل على أكتافه.

تحدث إليه بصوت جهوري وهو يرفع إحدى حاجبيه، متعجباً: أخيراً استيقظت؟! ظننتك لست ذا فائدة، وكنتُ سأرمي بك في الصحراء.

حرّك "رائد" كتفيه محاولاً تخليص نفسه من الوثاق، وقال متسائلاً: ولمَ أنا مقيد هكذا؟ أنا أشعر بالإعياء والعطش.

استدار ذلك الرجل دون اكتراث، وقال: هل تسأل حقاًّ؟! هل أنت أحمق لهذا الحد؟ يبدو أنك فعلاً غير ذي نفع، هل لذلك تم التخلص منك؟! من أي بلد أنت قادم؟

فتح إحدى عينيه بإعياء واضح، وسأل: لماذا؟ أين وجدتني؟

- كنتَ ملقى وسط الصحراء، قررتُ مساعدتك فقط، لأنني بحاجة للمال.

شعر "رائد" بالدوار فجأة، خاصة وأن أشعة الشمس الحارقة والتي كانت تخترق رأسه كإبر حادة، جعلته ينكّس رأسه على ظهر الجَمل بيأس بعد أن أدرك وضعه جيداً، فعلى ما يبدو أن ذلك الرجل لم يقيده إلا ولديه نيةُ بيعِه.

فسأله بيأس: وإلى أين تنوي حَمْلي وبيعي أيها الرجل؟

- إلى المدينة المدورة "بغداد" نحن في طريقنا إليها، وقد أوشكنا على الوصول.

مدينة مدورة!!

بذِكْر ذلك، كنتُ أنوي الذهاب إليها مع "ليونهارد" و"مارغريت"، لإصلاح الساعة الزمنية.

عند تلك الفكرة، صرخ بهلع، وكأنه قد تذكر شيئاً للتو: مهلاً أيها الرجل؟

توقف، وقد هَمَّ بركوب جَمَله.

فأردف متسائلاً: أكان بجانبي شيئاً؟ هل كنتُ أحمل بيدي شيئاً؟!

صعد جمله متجاهلاً إياه دون أن يجيب، فحاول "رائد" أن يمدّ يديه بيأس علها تصل لجيب بنطاله الجينز الأزرق، وما إن استشعر أنّ جيبه منتفخٌ، حتى شعر براحة ملئت قلبه، أطلق معها زفرة مطمئناً ثم عاد ليصرخ بأعلى صوته متذمراً بعد أن بدأ جمله بالسير.

- أيها الرجل، أنا عطشان والشمس تضرب رأسي!! أريد ماء، وإلا فسأصبح بضاعة كاسدة قبل أن تصل بغدادَ.

علّق بغضب: أنت من الأصل بضاعة كاسدة، وإلا فإنك تبدو معدماً من كل شيء، عدا وَسامتِك.

ثم ترجّل من جَمَلِهِ وبيده قربة من جِلد يحفظ بها الماء، اقترب منه، ففتح "رائد" فمه ليسقيه، لكن الآخر رشق على رأسه الماء.

علق "رائد" ببسمة ساخرة بدت على وجهه، والماء يتصبّب من على رأسه: أنت تسرف بالماء أيها الرجل رغم أننا بالصحراء.

شدّه من مُقدمة شعره بفظاظة، وقال: أنت تحت رحمتي وتصرفي، وقد ضِقت بك ذَرعاً. نادِني سيدي من الآن.

بالكاد كان "رائد" يستطيع فتح عينيه، وعلق ساخراً: ولماذا أفعل ذلك؟! فقط لأنك ربطتني بالقيود؟!

حينها أخرج الرجل خِنجراً من حزامه سقطت عليه أشعة الشمس، فالتمع، وقرّبه من خَدّ "رائد" مهدداً: لأنني أيضاً أستطيع أن أجزّ به عنقك الآن.

ابتسم "رائد" مرتبكاً، وعلق قائلاً: يا رجل، ليس عليك أن تلوّح بشيء حاد كهذا على وجهي.

شدّ شعره بقوة أكبر، وسأل: يا فتى، هل أنت إفرنجي تجيد العربية؟ مَن الذي علمك سلاطة اللسان؟!

بتوجع أجابه وهو يحاول فتح عينيه: وهل أبدو لك كذلك! أنا عربي أباً عن جَد.

- ولمَ لباسُك ضيق هكذا؟ من أين أتيت؟

أجاب "رائد" بسخرية: لقد كنتُ على عَجَلة من أمري، وارتديت ملابس أخي الصغير دون أن أدرك.

- ومن أي بلد قدِمتَ؟ أليس هذا ما يلبسه الإفرنج؟

فكر "رائد" للحظة قبل أن يجيبه بقوله: سيدي، ألن تعطيني القليل من الماء، فأنا أشعر بالظمأ فعلاً؟

على مَضض قرّب القربة ووضع وِكاءها في فمه، وسقاه القليل، شعر "رائد" بالروح تدبّ في جسده، لكن الآخر سرعان ما حاصره بذات السؤال: سألتك من أي بلد قدمت، فأجبني؟

تردد قليلاً قبل أن يجيبه كذباً: من الشام.

اختزلت نظراته احتقار واضح، استدار عائداً لجمله، وترجم احتقاره بقوله: وهل أخرجتك المجاعة والفقر؟!

حاول "رائد" مجدداً فكّ قيده دون جدوى، وشعر باليأس يتملكه، وهذا الجمل قد عاود السير.

ما الذي قصده هذا الرجل الغليظ؟ وبأي فترة زمنية نقلتني تلك الساعة اللعينة؟ إنها تعبث معي ولا شك، كم أتمنى أن تنقلني الآن إلى "أينشتاين" لأتفاهم معه.

رفع رأسه مجدداً، وصرخ بصوت عالٍ متسائلاً: سيدي، في أي عام نحن؟

أجابه ساخراً: وهل هذا سؤال يسأله عاقل؟! هل نمتَ واستيقظت فجأة لتسأل في أي عام أنت؟! أنت في عام ٣١٠٥ بعد الميلاد، وهل لك أن تصمت، فقد سئمت ثرثرتك.

لم يستطع "رائد" أن يخفي دهشته، التي سرعان ما امتزجت ببهجة ارتسمت على وجهه..

إذن، قد عدت للمستقبل مجدداً، ولكني تقدمت خمسة أعوام بعد تلك النقطة التي غادرت منها، إني أتساءل الآن: ما الذي حل بـ"ليو" و "مارغريت"؟ هل أكملا رحلتيهما؟!

رفع رأسه وعاد ليصرخ بأعلى صوته متسائلاً: سيدي، هل تعرف عالِماً في بغداد يدعى "الطوسي"؟!

استدار ناحيته، وأجاب: ولمَ تسأل عن "الطوسي"؟!

- لقد ارتحلتُ للقائه.
- غريب، تريد أن تقنعني بأنك ارتحلت من الشام طلباً للعلم؟!

صمتَ لوهلة، ثم أتم: لقد وردتني أخبار أنه قد تُوفي قبل أشهر.

- ماذا؟ مـــــــــــــات؟!

أرخى رأسه بيأس على الجمل وتنهد بانزعاج.

لمَ يَمُت كلُّ مَن أريد مقابلته؟ أنا حقاً أريد كسر هذه الساعة الآن.

بعدها صمت "رائد" ولم يتحدث قط، وفي خياله تتكرر ذكريات ذلك اليوم والرحلة الأخيرة التي سافر بها مع "ليو" و"مارغريت" وكيف انتهت بانتقاله مجدداً عبر الزمن بشكل مفاجئ.

مضت ساعات والجملان يواصلان التقدم، حتى بدت أسوار بغداد العالية تظهر من بعيد.

الفصل الثاني: المدينة المدورة

أي جَمال يفتتنا بدايةً، سيؤلف مع الزمن ويخبو بريقه ليبقى باهتاً، كَمَا وكأنه لم يكن.

كان أول ما شد انتباه "رائد" هي تلك البوابات الضخمة، التي حصّنت بغداد، وتلك الأسوار العالية، والتي كانت أيضاً مجهزة بأسلحة ونوافذ عديدة للمراقبة وإطلاق الأسلحة.

وما إن فُتِحت البوابات أمامه حتى نسي تماماً بأنه يسير مقيداً من دهشة ما يرى.

وكأنه يرى صورة حقيقية لِمَا كان يقرأ عنه عن مدينة المنصور العباسية.

هاهي المدينة المدورة تقف أمامه بحدائقها المنتشرة وطُرقها الممهدة، التي زُينت بالأشجار من كل مكان، والنوافير التي تُزين كل شوارعها، وتلك الجوامع الكثيرة ذات المنارات الغريبة، التي زينت جدرانها بالفسيفساء.

شعر وكأنه يقف داخل جنات.

وحركة الناس التي تدبّ في كل ركن فيها بكل نشاط وحيوية.

فهذا يبيع الملابس وآخر يبيع الخضر وآخر يبيع السمك وآخر يبيع اللحم.

والنساء من حوله يرتدين الثياب الطويلة، ويغطين رؤوسهن بخمار يغطي شعورهن، وبعضهن تُغطي كامل وجهها.

لقد بدت بغداد هذه عام ٣١٠٥ تَفُوق كثيراً ما شاهده في "دمودري" الأوربية.

كما أنها تغاير بوضوح بغداد القرن الواحد والعشرين، التي مَلأت صورها ذاكرته، والتي لم تكن تحوي سوى الدمار والدماء المتناثرة في كل صوب منها وضياعها بين حدين من الحروب.

توقف عند أحد المحلات التي تعرض الملابس، حيث لفت انتباهه ثوب لونه كرزي بأكمام بيضاء، يشبه تماماً ثوب "مارغريت" الأخير الذي اشتراه لها.

لكنه سرعان ما جُرّ من قيوده حتى كاد أن يسقط، وما إن تمالك نفسه حتى جاء صوت سيده الفظّ، قائلاً: أتظن أني أحضرتك هنا لتتنزه؟ سِرْ في طريقك، ولا تضطرني لسحبك كما الكلاب.

أجاب "رائد" بلكنة هازئة: وهل أبدو غير ذلك وأنا أسير مقيداً تسحبني بحبل؟!

ما كان من الرجل إلا أن جره بقوة أكبر، فأسرع "رائد" بخطواته، لكنه تعثّر وسقط على الأرض.

وظل ذلك يسحبه دون أن يهبه فرصة للوقوف على قدميه..

فعلّق أحد المارّة قائلاً: يا عبد الله، ارحم هذا الفتى.

أجابه بغلظة: وما شأنك أنت؟!

التفت "رائد" ناحيته، ونظر إليه.

كان رجلاً يرتدي هو الآخر ثوباً أبيضَا، وبوسطه ربَط حزاماً من قماش، وفوقه يرتدي عباءة بنية اللون، لكن وجهه بَدَا أكثر لطفاً من سيده، كان قمحيَّ اللونِ، وعيناه بُنيتان وشاربه خفيف، ولحيتُه مُسبلة..

ابتسم لـ"رائد" ثم عبَر من أمامهما دون أن يجادل ذلك الرجل، ولكنه كان قد منح "رائد" فرصة ليقف.

وأخيراً، تمكّن من الوقوف على قدميه، وسَاقَه ذلك الرجلُ إلى سوقِ بيعِ العبيد.

وقف "رائد" ليرى نفسه في ذات الموقف الذي كرِهه سابقاً في "دومدري" حينما رأى منصة لبيع الناس وها هو يقف اليوم مثلهم مجرداً من حريته، يُساوِمُ في سعره المشترون الذين التفوا حوله.

وبعد طول انتظار، وجد نفسه وقد غادر ذلك الرجل الغليظ إلى ذات الرجل الذي حاول إيقافه حينما كان يجرّه، فكان أول ما قام به، هو حل وثاقه ثم أمره بأن يتبعه لداره.

كان "رائد" طوال الطريق يتلفت ببصره متفحصاً الأمكنة، وهو يضغط على مِعصميه من أثر القيد.

وما إن وقف أمام الدار الذي حدّثه عنها سيده الجديد حتى فغر فاهه بدهشة، فهو لم يكن أبداً داراً، بل كان قصراً كبيراً، محصّناً هو الآخر بأسوار عالية!

كان هذا القصر يسمى بدار أبو العلالي، وهو ليس باسم أحد أولاده، ولكن جرت العادة هنا، مناداة الوجهاء بأسماء عائلتهم لتمجيدها.

كان الدار مقسّماً إلى أجزاء، ففي أول الدار توجد دار عبارة عن مدرسة لتدريس أبناء هذه القبيلة.

وفي ناحية أخرى منه، توجد دار لصناعة الأسلحة، خاصة الأسهم، فعائلة العلالي كانت لمائة عام تحمل فخر صناعة السهام، التي ساعدت كثيراً في حروب المسلمين.

وأيضاً هنالك دار لتعليم المبارزة بالسيف وأخرى للرماية.

وفي وسط تلك الأسوار، يقع قصر سيده فاضل العلالي، وخلف القصر هنالك دار كبيرة خاصة بسكن العبيد، وأخرى خاصة بسكن الإماء.

كان "رائد" يسير بصمت مع سيده حتى وصل إلى دار العبيد، فأشار إليها قائلاً: هذه دار العبيد يا فتى، ستسكن هنا، وستعمل هنا في صنع السلاح، فأحسِنْ يحُسَن إليك.

صمَت "رائد" دون أي تعليق، وهو يراقبه يستدير مغادراً من أمامه.

تلفّت من حوله بحيره، وحينئذ وصل لمسمعه صوت رجل يتوجّع بألم، فساقته قدماه إلى حيث الصوت.

وإذ به يبصر رجلاً مقيداً إلى شجرة، وآخرَ يقف خلفه يجلده بالسوط.

للحظة تصلبت ساقيه لكنه سُرعان ما اندفع كعادته دون تفكير، ووجد نفسه يقف أمامهما مستنكراً بقوله: ما الذي تفعله؟ هل ارتكب جُرماً ليُضرَب هكذا؟!

فوجئ الآخر بهذا الرجل الغريب الذي يقف أمامه، ثم وكأنه قد اختزل كل معاني الاحتقار في حاجبيه المرتفعين، وهو يسأل بتعالٍ: ومَن تكون أنت؟

ثم ألقى عليه بنظرة متفحصة، شعر "رائد" حيالها بالارتباك ولم يجبه.

فجاء صوتٌ مِن خلفه مجيباً: إنه العبد الجديد الذي اشتراه والدك على ما يبدو.

التفت خلفه ناحيةَ الصوت، لقد كانت المتحدثة امرأة بدت له شابة في العشرينيات من عمرها، ترتدي ثوباً أحمراً داكناً، بدا من نوع فاخر يغطي كل جسدها، وتزين نَحرها بحُلي من أحجار الياقوت الأحمر، ويتدلى من أذنيها قِرطان من حجر الياقوت أيضاً. وعلى غرار النساء اللائي شاهدهن في المدينة لم تكن تغطي شعرها، كان وجهها مستديراً، وبشرتها بيضاء، لديها عينان واسعتان ، بُنية البؤبؤ، وحاجباها رفيعان، وشفاهها صغيرة، ومكتنزة، وأنفها صغير، وشعرها شديد السواد، حريري، لم ترفع إلا جزءاً بسيطاً منه، وتركت الباقي ينساب

لأسفل ظهرها بغرور، وجسدها نحيل، إذ ابتسمت برزت من بين ثَغرها أسنانٌ بيضاءُ صغيرة، مظهرةً غمازتين في وجنتيها، فتزداد ابتسامتها جمالاً على جمالها، كان جمالُها طاغياً، فاتناً، وملفتاً للنظر للحدّ الذي لم يتمكن "رائد" معه من إزاحة ناظريه عنها للحظات، ولم يكن يعرف بأنه يقف أمام سيدته، التي كانت تلقّب بـ"أجمل نساء بغداد"!

وفي غفلة من "رائد" تقدم ذلك الرجل وصفعه على وجهه، ونهره قائلاً: أتجرؤ على إيقاف سيدك واعتراضه، والنظر هكذا لسيدتك؟

ثم جذبه من قميصه، وهو يعنّفه قائلا: ثم ما هذه الثياب التي ترتديها؟! ووجهك الأمرد هذا يثير اشمئزازي، هل أنت إفرنجي؟

أمسك "رائد" بمعصمه محاولاً إبعاده. فاستشاط الآخر غضباً، ودفعه بكل قوته.

فعاد ليسقط أرضاً ثم اندفع، وانهال عليه يضربه بقدميه، أمسك "رائد" قدمه اليسرى فتعثر وسقط، فانهال عليه "رائد" بقبضته ليضربه، حينها تقدمت تلك المرأة وأوقفته ممسكة بذراعه، وعلامات الاستنكار بادية على وجهها، فأشاح "رائد" بوجهه عنها وهو يسحب ذراعه من بين يديها، ويقول: لقد أهانني، فهل أصمت؟!

حينها وقف ذلك الشاب مجدداً، وباغت "رائد" بضربة على وجهه، فأوقفته المرأة بقولها: يكفي هذا "باتر". إنه رجل من ديار بعيدة، وهو لم يكن يعرف أنك سيده أيضاً.

اعترض "باتر" قائلاً: "بيلسان" أنا لم أتعرّض لهذه الإهانة من قبلُ. عَبْدٌ يمدّ يديه عليَّ! دعيني أجلده وأروّضه.

بعينين جامدتين ردت: أمــــــــاه.. أماه، أنت تتجاوز حدودك.

اتسعت حدقتا عيني "رائد" بدهشة مما سمعه للتو، فلم يكد ليصدق بأن تلك المرأة هي والدة هذا الشاب!! فهي تبدو مقاربة لعمره!

ثم تابعت بلهجة جادة، وآمرة بنفس الوقت: "باتر" كن متعقلاً.. واترك هذا العبد أيضاً.

ثم التفتت ناحية "رائد"، وقالت: وأنت أيها العبد، فكّ وَثاق هذا المقيّد، وخذ لك ثياباً من الدار، وتناول طعامك، يبدو الإعياء على وجهك.

وقف "رائد" على قدميه، وأخذ يمسح الدماء التي نزفت من أنفه بكفه، وفي عينيه تشتعل نظرات غضب ممزوجة بكبرياء، تلك القوة التي ارتسمت فجأة في عينيه الناعستين، لفتت انتباهها فاتجهت ناحيته، وسألت: ما اسمك ؟

أشاح بوجهه عنها وهو يجيب: "رائــــــــد".

- ومن أين أتيت؟

- من الشام.
- ولمَ؟ هل صحيح أن هنالك مجاعة؟

نظر إليها بوجوم ودون مبالاة ثم أرخى رأسه بصمت دون أن يجيبها.

فنهره "باتر" بقوله: عليك أن تجيب سيدتك، وإلا فسأعلمك كيف تجيب.

لكنها نهرته هو الآخر بقولها: "باتر"، أخبرتك بأن تتعقل، أنت مندفع دائماً.

صمت وبَدَا الانزعاج عليه واضحاً وهو يرمق "رائد" بنظرات متوعدة قبل أن يستدير مغادراً بينما اتجه "رائد" نحو ذلك المقيد على الشجرة، وحل وثاقه، فسقط الرجل جاثياً على ركبتيه بوهن، فأسنده "رائد" بذراعه، متسائلاً: هل أنت بخير؟

أومأ برأسه نعم، وقال: ولكني أشعر بظمأ شديد.

أسنده "رائد" على كتفه وكانت سيدته لا تزال واقفة تراقبه، أما هو فلم يلتفت إليها أو ينظر ناحيتها.

واتجه وهو يسند الرجل نحو الدار، فأتاه صوتها، قائلاً: اسأل عن "عروب" لتعتني به وأخبرها بأن تعطيك ثياباً جديدة.

الفصل الثالث: السجن الكبير

الإحساس الذي يُوقِظ داخلك شعوراً بأنك محاصر داخل سجن كبير يقيدك، بينما خلت يداك وقدماك من كل قيد، ذلك إحساس لا يمكن أن ينبض إلا في قلب (يقظ).

مضى على رائد عدة أيام، في هذه الدار التي سيق إليها كعبد، تراوده فكرة الهرب في الثانية ألف مرة.

كان يعمل خلالها طيلة النهار في صناعة السهام والرماح، وأصيب أكثر من مرة بنصالها الحادة عند نقلها دون حذر ثم ما إنْ يأتي الليل، حتى يقذفُ بجسده المنهك يلتحف الأرض الباردة.

وفي صبيحة أحد الأيام، وبينما كان "رائد" ينقل مجموعة من السهام، جُرحت يده، فشَعُر بتوجع فأوقعها على الأرض، فصرخ (الصنّاعي) في وجهه: أيها الطائش، للمرة الألف أقول لك: احمِلْها بحذر.

اعتذر "رائد" وهو يضغط على كفه المصاب، وانحنى معاوداً التقاطها.

(والصنّاعي) - أو صاحب الصنعه - هو لقب يُطلق على مَن يكون من العبيد، ولكنه رئيسهم في عمل صناعة ما، وبسبب مركزه في رئاسة صناعة السهام، فهو يملك حرية أكثرُ من غيره، كما أنه يستطيع الخروج من الديار متى أراد، وقضاء بعض حوائجه، بعكس بقية العبيد .

في تلك الأثناء، كانت السيدة الشابة التي كانت تُدعى "بيلسان" قد وقفت تشاهد الموقف.

فاقتربت من "رائد" الذي كان منحنياً يجمع السهام، وانحنت هي الأخرى لتلتقط السهام!

استنكر (الصنّاعي) فعلتها، واندفع ناحيتها لإيقافها، قائلاً: سيدتي ما الذي تفعلينه؟

وما إن أبصر "رائد" طرف فستانها، حتى رفع رأسه ليجدها تقف أمامه، وعلى شفتيها بسمة واسعة تُظهِرُ أسنانها الصغيرة البيضاء.

أشاح بوجهه وعلامات الارتباك والحرج تظهر عليه.

وضعت في يده السهم الذي التقطته، وقالت معلقة: "أصهب"، تلطف معه، فهو لا يزال جديداً على هذا العمل.

خفض رأسه معتذراً، وهو يقول: آسف سيدتي.

بينما كان "رائد" ينقل السهام دون اكتراثٍ ليده الأخرى، لحظتها مدت السيدةُ كفَّها وأمسكت بكفه المجروح، وضَغطت على جُرحه لتعاينه على دهشة منه ممزوجةٍ باستحياءٍ لون خديه بالأحمرِ، ثم قالت معلقة: اذهب لـ"عروب" دعها تربطها لك، إن جرحك ينزف، ثم تابع العمل.

سحب كفه، وبعينين تهربان أجابها: سيتوقف الآن، هو مجرد خدش بسيط لا يستحق.

- هل حملتَ سهاماً من قبلُ؟! أنتَ تحملها دون اكتراث!!
أجابها وهو يدير بوجهه عنها: أنا لم أرمِ سهماً من قبلُ، لا خبرة لديّ سوى في المبارزة بالسيف.

التفتت إلى "أصهب" وهي تشير لأحد الأقواس المرصوصة، التي كانت مركّبة * وقالت: أعطني هذا القوسَ.
ناولها إياه سريعاً، فأعطته "رائد"، وقالت: أرِنِي كيف ستستخدمه الآن؟
باستنكار بَدَا واضحاً في وجهه ردّ عليها: أخبرتكِ للتو بأني لم أرمِ سهماً من قبل!
نهره "أصهب" بقوله: تحدث مع السيدة باحترام يا فتى.
علقت قائلة: لا بأس، دعه يتحدث كيفما يريد.
ثم التفتت إلى "رائد" وقالت: ينبغي عليك أن تتعلم الرماية، كل من هنا يجيدون الرماية.
تأمل "رائد" القوس للحظات، ثم وَقَف متأهباً، فشدّ على وتره برفق، ثم وضع السهم وحاول سحبه بالوتر.
تقدمتْ ناحيته وهي تعلّق ساخرة: أنت تجهل حتى أن تقف جيداً، أيُعقَل! رجل قدم من الشام لا يستطيع سحب وتر قوس كهذا؟!
اقتربت منه كثيراً حتى وقفت خلفه مباشرة، وأمسكت بالسهم والوتر بذراعها لدرجة شعر معها بقرب جسدها منه، ثم سحبت الوتر وهي ترفع السهم عالياً، ثم أطلقته للريح.

١*الأقواس المركبة كانت من بين أجود أنواع الأقواس الأسيوية، وكانت تصنع من الخشب كقلب ومقدمة القوس من القرون وظهر القوس كان يشد بعصب الحيوانات كوتر عرقوب الخيل ويغلف بجلد الحيوانات وأحيانا بجلد الأفعى وكانت الأقواس معكوسة بشدة وقصيرة ويمكن أن تستعمل من على ظهر الخيول وكانت تطلق السهام الخفيفة نسبيا بسرعات عالية ولمسافات مدهشة.
استعملت الأقواس المركبة في أرجاء أسيا من كوريا حتى سواحل الأطلسي في أوروبا وشمال أفريقيا وجنوبا في شبه الجزيرة العربية والهند.

بينما كانت تتعالى ضربات قلب "رائد" والخدر يسري بجسده، لا يدري لمَ أحس بريبة، فانتفض، وابتعد عنها بخطوة ثقيلة.
فقالت معلقة: أرأيتَ؟! هكذا ينبغي عليك أن تقف.
التفت ناحيتها وهو يهز رأسه دون أن ينظر إلى عينيها، ويقول: فهمتْ، سأفعل ذلك.
حينئذ شعر بشيء قُذف ناحيتهما فجأةً، فدفعها بيده ليُبعِدها، وما إن نظر متفحصاً حتى رأى خنجراً على الأرض ملقى!!
وصوتٌ يقول بسخرية: لقد استهنتُ بك بدايةً، ولكنك تَلافيتها بمهارة. قلتَ بأنك تبارز بالسيف، صحيح؟
انتفشت "بيلسان" غضباً، بعد أن أدركت الموقف جيداً، وقالت وهي تنتفض: "باتر"، أتريد قتلي؟! كدْتَ تصيبني!!
تقدم ناحيتها ومدّ يده لها ليسندها، وعينيه تحمل نظرة لم يفهمها أحد سواها، وقال معتذراً: آســـــف، "بيلسان"، كنت أختبره فقط.
استندت بكفه، وما إن وقفت معتدلة، حتى قالت بغضب: نادِني أماه، وتعقل.
أطلق ضحكة عالية بدت ساخرة، وهو يقول: أمـــــــــاه!! أمـــــــاه!!
ثم رمى بنظرة يَشُوبها اتهام نحو "رائد"، وعلق ساخراً: ما الذي لفت نظرك في هذا الفتى الطائش؟
رمقته بحنق دون أن تجيب، بينما قذف بسيف ناحية "رائد"، وقال: قلتَ إنك تجيد المبارزة. أرِني كيف تبارز الآن.
التقط "رائد" السيف من على الأرض، ووقف متأهباً، وبدا واضحاً للجميع من وقفته مدى تمكّنه من المبارزة.

ثم اندفع الآخرُ نحوَه سريعاً، والتحم سيفاهما، وعَلاَ صوت صليلها.
وما هي إلا دقائق معدودة، حتى تمكن "رائد" من إسقاط سيف "باتر" قائلاً: لقد انتهت المبارزة.
ثم رمى بسيفه.
روح "باتر" المتعالية والتي كانت ترفض الهزيمة، جعلته يلتقط سيفه مجدداً، ويندفع به غائراً على "رائد" وهو يصرخ بغضب متوعداً: سأقتــــــــــلك.
لكن أحدهم كان أسرعَ منه، وحال بينه وبين "رائد" صاداً سيفه بقوة.
باندهاش أرخى سيفه متراجعاً، وهتف: أبتـــــــــاه!
أرخى السيد سيفه هو الآخر، وقال معاتباً: لقد هُزِمت يا "باتر"، وعليك أن تعترف بذلك.
بدا حانقاً وهو يرمق رائداً وصدره يتأجج بالحقد عليه أكثر.
استدار مغادراً، وهو يقول: إنه عبد متمرّد، ولن يروّضه أحدُ سواي.
لم يكترث السيد بقوله، والتفت إلى "رائد" مشيداً بمهارته، قائلاً: أحسنت، لقد أظهرت مهارة بارعة في المبارزة، لقد أدهشتني حقيقةً، إن ولدي "باتر" مشهور هنا بـ"السياف" لمهارته، ولكنك أطحتَ به في دقائق!
لذا بدأتُ أعتقد أن صناعة الأسهم لا تلائِمك، ما رأيك أن تكون معلماً للمبارزة؟
صفقت "بيلسان" وقالت مؤيدةً: أنت محق سيدي، لا أعتقد أن صناعة الأسهم ملائمة له. ما رأيك "رائد"؟

حَنَى رأسه لأسفل، وقال بصوت ممزوج بالسخرية: وهل أملك حق الرأي بالقبول أو الرفض هنا؟!

وضع السيد يده على كتفه، شعر معها "رائد" بلطفه، وقال: نعم، من حقك أن ترفض إن أردت، ولكن وقوفك كمعلم للمبارزة سيجعل لك امتيازات أخرى، ولكن ينبغي عليك أن تتعلم الرماية جيداً قبل أن تقف معلماً للسيف.

خفض "رائد" رأسه للحظات بحرج، يطوّقه الندم جرّاء وقاحته معه للتو، وموقف سيده الهادئ منه، ثم رفع رأسه ناظراً للسيد، وقال: حسناً، أنا موافق.

ابتسم في وجهه بلطف، ثم استدار مغادراً، تلحقه "بيلسان" بينما ظل هو واقفاً يراقبهما بصمت.

كان يقف صبي صغير يبدو في التاسعة من عمره خارج الدار، يرتدي ثياباً فاخرة، رمى بنفسه على "بيلسان" لتضمه بين ذراعيها، ثم سارَ بجانبهما، بينما حنت التفاتة من "بيلسان" للخلف تسترق النظر إليه، ما إن رآها حتى ارتبك وتظاهر بالانشغال.

في حين همَس أحدُ العبيد للآخر أمامه: هل لاحظتَ اهتمامها به؟!

الفصل الرابع: الوجه الآخر

لكل منا وجه لا يحب أن يُظهِره لأحد، ووجه آخر (مجرد) لا نظهره إلا أمام مَن نحب.

ابتدأ "رائد" تدريبات الرماية على يد معلّمه "جلال".
"جلال" كان رجلاً حراً، وكان الأشهر في بغداد في الرماية، وكان يعمل لدى عائلة أبي العلالي براتب يتقاضاه من السيد، كانت لديه ملامح مميزة، حيث كانت في خده الأيمن شَامة كبيرة، وخطوط دقيقة تخترق جبينه الأسمر، وشارب عريض بشكل ملحوظ، وكان دائماً ما يلفّ العمامة ويعصبها على رأسه، ورغم ملامحه الصارمة تلك، كان مَرِحاً، وذا أخلاق طيبة، مما جعل "رائد" يتعامل معه على سَجيته دون اكتراث.
مضى على تلقيه تدريبات الرماية أكثر من شهر، تمكن خلالها من رمي العديد من السهام بنجاح.
وذات مرة، وبعد أن أطلق "رائد" سهمه مصيباً هدفاً ثابتاً، سمع تصفيقاً قادماً من خلفه، التفت ناحية الصوت وإذ به يرى "بيلسان"، لقد اعتاد أن يراها بين حين وآخر، لكن ما لم يعتده هو ذلك الشعور الغريب، الذي يرتاب قلبه حالَ رؤيتها، مُحدِثاً داخله ثِقلاً يقيّد حركاته، يشعره بالشلل.
أضِفْ للوشايات التي كانت أذنُه تتلقاها من العبيد داخل مساكنهم، والتي زَرعت في قلوبهم الغيرة، حتى غَدَا أكثرُهم يمقت "رائد" دون سبب واضح! وكثيراً ما كان يتفرّس في أعينهم سؤالاً حائراً عن سبب لطف السيدة معه.
-أحسنت "رائد"، مَن كان يتصور أن مستواك سيرتفع هكذا خلال شهر واحد؟!

التفتت إلى "جلال" وأردفت: أتعتقد بأن هذا كفاية له؟

أجابها وهو ينظر ناحية "رائد": أظن أنه يحتاج للمزيد.

التفتت لرائد بابتسامة مشرقة، وهي تقول: لقد أخبرني السيد بأنْ تبدأ ممارسة عملك كمعلم للمبارزة اليوم.

تشاغل بنظره في قوسه، وهو يسأل: وماذا عن الرماية؟

أجابته: ستستمر بها ولا شك.

ثم التفتت إلى "جلال" قائلةً: ما رأيك أن نختبره غداً في رحلة صيد؟

حكّ ذقنه وهو يردّ: جيد، سنرى كم بإمكانه أن يصيد؟

ملامح "رائد" كانت تُبدي الرفض والاستنكار، لذا قالت مؤكدة: حسناً، ستكون غداً مرافقي في رحلة الصيد.

أشاح بوجهه، وهو يقول: سيدتي، آسف، ولكني لا أحب اصطياد الحيوانات، ولا أظنني بقادر على إصابة حيوان بسهمي.

بدت ملامحها متعجبة وهي ترفع احدى حاجبيها، ثم ابتسمت بخفة، وقالت معلقة: أتعني أنك تشكّ في مقدرتكَ؟

رمقها للحظة بحِدة، ثم أشاح بوجهه وأجاب: لا أعني ذلك، أنا قادر على الاصطياد ولا شك، ولكني أرفض أن أفعل ذلك للتسلية فقط.

خفض رأسه، وأتم: لذا أعتذر عن ذلك.

ثم استدار مغادراً.

انتفض "جلال" مستنكراً موقفه، فنادى عليه قائلاً: "رائد"، كيف تخاطب السيدة "بيلسان" هكذا؟

التفت إليه، وأجاب دون اكتراث: أنا لم أفعل شيئاً. لقد أخبرتها عن رأيي وحسب، سبق وأنْ أخبرتني بأني قادر على الموافقة أو الرفض.

التفت ناحيتها، وأتم: أليس هذا صحيحاً؟ سيدتي.

ابتسمتْ بخبث، ثم رفعت احدى حاجبيها بإعجاب وهي تقول: نعم، صحيح ما قلتَه، ولكني لم أخيّرك هذا المرة. فهذا أمــــــــر مني الآن.

اكتفى "رائد" بالنظر إليها بوجه خالٍ من أي تعبير، لكنَّ عينيه مع ذلك كانت تحمل ذات النظرة، نظرة لا تعبر إلا عن الرفض.

ثم أحنى رأسه، وقال: أمرك سيدتي.

عمّ الوُجوم بعدها، حتى اقتحم المكانَ ذلك الصبيُّ الصغير متجهاً ناحية والدته "بيلسان" فاختطف يديها، وراح يَدُور حولها بحركات صبيانية.

و"بيلسان" تضحك له بسعادة.

و"رائد" يراقبهما بصمت، اقترب منه "جلال" وهمس إليه: أهذه أول مرة تشاهده فيها؟

هز رأسه نافياً وسأل: مَن يكون؟

- إنه ولدُها، الابن الأصغر للعائلة واسمه "بارع".

صمت "رائد" قليلاً قبل أن يسأله: وهل "باتر" ولدها أيضاً؟

- كلا، إنه ابن زوجته الأولى التي توفيت. "بيلسان" زوجته الثانية، ألا تعرف أنها ابنة عائلة ثرية من الشام؟!

التفتَ إليه باهتمام، فأردف قائلاً: "رائد" يبدو بأنك لا تتحدث هنا مع الآخرين؟!

رفع عينيه ناظراً نحوها، وأجاب: كل ما في الأمر أنني سئمت حياة الرقّ هذه، وأشعر بأني سأشعل ثورة لأنال حريتي.

تقدم بضع خطوات، وأخرج الساعة الزمنية من جيب ثوبه، وأخذ ينظر إليها، اقترب "جلال" ولم ينتهِ من سؤاله: ماذا؟ هل هذه ساعة؟

حتى اختُطِفت الساعة من يد "رائد" بحركة سريعة.

كان "بارع" ممسكاً بها على بُعد خطوات من "رائد"، يلوّح بها عالياً مخرجاً لسانه ساخراً منه.

مد يده وهو يقول: أعطني إياها، هذه ليست لعبة للأطفال تلعب بها، ماذا تظن نفسك فاعلاً أيها الصبي؟!

وكزه "جلال" بخفة على جانبه متمتماً: سيدكَ.

عَضّ على شفتيه، وهمس: وكأن الوقت مناسباً لقول ذلك! وكأني سأرضَى بذلك أصلاً.

التفت إلى "بيلسان" وقال: سيدتي، أخبريه أن يعيدها، إنها مهمة بالنسبة إلي.

نظرت إليها "بيلسان" بإمعان قبل أن تقول: "بارع"، كن عاقلاً وأعِدها لـ"رائد".

ولكنه لوّح بكلتا يديه، وهو يقول: "رائد"، "رائـــــد"، إذا أردْتَها بإمكانك أن تلحق بي لاستردادها.

ثم أطلق ساقيه للريح، نظر "رائد" لـ"بيلسان" متسائلاً لكنها هزّت كَتفيها فاقدة الحيلة، مخفية ضحكة طفولية بين شفتيها، فعلم رائد أن لا فائدة؛ لذا اندفع يسابقه ليسترد ساعته.

كان الصغير يركض بكل سرعته، ويناوره كثيراً ويعبُر من جانبه، دون أن يتمكن "رائد" من إمساكه، أصابه الإعياء والإجهاد، وأخيراً تمكن من الإمساك به، وسقطَا أرضاً معاً وتعفرَا بالتراب.

قبض على يديه بقوة، وقال: لقد هزمتك يا فتى، والآن أعطني إياها.

أجاب "بارع" بتملق: أنت بارع حقاً، لم يستطع أحدٌ اللحاق بي من قبلُ. كما أنَّ لديك عضلاتٍ بارزةً، هل تعلّمني "رائد"؟ هل تكون معلّمي؟

رفع "رائد" ذراعه باحثاً عن تلك العضلات التي ليس لها وجود، وابتسم متباهياً بزهو وهو يقول: عليك أن تكون ولداً عاقلاً قبل ذلك.

ما إن أنهى كلمته تلك، حتى أدرك بأن "بارع" كان قد خدعه، وفرَّ هارباً حاملاً الساعة معه مجدداً.

فانفجر غضبه هذه المرة أكثر، وراح يلحقه كَمَا المجنون، وسط ضحكات "بيلسان" و"جلال".

وأخيراً، تمكّن من الإمساك به بعد جهد، وسحبه من ياقة قميصه، ورفعه عالياً، جاعلاً ساقيه تتدلى أسفله.

- والآن، لن تخدعني مجدداً، أعطِني الساعة.
- قلتَ إنها غالية لديك. مَن أهداك إياها؟
- لم يفعل أحد هذا، ألا ترى أنها عتيقة؟ أعطني إياها، ولا تتملق مرة أخرى، لن أدعك حتى تعطيني إياها.

ناوله إياها، ورفع يديه مستسلماً، وهو يقول: لقد اكتفيتُ، أشكرك، لقد كان اللعب معك ممتعاً.

أدخلها في جيبه وهو يرمقه بانزعاج، ويقول: وكأنني كنتُ ألعبُ معك**!!** لقد أجهدتني، لذا أنا لا أحب اللعب مع الأطفال.

وعند الكلمة الأخيرة، برقت في مخيلته ملامحُ تلك التي كان ينعتها بالطفلة الصغيرة ذات العينين الضيقتين، والنمش على أنفها الصغير، الذي ميّز ملامحها. فكذا تُباغتنا الذكريات على

حين غِرةٍ، موقظةً في أعماقنا حنيناً لأصحابها. وكأن هذه هي حيلتها الوحيدة لتفرض حضورها كلما حلّ بواقعنا شيء يُشابهها.

ابتسم وهو يتمتم: يا لك من طفل! أنت تشبهها في إزعاجها.

ثم مدّ يده ماسحاً على رأسه.

دفع "بارع" بيده وهو يقول: وكأني طفل حتى تمسح على رأسي هكذا!

ضربه "رائد" على رأسه لاستفزازه، وأخذ يمسح عليه بقوة أكبر وهو يضغط عليه، ويقول معلقاً: نعم صحيح، أنت كبير وعاقل.

ثم انفجر ضاحكاً من أعماق قلبه، لدرجة جعلته يشهق بين حين وآخر للحدّ الذي جعل "بيلسان" و"جلال" يبتسمان بتعجب وهما يراقبانه، فهذه أول مرة يراه فيها أحدهم يضحك بهذا الشكل.

اقتربت منه "بيلسان" وهو لا يزال يستفز صغيرها ويلاعبه، ويضحك بصوتٍ عالٍ، وقالت معلقة: أعتقد أن هذا هو أنت "رائد".

صمت واجماً ما إن سمع صوتها، وتوقف عن ملاعبة "بارع" ثم التفت إليها، قائلاً: عذراً سيدتي، لم أفهم.

ابتسمت بمكر وقالت: وها أنت تظهر وجهك الآخر.

بادلها ذات الابتسامة، وقال: لا أذكر أني أملك وجهين، سيدتي.

صمتت للحظة محاولة ابتلاع سخريته تلك ثم قالت معلقة: حسناً، اتبعني لدار المبارزة.

أومأ برأسه، ثم سار خلفها يتبعها، يشاكس "بارع" من حين لآخر، ويسرّ بضحكاته .

في حين توقفت "بيلسان"، وقالت معلقة: يبدو أنك تحب الأطفال كثيراً؟!

فوجئ بقولها هذا وتوقف، صمت للحظة ثم أجاب: ربما.

أطبق شفتيه للحظات مفكراً ثم أتم: ربما أحب طهارة قلوبهم.

ابتسمت، ثم عادت لتتابع طريقها، حتى وصلاَ أخيراً لدار المبارزة، وما إن دخلا، حتى دُهش "رائد" بما يراه، فقد كان عدد المتدربين أكثر بكثير مما كان يتصوره!

وأعمارهم تتراوح بين السادسة عشرة والعشرين.

وكان يقف في نهاية الساحة شاب، بَدَا في أول الثلاثينيات من عمره، كان أبيضُ ذا شاربُ خفيف، وحاجبين عريضين، وعينين حادتين كالصقر، وكأنهما قادرتين على الغوص في أغوار بعيدة لا يدركها الكثيرون.

وكان يحمل شَبهاً بسيطاً في هيئته العامة من "باتر".

كان منشغلاً بمبارزة أحدهم، خطف معه لُبّ "رائد" وهو يرى مهارته وسرعته في الصدّ وتسديد الضربات.

فتلك الطريقة التي يقف بها متأهباً منتظراً خَصمه، ذلك الصدّ، ثم ذلك الدفع بكل قوته، وتركيزه على التسديد بطرف السيف، كل ما يراه يعود بذاكرته للوراء، حيث تتربع صورة "ليونهارد" المبارز.

- يبدو أنك تتساءل عن هذا الرجل هناك؟!

استدار ناحيتها باهتمام، فتابعت: إنه ابن سيدي، واسمه "بتّال"، عموماً، مع إن منظره وشخصيته لا تظهران قوته، ولكنه تمكّن من قيادة جيش، وإخضاع كل من سامراء والبصرة والكوفة لأمير بغداد. إنه خير سلف لوالده حقاً. هو ليس سيّافاً وحسب، بل مُخططاً حربياً ماهراً. ستشاركه في تدريب التلاميذ.

عاد رائد لينظر ناحيته، وعلق قائلاً: لكن أنا ليست لي كل هذه الامتيازات التي يتمتع بها هو، كما أن عمري مقاربٌ للتلاميذ، من الصعب أن يتقبلوا أن أكون معلماً لهم.

فاجأته بسؤالها: هل تعلمت عِلم الفراسة من قبلُ؟

التفت ناحيتها متعجباً من السؤال، فأردفت قائلة: لا عليك منهم، أثبت لهم أنك تستحق وحسب.

ثم نادت بأعلى صوتها وهي تلوح: "بتّـــــــــــــــــال"؟

انتبه إليهما، فأرخى سيفه ثم اتجه ناحيتهما بوجه طَلق وابتسامة واسعة.

أقترب منها وانحنى مقبلاً جبينها قائلاً: أهلاً بك أمـــــــــاه.

ثم التفت ناحية "رائد"، ومد له يده مصافحاً في دهشة منه.

أشارت إليه "بيلسان" وقالت: هذا "رائد"، المعلم الجديد الذي رشّحه سيدي.

نظر إليه مظهراً إعجابه، قائلاً: حقاًّ، كنت متشوقاً لرؤيتك. لقد حدثني والدي عنك كثيراً، سررتُ بمعرفتك.

بدا "رائد" مرتبكاً من جرّاء معاملته غير الرسمية والتي لم يَعْتَدْ عليها هنا، فخفض رأسه مظهراً امتنانه، قائلاً: سعدت أنا بذلك سيدي.

ضرب على رأسه بملل وهو يقول: سيدي! سيدي! بما أننا سنعمل هنا معاً، فلا داعي لكل هذه الرسميات، نادني "بتّال" وحسب.

ثم ربت على كتفه بخفة، واتجه نحو تلامذته، وعلامات الدهشة ترتسم في عيني "رائد".

لديه ملامح تشبه "باتر" شقيقه، لكنهما يختلفان كثيراً في شخصيتيهما، هل يعقل هذا؟!

- لا بد وأنك تحدّث نفسك عن الاختلاف الكبير بين شخصية "باتر" وشخصية "بتّال"؟

تحدثت بها "بيلسان" بينما أومأ برأسه مجيباً.

حينئذ سمع صوت "بتّال" وهو يشير ناحية "رائد"، قائلاً:

تلامذتي المخلصون، أعرّفكم على "رائد" معلمكم الجديد.

التفت الجميع ناحيته ينظرون إليه، شعر بالحرج وهو يتقدم نحوهم بخطوات ثقيلة، حتى وقف بجانب "بتّال" مبتسماً بثقل أيضاً.

شدّه "بتّال" إليه بذراعه وطوّقه، وهو يقول: قد لا يبدو على هذا الشاب أنه قوي، ولكن أؤكد لكم أنه قوي بما يكفي لإسقاطكم جميعاً، ولأثبت لكم ذلك..

انقضوا عليه الآن بقبضة رجل واحد جميعكم.

خطفت جل ملامحه وهو ينظر صوب "بتّال" وذلك يبتسم له بخبث، علق "رائد" قائلاً بوجَل: هل تخطط لقتلي؟

نَاوَلَهُ سيفه، ثم أطلق ضحكات خفيفة.

بينما وقف الجميع متأهباً.

صفق "بتّال" بيده صفقة مشيراً لهم بالهجـــــــــــــــــــوم.

فاندفع الجميع ناحية "رائد" بسيوفهم وهو لا يزال فاغراً فمه بدهشة من جراء الورطة، التي تلقاها من "بتّال" للتو.

ولكنه أخيراً وجد نفسه مضطراً لمسايرتهم، والدفاع عن نفسه، وإسقاط سيوفهم الواحد تلو الآخر، و "بتّال" يستند على مِنضدة يراقب ويصفّق كلما انهزم أحدهم.

حتى سقط سيفُ آخِرِ واحد منهم، وسقط معه "رائد" جاثياً على ركبتيه مستنداً على سيفه، يلتقط أنفاسه بإجهاد.

اقترب منه "بتّال" وهو يصفق قائلاً: أحسنتَ، أحسنت "رائد"، هذا أجمل عَرْضِ مبارزةٍ رأيته.

نظر إليه بنصف عينه وعلّق وهو يزفر الهواء من صدره بقوة: تقصد أجمل ورطة دبّرتها.

ضحك "بتّال" ثم علق قائلاً: ولكنك أثبت أنك تستحق منزلتك هذه، ما كان هؤلاء التلاميذ ليقبلوا بشاب مقارب لأعمارهم، ويملك عينيك البليدتين هذه بأن يصبح معلمهم، لذا أردت أن يروا بأنفسهم قوتك.

ثم ضرب بيده على هَامة "رائد"، فتعثر وسقط وما إن تمالك نفسه ورفع رأسه، حتى رأى كف "بتّال" ممدودة إليه، وعلى وجهه بسمة جميلة، وهو يقول: المعلم "رائد"، مرحباً بك بيننا.

ابتسم وهو يدير وجهه بخجل قبل أن يطلق ضحكة، ويقول: أنت مجنون بالفعل، "بتّال".

الفصل الخامس: رائحة البيلسان

بعض الروائح لا تغادر أنفك إلا وقد أوغلت بأعماقك إحساساً بالوجع، يظل يلاحقك كلما عبرت من ذات الأماكن.

بعد أن عاد "رائد" من الجامع، واتجه لنزل العبيد متأهباً للذهاب لرحلة الصيد.

وقف عند المغاسل، وسكَب على وجهه الماء، مبللاً شعره وما إن رفع رأسه حتى وجد "عروب" تقف أمامه، وبيدها تحمل ثوباً.

كانت "عروب" سمراء البشرة، نجلاء العين، ذات شفاه رقيقة، وشعر أسود مجعد قليلاً.

ذُهِل لرؤيتها تقف أمامه، فهو لم يرها منذ أول يوم قابلها فيه، فقال معلقاً: أنتِ من ذلك اليوم، التي أرشدتني للمكان هنا؟ لِمَاذا لَمْ أعد أراكِ هنا؟!

- لأنني أصبحتُ وصيفة السيدة، وأنت ذلك المتمرد الصاخب "رائد"؟!

ابتسم بسخرية، وقال: أجدتِ وصفي بدقة.

- لستُ أنا مَن يقول ذلك، بل الجميعُ.

مسح رأسه بمنشفة دون اكتراث، وهو يقول: وهل يعرفني الجميع هنا؟!

ابتسمت وهي تمد له الثوب، وتقول: وهل تعتقد عكس ذلك؟!

ألقى عليه نظرة استغراب، وقال متسائلاً: ما هذا؟

أجابته: لقد أمرتني سيدتي بإعطائك إياه.

تفحّصه بعينيه دون أن يلمسه، ثم قال: ولكنه...

أدار وجهه عنها، وأتم: ليس اللباس المخصص للعبيد.

أمسكت بكفه ووضعته فيه، وقالت: لقد أُمِرتُ بإعطائك إياه لتلبسه في هذه الرحلة، لا شأن لي أنا ببقية التفاصيل.

ثم غادرت المكان، وعاد "رائد" ليتفحصه باهتمام:

إنه ثوب بقماش فاخر، مغاير تماماً لما أرتدي هنا؟!

هذه المرأة!! ما الذي ترمي إليه؟!

قطعت أفكاره يد امتدت لتمسك بكتفه واقترب صاحبها من أذنه، وهمس: احذر من تلك المرأةِ ابنةِ اليهودية، هي أفعى، ما إن تطوّقك فستقتلك بسمّها، إياك أن تقع في وَكْرها.

تعجب "رائد" من قوله، فسأل: ولماذا تخبرني بذلك؟

ابتسم له قبل أن يستدير مغادراً، وهو يقول: ألم تلحظ؟ إنها مهتمة بك؟ الجميع قد لاحظ ذلك.

بينما وقف "رائد" يقلّب الثوب بين يديه بريبة وقلق.

كان موعد الانطلاق قد حُدِّد سابقاً بعد صلاة الفجر مباشرة، أسرع "رائد" وارتدى الثوبَ على مَضض وخرج من دار العبيد وهو يسرق أنظار الجميع إليه بثوبه الأبيض الفاخر ذاك وما إن وصل للموكب، حتى اعتلى فرساً كان قد خُصص له.

كان من بين الموكب "بتّال" أيضاً و"باتر"، ومعلمه "جلال" ويركب معه على حصانه الصبي "بارع"، أما السيدة فكانت في أول الموكب تعتلي خيلها الأسود الأصيل، وترتدي ثوباً أبيضاً هي الأخرى ورداً بالأحمر، وقد لفّت شَعرها بطرحة من قماش زادتها جمالاً على جمالها، وكأنها بذلك زهرة "بيلسان" بيضاء، تتربع باختيال وسط حقل من زهور حمراء.

كانت تبدو وكأنها صورة للملكة "زنوبيا" مَلِكة تَدْمُر بجمالها الطاغي والملفت للأنظار.

ما إن وقعت عينا "بارع" على "رائد"، وشاهده من بعيد حتى أحدث جَلَبة ليذهب إليه، كان يركب خلف "جلال" على ظهر خيله، فاقترب "رائد" بخيله منه، وما إن وقف أمامه، حتى عاجله بارع بقوله: أنت معلمي، من المفترض أن أكون راكباً معك.

أجابه "رائد": ومنذ متى أصبحتُ معلمك يا طفل؟!

- أنا لست طفلاً، قلتُ لك سابقاً.

مسح "رائد" على رأسه مستفزاً إياه مجدداً، ثم ضغط عليه وبقوة، وقال: صحيح، نسيت.. أنت كبير وعاقل.

بالكاد رفع رأسه، ثم دفع بنفسه ناحية خيل "رائد"، فأربكه. مد له ذراعه يتلقفه، ثم أجلسه أمامه ولامَه، قائلاً: كدت تسقط أيها الأحمق، ماذا لو لم أمد ذراعي في الوقت المناسب؟!

فغر عن أسنانه ببسمة حمقاء، وهو يقول: قلتُ لك أني أريد أن أكون مع معلمي.

حينها باغته "جلال" بضربة على رأسه، وقال معاتباً: كدت تسقط لولا أنه أمسك بك، أنت لم تكبر بعدُ.

التفت "رائد" لـ"جلال" قائلاً: لا بأس معلمي، أظن أن وجود هذا الطفل معي، سيهبني وقتاً للضحك.

رفع رأسه وهو يقول معترضاً: لستُ طفلاً، قلت بأني لستُ طفلاً.

ضربه بخفة على رأسه هو الآخر، وعلى شفتيه بسمة تحنّ لتلك التي طالما اعترضت وصفه لها بالطفلة، لكنّ بسمته سرعان ما تبددت وهو يرى "بيلسان" تقف أمامه بخيلها وكلمات ذلك الرجل تتردد في أذنه:

إنها أفعى، ما إن تلتفّ حولك حتى تقضي عليك بسمها.

حنى رأسَه قليلاً، فقالت مبدية إعجابها: هذا الثوب يليق بك فعلاً، اتبعني في المقدمة.

ثم ضربتْ على سرج خيلها، فلحقها هو الآخر.

والآن أبوابُ هذه الدار الكبيرة تُفتح أمامَه بعد مضي شهرين على مكوثه هنا، ليخرج منها أخيراً عابراً شوارع بغداد.

وفي أثناء سيْرهم وسط السوق، وأنظار الجميع تتجه نحوهم كموكب مَلَكي، لفت انتباه "رائد" رجل بدت ملامحُه من بعيد كملامح "ليونهارد" تماماً، وهو يشيح بوجهه للجهة الأخرى مغادراً.

قذف بلجام خيله لـ"جلال"، وترجّل وهو يقول على عَجَل: "جلال" قُدْ خيلي، سألحق بكم في الحال.

ثم اتجه سريعاً يسابق خطواته ليلحق بذلك الرجل، لكنه وبسبب الزحام، أضاعه فجأة فلم يعد يراه بين الجموع.

أكان ذلك "ليونهارد" حقاً، أم أنه خُيل لي؟! لا يمكن أن يكون هو؟ ما الذي يجعل "ليو" يأتي هنا؟

ولكني متأكدٌ أن شاربه كان بندقي اللون؟!

أحسّ بخيبة تتملكه وهو يعود أدراجه.

ربما يكون ضوء الشمس هو السبب، لا شك أنها أخيلتي وحسب.

ما إن لحق بالمسيرة، وركب خيله، حتى قال له "جلال": ما بكَ؟ تبدو مكتئباً؟!

- لقد خُيل لي أنني رأيتُ شخصاً أعرفه، لكني لم أتمكن من اللحاق به بسبب الزحام.
- ألم تقل إنك لا تعرف أحداً هنا؟!

- بلى، ولكنه ليس من هنا، ربما أتى زائراً، وربما هي مخيلتي وحسب.
- لا تظهر هذا الوجه الكئيب مجدداً، ستتشعر بالمتعة بعد قليل، ما إنْ نَخْرُجَ من هذه البوابات ونتجه للصيد.

بسَأَمٍ واضح رد: ما المتعة في إطلاق السهام نحو الحيوانات والطّيور؟

- السيدة تحب هذه الهِواية.

ابتسم بسخرية، وهو يقول: وهل هي تستطيع الصيد حقاًّ؟!

رفع "بارع" رأسه وقال معلقاً: لا تستخفّ بأمي، أمي لا تبدو كما تظهر.

للحظة ظل واجماً ينظر إليه بصمت ثم ضربه بيده خافضاً رأسه، وهو يقول: لا تتباهَ أيها الطفل.

- قلت لك لستُ طفلاً.

ضربه مجدداً، وهو يقول: حسناً. اصمت وحسب.

ثم راح ينظر أمامه ناحيتها وهي تسير بثبات على خيلها.

هل كان ذلك الصبي يؤكد كلام ذلك الرجل، لمَ أشعر بثقل في قلبي كلما رأيتها؟ لمَ لا أستطيع التحدث معها على سجيتي؟!

هل أنا منجذب إليها؟ إنها فاتنة حقاًّ؛ بل إنها أجمل امرأة رأيتها حتى الآن؟

هل أنا أحبها؟

كلا، أبـــــــــــــداً، خَفَقَان قلبي هذا ليس حباًّ، أبداً.

أنا أشعر بالريبة والشك تجاهها؛ بل الخوف.

أنا لا أرتاح أبداً لتلك الابتسامة الفاتنة وما تخفي وراءها، هي أفعى، هي أفعى كما قال..

ولكن لمَ أنا بالذات؟! لمَ تصبّ انتباهها نحوي؟ هل حقاًّ هي مهتمة بي؟

أخرجه من زوبعة أفكاره تلك رأسُها الذي مال ناحيتَه فجأةً، شعر بارتباك وخفض بعينه سريعاً ناحية الأرض.

وما إن رفع عينيه حتى رآها وهي تشيح بوجهها للأمام.

هل كانت تنظر إليَّ؟ كلا، كلا، لا ينبغي عليَّ أن أقلق بشأنها.

لكنه لم يكد ليكمل أفكاره تلك، حتى عادت لتلتفت إليه، وتنظر إليه بطرف عينها، في حين خفض رأسه سريعاً للأرض، وهو يشعر بأن قلبه يكاد يخرج من صدره.

وأخيراً، ترجّل الجميع من خيولهم، وبدا الجميع مشغولاً بربط خيولهم و"رائد" يقف بحيرة يراقبهم من بعيد.

حتى تحدث "بارع" قائلاً: ماذا؟ ألن ننزل من على الحصان معلمي؟ هيا بنا لترى بنفسك كيف تتقن والدتي الرماية؟

بحيرة سأل: "بارع"، كم تستغرق هذه الرحلة عادة؟ ولمَ بعضهم يبدو وكأنه سينصب خياماً هنا؟ هل سنمكث هنا لوقت طويل؟

- ربما نمكث هنا الليلة، ولكن لا تقلق، لن تشعر بالملل.

ترجل من الخيل، ومد ذراعه لإنزال "بارع" وهو يقول بضجر: أنا أشعر بالملل منذ الآن.

لم يكمل كلمته، إلا وقد شعر بيد "بارع" وهي داخل جيبه، وما إن نظر إليه حتى كان الآخر يبتسم بخبث، ثم أطلق ساقيه للريح مجدداً، وهو يحمل ساعة الزمن.

علق بغضب: ماذا؟ هل أخذت دروساً سابقة في النشل؟!

ثم لحق به، وذاك يمد لسانه مستفزاً بين حين وآخر وهو يركض.

بينما كان "جلال" غارقاً في الضحك، و "بتّال" يراقب بصمت مبتسماً، أما "باتر" فقد أدار وجهه كأنه لم يرَ شيئاً، وتابع نصب الخيمة.

حينما أصبح "بارع" على مقربة من "بتّال"، أشار إليه "بتّال" بيده أنْ اقذفها إلي.

فاستقرت بيده، توقف "رائد" ينظر إليه بدهشة وهو يشاهد ذات البسمة الماكرة على مُحيّاه، فقال معلقاً: بتّال!! لا أظنك ستقف بجانبه؟!

زادت بسمته اتساعاً، وهو يقول: "بارع"، لنتبادل الأدوار كلما تعب أحدنا.

ثم صفق على يد "بارع" ثم انطلقا معاً يقذفانها بالهواء، وقلب "رائد" يكاد يقف مع كل رمية.

وأخيراً صرخ بصوت عال: توقفــــــــــــــــوا، أطفال.

توقف "بتّال" وهو يحمل الساعة بيده، التفت إليه وقال ساخراً: ماذا؟ هل ستبكي من أجل خُردة؟!

صرخ بأنفاس مجهدة: إنها قيّمة لديّ، ربما تعطلها بفعلك هذا "بّتال".

حينئذ كانت "بيلسان" قد التقطت الساعة من يد "بتّال"، ففوجئ قائلاً: أمــــــاه؟

ابتسم وهو يشاهد نظراتها المعاتبة، فأردف قائلاً: كنتُ أريد مشاكسته وحسب.

- لقد أزعجتما الجميع بفعلكما هذا، كان عليك أن تعاقب "بارع" لا أن تشجّعه.

ثم التفتت إلى "بارع" الذي لم يزد عن ابتسامة بلهاء ترتسم على محياه ثم أدارت بوجهها ناحية "رائد"، وقالت: أنتَ معلمه، كان عليك أن تكون صارماً معه.

رفع احدى حاجبيه مستنكراً، وسأل: معلمه؟! منذ متى؟!

استدارت وهي تجيب: منذ اليوم.

التفت إلى "بتّال" الذي كان ينظر ناحيتها وهي تغادر، وقد اختالت عينا الصقر ذاك إلى عينين ذابلتين، التفت إلى "رائد" قائلاً: هيا ألن نلحقهم؟ ستبدأ أماه الصيد الآن؟

هزّ رأسه موافقاً بينما وقف الجميع يراقبها بصمت وهي تشدّ السهم في النبل، وترفعه عالياً لتقذفه في الهواء ويسقط بطير وبآخر.

استدار حينها "بارع" لـ"رائد" وقال متباهياً: معلمي، أرأيتَ! ألم أخبرك كيف أن والدتي بارعة؟

رفع "رائد" احدى حاجبيه، ونظر إليه بازدراء، وضربه على رأسه بخفة، وهو يقول: الآن وقد أصبحتُ معلمك، فإني سأعرف جيداً كيف سأربيك.

وظل يعصر على رأسه بقبضته، والآخر يصرخ بتوجع: معلمي، إنك تؤلمني.

- أريد أن أطحنك حقيقة.

وأخيراً، استطاع الفرار من قبضته بينما كانت "بيلسان" تنتقل من مكان لآخر، مسددةً سهامها لاصطياد أكبر عدد من الطيور.

علق "رائد" موجهاً حديثه لبتال: ما الممتع في اصطياد الطيور هكذا؟ أليس من المفترض أن تحب زهرة البيلسان الطيور التي تغرّد حولها؟!

ارتسمت على شفتيه بسمة ساخرة وهو يجيبه: هل سمعت سابقاً بلعنة زهرة البيلسان*؟!

باهتمام التفت إليه مصغياً، فأردف الآخر قائلاً: يقال إن مَن يشم رائحتها سيُصاب بالمرض، وإن من يقف بجانبها في ليلة مقمرة، فإنه سيتحول لشيطان.

بادله "رائد" ذات الابتسامة وهو يقول: هذا إن افترضنا بأنها زهرة أصلاً.

أطلق "بتّال" ضحكة خفيفة تبعها بأخرى أكثر قوة، ورغم صخبها وقف أمامها "رائد" بصمت إذ أدرك بأن خلفَ صوتها العالي يختبئ شيئاً من القلق ربما، أو الألم..

حينئذ نادى "جلال" على "رائد" قائلاً: حان دورك لنختبرك كيف ستصيب هدفاً متحركاً حقيقياًّ؟

---

* لعنة زهرة البيلسان: هذه الزهرة رغم استخدامها الكثير في العقاقير الطبية، إلا أنها ارتبطت في كثير من الشعوب بالسحر والموت، وبأساطير ترتبط بالجن والعفاريت، وكثيراً ما تَظهر هذه الزهرة في أيدي الساحرات حتى في بعض القصص الشهيرة، ولعل أشهر أساطيرها أن من يشمها يُصاب بمرض، وهذه كلها محض أساطير لا أكثر.

اقترب "رائد"، وأمسك بالقوس، ونظر للسماء يترصد صيداً، شد النبل والجميع يراقبه و"بيلسان" لم تغمض أهدابها عنه للحظة وما إن رفع سهمه للسماء وأطلقه، حتى عاد السهم لا يحمل شيئاً، فعلق "جلال" قائلاً: لقد تعمدت أن تحني القوس قبل أن ترميه؟!

نظر إليه وقال: أعتقد أنها قد اصطادت ما يكفينا جميعاً.

اقتربت منه "بيلسان" وقالت وهي تمسك بكفه والقوس: ولكني قلتُ إني سأختبرك. وراحت لتطوقه من الخلف كما فعلت المرة السابقة في صمت من الجميع، ونظرةِ سخطٍ واضحة من "باتر".

- عليك أن تراقب الهدف جيداً، رَمْيُ الأهداف المتحركة يختلف تماماً عن رمي هدف ثابت، إتقانك لشيء ثابت لا يساوي شيئاً.

شعر "رائد" بكفه تنتفض، وبدقات قلبه تتسارع، حاول مجاراتها، ورفع رأسه والنظر لهدفه، لكن التوتر كان جلياً على وجهه ثم سرعان ما سكن وتقدم ببضع خطوات مبتعداً عنها، وقال: حسناً، فهمتُ سأفعل.

وهذه المرة رفع قوسه وشد النبل جيداً، ثم أطلق سهمه دون أن يغمض عينيه لِيُسْقِط طيراً معه.

صفّقت "بيلسان" وقالت: أحسنت.

وكذلك "جلال" علق قائلاً: أنت تستطيع فعل ذلك.

ابتسم ببرود، وأسقط القوس على الأرض بإهمال، وغادر بصمت متجهاً للخيمة.

أوقفه "باتر" بلهجة هازئة: إلى أين؟ أتترك السادة يعملون هنا؟ بينما يرتاح العبيد؟

استدار "رائد" وعاد أدراجه ببسمة مصطنعة على شفتيه، وهو يقول: بالطبع لا سيدي، هل أجمع الحطب من أجل الشواء؟

أشار بيده للطيور، وقال: وستنظفها.

انحنى "بتّال" وجلس بالقرب من الطيور، وأخذ ينتف ريشها، وهو يقول: لا داعي لكل ذلك "باتر"، وهل سنجلس نتفرج نحن فقط؟!

غادر "رائد" يجوب الأماكن حوله، بحثاً عن الحطب، بينما كان الجميع منهمكين في العمل.

وبعد أن عاد وبيده رزمة من الحطب، علق "باتر" بتهكم، قائلاً: أهذا كل ما استطعتَ جلبه أيها العبد؟!

بعدها أشعلوا النار، وقاموا بالشواء، والشمس قد أوشكت على المغيب.

وما إن انتصف البدر في وسط السماء السوداء، حتى انطفأت النار.

التفت "باتر" إلى "رائد" والذي كان جالساً مع "بارع" يحدثه، وقال بسخط واضح: أنت أيها العبد، اذهب واجمع المزيد من الحطب.

علقت "بيلسان" قائلة: اذهب أنت معه أيضاً وساعده، لن يتمكن من الرؤية في الظلام.

التفت إليها معترضاً بوجه كساه الغضب: "بيلســــــــــان"؟!

ضغطت على حروف الكلمة، وهي تكرر مرتين: أماه، أماه.

أشاح بوجهه عنها، وتمتم بكلمات ساخطة بينما وقف "رائد" مغادراً، وقال: لا بأس، سأفعل ذلك وحدي، أنا معتاد على الرؤية في الظلام لكن ربما سأتأخر، فلم يكن حولي هذا الصباح سوى ما جمعته.

ثم امتطى خيله وانطلق.

علقت "بيلسان" قائلة: ربما يهرب.

بتهكم أجاب "باتر": هذا أفضل.

علق "بتّال" قائلاً: هو لن يفعل.

وقفت حينها "بيلسان" واتجهت نحو خيلها، وقالت: سألحقه.

ضحك "باتر" بسخرية، وعلق قائلاً: أتمنى أن تسقطان ببئر وتموتان معاً.

توقف "رائد" في أحد الأمكنة وترجّل عن خيله بعد أن ربط خيله بأحد الأشجار اليابسة. وأخذ يلتقط بقايا الأغصان الجافة مِن على الأرض حوله.

أحس بحركة خلفه فدار حول نفسه سريعاً بوجل، بحثاً عن مصدر الصوت، وما هي إلا لحظات حتى ظهرت "بيلسان" أمامه، فسأل مستنكراً: كيف لحقتني إلى هنا؟!

- بالخيل طبعاً، ولكنه فر هارباً قبل أن أربطه، لقد ابتعدْتَ كثيراً أنت.

ثم نظرتْ إلى الحطب بين يديه، وقالت: جيد، لقد جمعت كمية كافية لإبقاء النار مشتعلة.

ثم اتجهت نحو خيله تفك رباطه، بينما وقف هو ينظر إليها بصمت وما إن اعتلت خيله، حتى قالت: ماذا؟ هل تريد البقاء هنا؟

تقدم نحو خيله بارتباك، وأمسك باللجام، وقال: حسناً، سأقوده من هنا، ابقي أنتِ فوقَه.

اعترضت قائلة: المسافة بعيدة! ما الذي تقوله؟! إذا لم تركب، فإني سأنزل إذن، وأسير على الأرض.

أدار برأسه ناحية اليمين مفكراً للحظات، فقالت: لماذا تشعر بالحرج هكذا؟! أنا سيدتك.

رفع رأسه ناظراً إليها، وأخيراً وضع قدمه على السرج وامتطى الخيل جالساً خلفها.

وما إن ضرب على لجامه، ومضى الخيل يسارع خطواته، حتى تشبّثت به مطوّقة خاصرته بذراعها الأيسر.

شعر بالاضطراب والتوتر يدبّ في قلبه وبشعور غريب يجثم على صدره، فيزفره اختناقاً.

ووسط عمة التوتر تلك، أرخت برأسها على صدره ووضعت يدها اليمنى على قلبه.

وقالت بتهكم: لمَ قلبك ينتفض هكذا؟!

صوت في أعماقه تردد، قائلاً: إن من يقف أمام زهرة البيلسان والقمر مكتمل، فإنه سيتحول لشيطان وإن من يشم رائحتها، فإنه سيُصاب بالمرض.

حاول أن يتمالك نفسه، فأرخى اللجام عن يده اليسرى، ثم أمسك بكفها؛ ليرفعه عن صدره، رفعت رأسها تنظر إلى عينيه اللتان كانتا تبرقان تحت ضوء القمر بذات الإباء والكبرياء الذي شاهدته عليه أول مرة، ولا تدري لماذا تلك النظرات قد أيقظت في قلبها رهبة منه لم تشعر بها من قبلُ جعلت أصابعها تنتفض بوضوح بين كفه.

وأخيراً، فغر فمَه عن كلمات بصوت حاد لم يتحدث بعدها: سيدتي، أكره هذا.

ثم شد على معصمها بقوة، ووضع كفها على اللجام لتمسك به، ثم انطلق بأقصى سرعته.

وحين وصوله، استقبله "باتر" باستنكار ورِيبة، قائلاً: لمَ "بيلسان" على خيلك؟!

أجابت وهي تترجل منه: لقد هرب حصاني.

تمتم بسخط: سأحرقكما معاً، ذات يوم.

كان "جلال" نائماً، أما "بتّال" فقد استرق نظرة لـ"رائد" وهو يلقي الحطب على النار ثم تقدم ناحيته، وما إن اقترب منه حتى لفتت انتباهه يدُ "رائد" التي كانت تنتفض وهي تقذف بالأغصان وتحركها.

أمسك بمعصمه، وسأل بقلق: "رائد"، ما بال يدك تنتفض هكذا؟ هل تشعر بالبرد؟

التفت إليه بوجه شاحب، وأجابه: لا، ولكني شممتُ رائحة البيلسان.

الفصل السادس: الاختفـــــــــاء

أن نرتدي قبعة الاختفاء، حُلمٌ أيقظته فينا قصصُ الخيالِ.

لكن أنْ نتمنى الاختفاء حقاً، فهذه أمنية أولجها ثقل ذنب، أوجعنا حد الندم.

مضى أسبوع بعد العودة من تلك الرحلة، أجبر "رائد" على الانتقال والسكن في القصر بعد تعيينه معلماً لبارع، مما يعني بأنه سيقابل "بيلسان" أكثر بكثير من قبل، وهذا ما كرهه بشدة.

فلا يزال قلبه يشعر بلعنة الاقتراب من زهرة البيلسان.

في آخر ليلة له في نُزل العبيد، وبينما هو يلمّ أغراضه، أوقفه (الصنّاعي) وقال بلهجة لم تُخفِ كَمية الحقد بداخله: هل تتعامل بالسحر أنت؟ كيف استطعتَ الترقي هكذا ودخول القصر وأنت لم يمضِ على بقائك أكثر من شهرين؟

نظر إليه "رائد" وهو يشعر برائحة البيلسان تخترق أنفه، فانتفض كفه فجأة، وارتسمت على شفتيه بسمة باهتة وهو يجيبه: لم أعرف السحر يوماً، ولكنّي عرفت كيف تلحقك اللعنات حتى تصيبك بالشلل.

كان القصر من الداخل كما لم يتصور "رائد" مطلقاً، فالثُريات العملاقة المثبّتة على الأسقف، والجدران المرسومة، والأخرى المزينة بالحجارة الملونة، والأرض المبلطة بأفخر أنواع البلاط.

الساحات الواسعة والحدائق في كل جانب، والنوافير التي تتوسطها، والغرف باتساعها، حتى هو لم يَنَمْ في القرن الواحد والعشرين في غرفة بهذا الاتساع، فغرفته في شارع "هارلي" بلندن، لم يزد اتساعها عن أربعة أمتار في ثلاثة، أما هذه الغرفة، فلم يستطع تحديد اتساعها.

تكسوها الستائر الشفافة من كل اتجاه، والقاتمة على نوافذها فقط، وسرير دائري وكأنه من قصة ألف ليلة وليلة.

استيقظ نافضاً غطاءه الوثير، واتكأ على سريره.

نظر للستائر المنسدلة، فزفر بألم: كان من المفترض أن أبقى خارج هذا القصر، وأكون قريباً من الهرب. أصبحت أشعر بأني سُجِنت في سجن أضيق يُحال الخروج منه.

نظر لكفه اليسرى وضغط على معصمه.

تمتم: أخشى أن يصيبني المرض إن طال مكوثي هنا.

وقف معتدلاً، ثم اتجه إلى إحدى المَرَايا، وأخيراً نظر لوجهه وملامحه.

ملامحه التي كاد ينساها منذ جاء إلى هنا، رتّب شَعره، ثم خرج من الغرفة.

ما إن سار نحو باحة القصر، حتى قابل "بتّال" الذي أسرع ناحيته، وجذب رقبته وعانقه، قائلاً: "رائد"، ما رأيك بأن نتبارز بالسيف، تبدو عيناك ناعستان، سيساعدك ذلك على الاستيقاظ.

أبعد يده، وهو يقول: ولكن يجب علي أن أعلم "بارع" الآن في المكتبة.

سحبه من يده، وهو يقول: دعك من ذاك الطفل المدلل، ولنتبارز الآن.

توقف "رائد" للحظة، ثم قال: وأنا منذ ذلك اليوم كنتُ أتوق للمبارزة.

وقفَا بالباحة، وناول "بتّال" "رائد" سيفاً، وقال: هل نبدأ؟

هزّ الآخر رأسه، ووقف متأهباً على استعداد، ثم اندفع الآخر نحوه مباشرة.

تلقى ضربته الأولى بالصدّ، وتكرر المشهد.

كان "رائد" يبدو مرتبكاً وهو يدفع بسيف "بتّال" عنه.

ثم تعثر وسقط أرضاً، اقترب منه "بتّال" وقال ساخراً: ما هذا؟ أنت لا تقاتل بكل قوتك، كان عليك أن تُسقِطني أرضاً.

ما إن أكمل جملته حتى أسقطه "رائد" أرضاً، ووقف ملتقطاً سيفه، سلّطه نحوه، وقال متسائلاً: "بتّال"، مَن درّبك على السيف؟

فغر فاهه متعجباً من سؤاله للحظة ثم أجاب: غريب سؤالك..

ثم وقف معتدلاً والتقط سيفه، وأكمل: معلمون كُثْر.

اندفع نحوه "رائد" والتحم سيفاهما، وقال: أسلوبك هذا في صدي والاندفاع، مَن كان آخر مَن علّمك؟؟

- تسأل عن هذا؟ إنه رجل قدم إلى بغدد قبل سنوات.

أرخى "رائد" سيفه مندهشاً.

فاندفع ناحيته "بتّال"، وهو يقول: أحمق، لمَ ترخِ دفاعك هكذا!!

صده "رائد"، لكنه سرعان ما سقط أمامَ دفعِه، وسأل: أكان اسم الرجل "ليونهارد"؟

أعاد بتعجب، قائلاً: "ليونهارد"؟! كلا، كان اسمه "حارث".

ألقى "رائد" سيفه أرضاً، وقال رافعاً يديه: لقد هُزِمتُ، لا طاقة لديّ للإكمال.

التقط "بتّال" السيف، وأوقفه قائلاً: مهلاً، لماذا سألتني عن هذا.

التفت إليه، وقال: لأن أسلوبك كأسلوب "ليونهارد" بالضبط.

حك "بتّال" شعره بإهمال، وقال: بالحديث عن ذلك، حينما رأيتك أول مرة تبارز فيها، شعرت بأن أسلوبك يشبه كثيراً أسلوب معلمي "حارث".

توقف "رائد" للحظات صامتاً، ثم استدار مغادراً ملوحاً بيده، وهو يقول: سأذهب للمكتبة الآن.

أسرع "بتّال" خطواته وأمسك بكتفه، قائلاً: "رائد"، منذ رحلة الصيد وأنت تبدو مختلفاً؟ ما الذي جرى؟

أزاح بكفه، وهو يجيب بإهمال: أخبرتك سابقاً لا شيء.

أمسك بكتفه مرة أخرى، وقال: هل فعلتْ أماه شيئاً؟ لا، بل لِأقل "بيلسان"؟!

تردد للحظات قبل أن يلتفت إليه، ويقول: أليس من الغريب بأن تناديها أنت أماه، وأنت أكبر منها سناً بينما يناديها "باتر" وهو أصغر منها سناً باسمها مجرداً؟! أيمكن أن يكون نوعاً من التمرد وحسب، أم أنه...؟

دَهِشَ من سؤاله الأخير، حيث فهم فحواه، فأجابه بعينين حادتين: ذلك الفتى طائش ومعتوه، لا تَكترث له.

ثم دقق في عينيه ليفاجئه هو الآخر بسؤاله: كيف كانت رائحة البيلسان إذن؟

وجم "رائد" للحظات ظل فيها صامتاً قبل أن يقول بتردد: هل تريد أن أخبرك الصدق؟!

ابتسم وهو ينتظر الإجابة بشغف، فأردف "رائد" قائلاً: له رائحة، شعرت معها حقاً بالتقزز، هل أنا مريض؟!

أخذ "بتّال" يضحك بصوت عال، وهو يضرب بتتابع على كتفه أمسك "رائد" بكفه؛ ليبعده وقال: غريبة هي ردة فعلك، ظننتك ستغضب!!

توقف عن الضحك، ونظر إليه، وبجدية قال: لدينا نفس الأنف، تلك المرأة تحمل لعنة حقاًّ، ألم تلحظ أن أخي لا يتحدث إليَّ؟! لا أنكر أني حتى أنا في يومِ ما قد جذبني ذلك الجمال، وتلك الهالة الملفتة التي تحيطها..

ابتعد قليلاً، وأتم: أنا أحترمها فقط، لأنها زوجة أبي، وأنا هنا فقط لأوقف جنوح أخي المغفل تجاهها.

- أتعني أنه يحبها؟

أدخل السيفَ في غِمده، وأجاب: ولمَ تَخال إذن، كُرْهَه لكَ لهذا الحد!!

بقلق بدَا جلياً سأل: ما الذي تَعنيه بذلك؟

أدار ظَهره، وهو يجيب: هل أنت أحمق لهذا الحد؟! تلك البيلسان على ما يبدو أنها قد هامت بك، احذر أن تطوقك فتقتلك بسمها.

أمسك "رائد" بكفه ذراعه اليسرى، وأخذ يمسح عليها وهو يراقب "بتّال" مغادراً وهمس: أتمنى أن لا أرى تلك المرأة تقف أمامي مجدداً، أريد حقاً أن أختفي.

ثم اتجه في طريقه ناحية المكتبة.

وهناك كان "بارع" يجلس، ويقرأ بعض الكتب، بينما دخل عليه "رائد" وباغته بضربة خفيفة على ظهره، وهو يقول: أحسنت، تلميذ ممتاز، عليك أن تقرأ في حال إن تأخرت عليك.

- معلمي أنا أحب القراءة حقاً.
- هذا جيد، ستَفتحُ لك أبواباً كثيرة للمعرفة.

التقط "رائد" كتاباً للنحو، وأخذ يقلب فيه، ثم فوجئ بقول "بارع": معلمي، تلك الساعة تثير فضولي، تبدو كقطعة خردة، لمَ أنت مهتم بها هكذا؟ هل هي تذكار من أحدهم؟

ابتسم، وهو يجيب: إنه تذكار من شخص لم أقابله من قبلُ، وأتمنى أن أقابله.

- ماذا ستفعل إن قابلته؟

أغلق الكتاب أمامه، وأجاب: سأضربه.

وجم بارع للحظات، وقال: ألا ينبغي عليك أن تؤدّبني، كيف تخبرني بهذه الأمور ببساطة، أليس هذا عنفاً؟

أطلق ضحكة عالية، ثم ضرب على رأسه، وهو يقول: أنت لك نفس روحها، أنت طفل مثلها.

- أنا لست بطفل، ومَن تقصد بقولك؟

مسح على رأسه وضغط عليه يستفزه، وقال: دعك من هذا، أريد أن أسألك أنا الآن..

أزاح بيده ورفع الآخر رأسه ناظراً إليه باهتمام، فسأل: هل تعرف عالماً فيزيائياً هنا في بغداد؟

بعينين ممتلئة بالثقة، أجاب: أعرف علماء كُثر، أخبرني أبي أن مريد عالم سلطان، وأن حسان عالم يمزج الكهانة بالقرآن، ويخدع الناس، وأن الوالي...

وضع "رائد" يده على فمه وصرخ: اصمت..

ثم تابع: الدرس الأول لليوم، الذي ينبغي عليك أن تفهمه ، أنه لا ينبغي عليك أن تتحدث بما يحدثك به أبيك أمام أي شخص حتى لو كان أنا، فهمتَ؟

- ولكني أردت أن أخبرك أنت فقط.
- ستفعل هذا مع غيري أيضاً، لذا كُنْ متعقلاً، وضَعْ هذا الدرس في أذنيك، وإياك أن تنساه.

حينها كان السيد أبو العلالي قد دخل إلى المكتبة، واتجه إليهما أثناء انشغالهما بالحديث، ووضع يده على كتف "رائد".

تنبه لوجوده فوقف منتصباً على قدميه، وقال: آسف سيدي، لم أنتبه لقدومك.

ضغط على كتفه ليجلسه، وهو يقول: لا ينبغي أن تفعل ذلك، أكره أن يقوم لي أحد.

ابتسم "رائد" بامتنان، بينما أشار له ناحية بارع وهو يسأل: وهذا الصبي كيف وَضْعُه معك؟

أجابه: بأحسن حال، إنه يتعلم بسرعة.

هز رأسه وهو يقول: جيد.

ثم جلس بقرب "رائد"، وقال: لقد جئت لأطلب منك طلباً.

- تفضل سيدي، واطلب ما تشاء.

- سأرتحل لمكة قاصداً الحج، وأنت تعرف أن هذه الرحلة قد تعني الموت إن لم نكن حذرين، فهل سترافقني؟

صمت "رائد" للحظات دون أن يجيب، فتابع هو: طبعاً، سآخذ معي من خيرة رجالي المقاتلين أيضاً، وسنسير في قافلة وخلال أشهر-بإذن الله- نكون قد وصلنا لمكة.

أحنى "رائد" رأسه باحترام، وقال: طوع أمرك سيدي.

حرك رأسه نافياً، وهو يقول: كلا، أريدك أن تذهب بحريتك واختيارك أنت.

ابتسم "رائد" برضا وهو يقول: صدقني، هذا خياري، تشرّفني مرافقتك سيدي.

همس في سره متماً: وأَخْرُجُ من جحيم لعنة البيلسان.

وقف مغادراً وهو يربت على كتفه، قائلاً: حسناً، كن جاهزاً، سنرحل قريباً.

بعد ذلك أمضى "رائد" الوقت في إكمال تعليم بارع وبعد أدائه صلاة العشاء وخروجه من الجامع، قابل "بتّال" ومشى معه بالطريق نحو القصر.

وأثناء سيرهما عرض عليه "بتّال" المبارزة للتدريب، فرفض "رائد" وهو يسبقه ببضع خطوات، قائلاً: كلا، ليس الآن، أنا أشعر بالنعاس.

علق ساخراً: عيناك ناعستين دوماً.

توقف "رائد" وكأنه قد تذكّر شيئاً للتو، والتفت إليه قائلاً: "بتّال"، صِفْ لي معلمك "حارث"؟

اقترب منه حتى أدركه، وسار بجانبه، وقال: هل تريد أن تراه؟ هو يأتي لزيارتي بين حين وآخر، هل تريد أن أدعوه؟

- حقاًّ؟ أتستطيع ذلك؟
- إن أردت سأدعوه غداً؟؟
- جيد، ليكن، ولكن صِفه لي أولاً.

أشار "بتّال" لباب غرفته وهو يقول: لنكمل حديثنا بالداخل، هل أطلب لك شيئاً تشربه؟

قالها وهو يفتح الباب لتظهر من خلفه تلك الغرفة التي كانت تفوق بجمالها غرفة "رائد" ألف مرة، حيث كانت في منتصفها نافورة ماء، ونوافذها تطل على باحة القصر، وفي كل زاوية منها زرعت حديقة مصغرة.

تقدم "رائد" يطوف فيها بدهشة، فاغراً فاهه عن قوله: حينما رأيت غرفتي ظننتها كغرف الأمراء في ألف ليلة وليلة، ماذا عساي أن أصف غرفتك؟! إنها جنة!!

تقدم دون اكتراث وهو يشير له بالجلوس، قائلاً: اجلس أينما تريد..

توجه "رائد" نحو النافورة وجلس عليها، قائلاً: ألا يزعجك صوتها أثناء نومك؟

أجابه مازحاً: قد لا يبدو ذلك عليَّ، ولكني أملك من العاطفة ما يجعلني أعشق أن أنام على صوت خرير الماء.

لم يكمل جملته، حيث انتفض "رائد" من مكانه راكضاً عند إحدى زوايا الغرفة، حيث عُلق هنالك سيفٌ، لم يكن سيفاً عادياً، كان سيف مقوساً من المنتصف مما جعل "رائد" يصرخ معلقاً: هذا سيف الكيليج؟!

اقترب منه "بتّال" مجيباً: لا عجب أنك سيّاف إذن، نعم إنه الكيليج.

صمت قليلاً، وذلك ينظر إليه بشغف، فأتم: لا شك أنك تتساءل من أين حصلت عليه؟ أعطاني إياه معلمي "الحارث".

بشغف أكثر ضغط على كتفيه، وقال: أرجوك صف لي معلمك هذا؟

أَبْعَدَ يدَه، وحك شعره بيده الأخرى، ثم قال: كيف أصفه؟! حسناً، إنه ذو بشرة بيضاء وشعر بندقي، وشاربه..

صمت للحظة، ثم أتم: صحيح، هو ليس عربياً.

جَثَا "رائد" على ركبتيه، مغطياً عينيه بيديه وهو يردد: أيعقل أن هذا حُلم؟ هل أنا أحلم؟

جلس الآخر محاذاته، وقال مندهشاً: أيمكن أن يكون هو معلمك أيضاً يا "رائد"؟

ضم ساقيه إليه، وقال: قلبي يخفق بشدة لدرجة أشعر أنه سيخرج من مكانه الآن ويسقط، بدأت أشعر أنه غَدَا مني قاب قوسين أو أدنى، أريد أن أراه الآن يا "بتّال"، أنت لا تعرف ماذا يعني لي هذا الشخص؟!

وقف يمد له يده، وهو يقول متسائلاً: ولكن ماذا إن لم يكن هو، ستُصاب بالإحباط.

هز رأسه نافياً وهو يقول مؤكداً: كلا، لا شك أنه هو، في يوم رحلة الصيد رأيت رجلاً يشبهه، لكني لم أتمكن من إيقافه، والآن بعد حديثك هذا، صرتُ متأكداً أكثر.

ربت على كتفه مطمئناً، وقال بلطف: سأدعوه غداً لتراه بنفسك، لا تقلق "رائد"، والآن، هل نشرب شيئاً؟ هل أطلب لك شاي البابونج؟

وجم "رائد" للحظة قبل أن يقول: هل تعرف أني كرهت كل أنواع الزهور، وتريد مني أن أشرب البابونج الآن؟

أطلق "بتّال" ضحكة بصوت عالٍ، وهو يترنح حوله.

شاركه "رائد" الضحك قليلاً ثم استأذن للمغادرة، وما إن وقف أمام الباب.

حتى استدار ناحيته، وقال بعينين ممتلئتين بالامتنان: "بتّال"، أنا شاكر لك، شاكر لك لأنك عاملتني بكل طيب، دون أي تمييز، عاملتني كإنسان.

رمى بنفسه على سريره، وهو يقول مازحاً: أغلق الباب خلفك يا رجل. أنا أكره الاعترافات الليلية.

أغلق الباب خلفه، وعلى شفتيه ابتسامة واسعة تظهر أسنانه، لكنها سرعان ما تبددت وهو يسير في الرواق المؤدي لغرفته، الذي كان مُضاءً ببعض القناديل طفيفة الضوء، حيث كانت تصل رائحةٌ لأنفه، تشعره بحضور يمقته، رائحة قادرة على خنق أنفاسه، فيحال معها التنفس بارتياح.

رائحة كانت تفوح أكثر كلما اقترب من آخر الرواق.

حيث كانت تقف بانتظاره "بيلسان".

توقف بتردد قليلاً ثم مضى عابراً إياها دون أن يتفوّه بكلمة، أوقفته بقولها: ألن تلقي التحية حتى عليَّ؟!

توقف مستديراً نصف استدارة، وقال وهو خافض رأسه: آسف، السلام عليكم، سيدتي.

اقتربت منه وهي تقول: ارفع رأسك، أريد أن أتحدث إليك.

على مضض رفع رأسه دون أن ينظر إليها، فقالت: هل ستذهب للحج مع سيدي حقاًّ؟

أومأ برأسه مجيباً بنعم.

اقتربت منه أكثر حتى أصبحت بمحاذاته، وقالت باستعلاء وهي ترفع احدى حاجبيها الرفيعين: وماذا إن قلتُ لك لا تذهب؟!

باستنكار رمقها، ثم عاد ليخفض عينيه، وقال بتردد: لقد أمرني سيدي، وعليَّ إطاعته.

- هو لم يأمرك.

علا صوتها كثيراً وهي تقولها، ثم أتمّت قائلة: ولكني أنا آمرك بعدم الرحيل.

رمقها بنظرة سريعة قبل أن يستدير، ويقول: ولكني وعدته، ولن أخلف وعدي.

شعر بشيء تشبث به من الخلف فجأة أوقفه، ورأى ذراعيها قد طوقت صدره، ورأسها قد مال على ظهره.

صمت للحظات في دهشة دون حَراك، ابتلع ريقه بصعوبة ثم زفر أنفاسه بغضب، ورفع كفيه ليزيح يديها عنه، لكنه توقف بحيرة متردداً بعد أن شعر بدموعها الحارة وهي تبلل ثوبه.

نطقت بصوت يهتز: أنت أيُّ قلب تَحْمِلُه؟! أنت لا تملأ عينيك مني؟ ولا تلتفت نحوي، بل أنك تتجاهلني حتى؟! أي رجلٍ هو أنت؟!

بالكاد نطق: سيدتــــــي، أرجوكِ أزيحي يديك..

شدت ذراعيها حوله أكثر، وقالت وهي تصر على أسنانها وتبكي: لن أفعل، ولن ترحل.

شخصت عيناه للحظة باستنكار فمد كفه، وأمسك بمعصميّ يديها ضاغطاً عليه بقوة، وقال: سيدتي، أرجوك ابتعدي عني، هذا لا ينفع.

أرخت بيديها قليلاً، ورفعت رأسها، وقالت: هل سمعت مرة عن لعنة زهور البيلسان؟

أرخى بيده هو الآخر منصتاً إليها، فتابعت: ما إن يشتم رائحتها أحدٌ، حتى تطوقه، فتصيبه بالخدر والشلل الذي لا يَبرأ منه.

شد على معصميها، وأزاح يديها متحرراً، لف رأسه ناحيتها، ونظر إليها بطرف عينه وهو يجيبها: افعلي ما تريدين، ولكنّي لن أخضع لك.

ثم تركها جاثية على ركبتيها، وصوت بكائها يلحقه، وما إن وصل عند باب غرفته، حتى سمع صوتاً، يقول: سيدي "رائـــــــــد".

التفت ناحية الصوت، وإذ بـعروب تقف خلفه وفي عينيها تفيض كلمات كثيرة اختزلتها بقولها: أَمَا وأنّ الحال وصل إلى هذا الحدّ مع سيدتي... اختفِ رجاء.

علته بسمة ساخرة وهو يدير مقبض الباب، ويجيب: أختفي؟!

هل تعرفين كم مرة في اليوم أمنّي نفسي بالاختفاء؟! في كل لحظة، في كل دقيقة؛ بل في كل نَفَس أتنفسه.

ثم أغلق الباب خلفه.

الفصل السابع: وما كفر سليمان

الشلل أن تصبح ممتلئاً بالفجوات، تخترقك سهامُ رغباتك المبطنةِ، تاركةً إياك جثةً سَحَقها الوهم .

للمرة الثانية، تُفتح بوابات ديار أبو العلالي ليخرج منها "رائد" ولكن بحرية أكبر هذه المرة عن سابقتها، فلم يكن أحد برفقته سوى "بارع".

وكما قَدِمَ أول مرة وسار في شوارع بغداد، كان ذات الانبهار والدهشة يظهر على مُحياه.

كان يقف عند كل زاوية، وكل بستان، وكل محل لدقائق عدة متأملاً.

بينما كان الضجر يتسلل إلى قلب "بارع"، حتى تحدّث قائلاً: معلمي، ألا يوجد في الشام أسواق كهذه؟!

أدرك مدى مللـه، وأجابه: لا أعلـــــــــــــــم.

- لا تعلم، كيف لا تعلم؟ ألم تكن قادماً من الشام؟! سمعت أبي يقول إنها مُوحشة؟!

أجابه وعيناه تطوفان بالأرجاء: لست أدري بصدق، لقد قدمتُ من مدينة لم يعد لها وجود.

توقف "بارع" للحظة قبل أن يعلّق قائلاً: معلمي، ألا ينبغي عليك أن تعلّمني بأن الكذب حرام، والشخص الكاذب هو سيئ!!

علق قائلاً وهو يمسح على جبينه باستياء: إن مهمة المعلم ليست بسهلة.

ثم أزاح بيده وسأل: "بارع" أين يكون ذلك العالِم الذي حدثني عنه؟ هل تعرف منزله؟

- لقد أوشكنا على الوصول، ستُذهل لمدى علمه وفَهمه.
- ذكّرني باسمه؟
- اسمه "البادي"، أنت لا تحفظ الأسماء بسرعة.

وضع كفه على فمه ليخرسه، قائلاً: درس اليوم الذي ستتعلمه، عليك أن لا تلقي بانتقادات لاذعة على معلمك.

ثم أزاح بيده عنه، فعلق "بارع" قائلاً: معلمي، خلف هذا الزقاق منزله.

اتجها معا نحو الزقاق، وما إن وقفَا أمام الباب حتى مد يده ليقرعه، لكن الباب كان قد فُتح قَبلاً، وظهر من خلفه رجل بلحية كثّة، وشعر أجعد، يكسوه البياض، قائلاً: تفضلاَ..

أخرسهما ذلك للحظات وما إن دخلا وجلسا على الأرض وسط غرفة خالية من كل شيء، حتى شعر رائد بقشعريرة تسري في جسده، انتصبت لها شَعيرات جسمه.

تلفّت حوله، وقال: "بارع" ألا تشعر أن المكان بارد جداًّ؟!

- كلا، إني أتصبب عَرَقاً من الحرّ.

وما هي إلا دقائق حتى عاد ذلك الرجل ذو اللحية والشعر الأجعد، المسمى "بادي".

وجلس يدقق النظر إليهما للحظات، وكان "رائد" ينظر إليه خلالها بريبة.

دس "بارع" يده في جيب "رائد"، وقال: أخبرني يا عم "بادي"، ماذا يوجد داخله؟

دقق النظر ناحية جيبه، ثم قال: س.. س.. ساعـــــــــــة.

بحماس تحدث "بارع" معلقاً: هل رأيت؟ ألم أخبرك أنه يعرف كل شيء؟

التفت "رائد" إليه ناظراً بذات النظرات المرتابة، حتى تحدث ذلك الرجل، وقال: جئتَ تسأل عن أمر الساعة تلك؟

شعر "رائد" برجفة في قلبه، فانتفض، وقبض على كف "بارع"، ووقف مغادراً، وقال بلهجة ساخرة: هل ستسألني الآن عن اسم والدتي؟!

أطلق ضحكة ساخرة ثم أتبعها بقوله: زاهية، هذا اسمُها.

شخصت عيناه من الصدمة ثم استدار ناحيته بوجهٍ مرتبك، وبقلب اعتراه الوجل للحظات.

فأردف "بادي" قائلاً: لديك إيمان واعتزاز بنفسك قوي، ومع هذا أرى حولك شيئاً يطوّقك، ويوشك أن يدهسك، لا تعد لي راكعاً طالباً علاجك.

أدار مِقبض الباب، وعلق قائلاً: لا أثق بالدجالين أمثالك.

ثم سحب "بارع" وأغلق الباب، لم يتحدث "رائد" بأي كلمة، حتى خرج من ذلك الزقاق، بعدها سدد ضربة على رأس "بارع"، وقال معاتباً: أيها الأحمق، ألا تعرف أن تفرّق بين عالم وساحر، دجّال وكاهن؟!

- لماذا، ألم يكن يعرف كل شيء؟ ألم يعرف بشأن الساعة في جيبك؟!

تلفت "رائد" حوله بانزعاج، وهو يقول: ما كان عليَّ أن أثق بطفل، كان عليَّ أن اسأل "بتّال" أو "جلال".

حك رأسه إثر الضربة، وهو يقول: لقد أخبرتني والدتي أنه أوتي حكمة سليمان.

نظر إليه بنظرات تكسوها الغرابة مما سمعه للتو لكنه سرعان ما ضرب براحة يديه على فم "بارع" بخفة، وهو يقول بانزعاج: الدرس الذي ستتعلمه أيضاً، بأن لا تتحدث أمامي عن والدتك مرة أخرى، والآن اتبعني بصمت.

- إلى أين سنذهب؟!

التقط كفه وهو يقول: إلى أي مكان.

لفت انتباه "رائد"، مجموعة من الناس يسيرون جميعهم باتجاه واحد، ويرتدون ثياباً قاتمة اللون.

التفت إلى "بارع" متسائلاً: لمَ يرتدِ هؤلاء الناس، رجالهم ونساؤهم، ذات الثياب؟

- ألا تعرف؟ إنهم يذهبون عند الشيخ "أكتم".
- ومن يكون ذا؟ دجالٌ آخر؟! بدأت أشك بتصنيفك للناس.
- كلا، إنهم يطلبون منه البركة، وهناك مَن يقول: إنك إن تمنيت أمنية عنده، فإنها ستتحقق على الفور.

اشتعل حماساً وهو يتابع: معلمي، أليست لديك أمنية تريدها أن تتحقق؟!

صمت للحظة، ثم بدت على شفتيه بسمة تُظهر الوجع، وهو يجره ناحيته، ويقول: كانت لديّ، كانت لدي أمنية لمستقبل أفضل، لكن أظن أنها قد ماتت.

- هل ستذهب لتقول هذا للشيخ "أكتم"؟

سحبه من كُم قميصه، وأجاب: بل لأشبع فضولي وحسب، يبدو أن لبغداد أيضاً جانباً لم أعرفه من قبل.

تبعا مجموعة الناس تلك، حيث وصلوا أخيراً لمبنى هو ضريح في حقيقته لكن ما كان يجهله جميع الناس، أن الضريح خالٍ من أي جثة لشيخ اسمه "أكتم" كان صالحاً، وغَزَا الغزوات مع المسلمين، ومنحه الله معجزة شفاء المريض، وشفاء الرَّمَد، وتحقيق الدعوات.

كانت مجموعة الناس تلك، قد أشعلوا الشموع، وأخذوا يطوفون حول الضريح ثم اصطفوا بخط واحد، وعلت أصواتهم مرددةً بصوت واحد: امنحنا البركة يا سيدي، امنحنا البركة يا شيخنا!!

ثم تفرّق كل منهم في اتجاه ناحية الضريح، وبدا وكأن كل واحد منهم يدعو بدعاء.

ثم عادوا ليجتمعوا من جديد بعد أن وضع كل واحد منهم مجموعة من السلال أمام الضريح ثم غادروا المكان.

التفت "رائد" لـ"بارع" متسائلاً وقد همّ بمغادرة المكان: ماذا يوجد بداخل السلاسل؟!

- هدايا للشيخ، غالباً تكون طعاماً.

أطلق صوتاً ساخراً، بقوله: تيه، وهل سيأكل الميت طعاماً؟!

- طبعاً لا، سيأتي أحدهم ليأكل منه.

حينها شعر "رائد" بحركةٍ مِن خلف ظهره، ما إن التفت حتى رأى شاباً بدا هزيلاً يفتش في السلال.

وما إن أدرك أن "رائد" كان ينظر إليه، حتى توقف بحرج بادياً على وجهه، ثم قال محاولاً دفع تهمة عنه: لا تعتقد أنني بائس لدرجة أني أبحث عن الطعام هنا.

اقترب منه "رائد"، وعلى مُحيّاه بسمة لطيفة، وهو يقول: وما المشكلة إن أكلتَ، أنت أولى من الميت.

عاد ليفتش في بقية السلال، وأخرج فاكهة وتناولها وهو يقول: معك حق، كما أن أطعمة أولئك المجانين التي يهبونها للأموات لذيذة.

وأخرج سلةً حَوَتْ طعاماً آخرَ، عبارة عن حساء موضوع في آنية آخذ يشرب منها بنَهَمٍ، ويقول: لقد كنتُ أراقبك وأنت تقف تنظر إليهم، بدا على وجهك الرفض والاستنكار، كنتُ مثلك ذات يوم حتى إنني فكرت كثيراً في هدم هذه الأضرحة ولكن إيمانهم بها متعلق بقلوبهم.

ابتسم "رائد" بلطف، وقال: هل فكرت حقاً أن تصلح هذا؟!

أجابه سريعاً وهو يبتلع طعامه : نعم، فأمير بغداد لا هَمّ له سوى التوسع في مُلكه، دون أن ينظر لشعبه في أي بحر هم غارقون!!

ابتسم رائد وهو يخفض رأسه ثم قال: ينقصك الإيمان بفكرتك.

التفت إليه باهتمام واضعاً الطعام جانباً، فتابع "رائد" قائلاً: هل سمعت يوماً عن موسوليني *؟

كرر الآخر: موسوليني؟!

أردف "رائد" قائلاً: موسوليني، هتلر وستالين**؟

---

*موسوليني: مؤسس الحركة الفاشية في إيطاليا ..وكان رمز هذه الحركة (القمصان السوداء) ذاقت إيطاليا ويلاتها.

** هتلر: مؤسس الحزب النازي بألمانيا ومعادي الشيوعية بنظامه الاشتراكي الفاشي النازي ،حكم ألمانيا وقادها للحرب العالمية الثانية وأودى بحياة الملايين ، ستالين يتبع الحركة الشيوعية في روسيا وهو القائد الثاني وقد تأثر كثيراً بأفكار لينين الشيوعية وعرف أيضاً بدكتوريته ويقدر ضحية الفترة الستالينية بخمسين مليون ضحية .

أبدى اهتماماً، فتابع "رائد": هؤلاء صفق لهم ملايين الناس، وراح ضحيتهم أيضاً ملايين الناس.. شيّعهم أولئك المصفقون، لا؛ بل إن غالبية المصفقين ماتوا على أيديهم، هؤلاء كانوا يؤمنون بمدى صحة أفكارهم، فالإنسان حينما يخاطب الجماهير، فإنهم لا يلتفتون لما يقوله بقدر التفاتهم لمدى عمق إيمانه هو بفكرته، فالناس دوماً ما تجعل مستقبلها بأيدي أولئك الذين يحملون إيماناً بغض النظر عن ماهية إيمانهم؛ لذا عليك أن تكون أكثر إيماناً بفكرتك، وسيأتي يوم ستكون قادراً فيه على نشرها..(فلا توجد قوة على الأرض قادرة على أن توقف فكرة حان وقتها)*.

ابتسم الآخر مظهراً إعجابه، وقال: أنت فعلاً محق في ذلك، أشكرك يا صديقي.

ثم مد له يده مصافحاً، وقال: اسمي "كنان"، وأنت؟

- "رائـــــد"، تشرفت بك.

لوح له بيده مغادراً، وهو يقول: سأحرص على لقائك مجدداً، إلى اللقاء.

---

* ما بين القوسين عبارة شهيرة لفكتور هوجو .

ما إن اختفى عن ناظريهما حتى علق "بارع" قائلاً: معلمي، لقد أعجبتني كلماتك تلك رغم أني لم أفهمها جيداً، لكنها أعجبتني.

ربت على رأسه بلطف، وهو يقول: لا بأس، سأشرحها لك لاحقاً، لنعد الآ...

لم ينهِ كلماته إذ شعر بألم شديد يخترق صدره فجأة، وبدأت أنفاسه تتلاحق، فجثى على ركبتيه وضغط بيده على صدره متوجعاً، وبدا العرق يتفصد منه، ومن شدة الوجع

أطلق صرخة، جعلت من "بارع" ينحني إليه بقلق، متسائلاً: معلمي، ماذا أصابك؟ بماذا تشعر؟!

نظر إليه بعينين شاخصتين، وأجاب: قلبي، قلبي يتمزق.

ثم تَمدَّدَ على الأرض، وبدا ينتفض وينتفض، ويصرخ بألم، مما جعل "كنان" يعود أدراجه، متسائلاً: ما الذي حدث له؟ أهو مريض؟

بوجه قلق، أجابه "بارع": لا أعلم، لا أعلم، لقد شعر بوجع في قلبه فجأة وسقط.

انحنى نحوه محاولاً إسناده، لكن بدَا وكأن "رائد" لا ينظر لشيء محددا أمامه، وأن عينيه سارحة في مكان آخر يجهلانه.

صفّق على خديه بيديه، وقال: بماذا تشعر؟ هل أنت مريض؟

ارتجفت شفتاه، وسال زَبد من فمه وهو يجيب: أشعر بخدر بجسدي.

ثم انتفض، وانحنى وتقيأ.

أخذ يلتقط أنفاسه بصعوبة، وبدأ صوتها يعلو شيئاً فشيئاً، حتى وقف على قدميه فنهره "كنان" قائلاً: أنت متعب، هل آخذك لطبيب؟

لكن "رائد" كان قد ركض وهو يضغط على قلبه، يترنح في خطواته ويتخبط، وأسرع "بارع" يلحق به.

كان طوال الطريق يرتطم بكل شيء أمامه، طفل، امرأة، ورجل؛ بل حتى الجدران والأقواس، والشتائم تنهال عليه من هنا وهناك، لكن وجهه لم يكن يُبدي أية تعبير، يقف قليلاً بصمت ويواصل الركض، وكأنَّ أحداً ما يجرّه.

وأخيراً، وصل أمام بوابات الدار، وفُتِحت له، سقط على الأرض، فانحنى أحد البوابين، وأخذته الدهشة وهو يرى وجه "رائد" أصبح غير الذي خرج به، فسأل بقلق: بماذا تشعر؟ هل أنت مريض؟

أزاح بيده، وقام معتدلاً، يحرك ساقيه بإعياء، يسقط حيناً ثم يقف يسارع خطواته قليلاً، ثم يسقط.

حتى عَبَرَ الجامعَ ودارَ المبارزةِ، ووصل للقصر منطلقاً، حيث تسحبه تلك الرائحة عُنوةً، ويجرونه وهو خائر القُوة إليها حيث

تجلس "بيلسان" في غرفتها تشرب كوباً من الشاي بكل هدوء وأريحية.

ضرب الباب بيديه وفتحه عن آخره وما إن رآها حتى سقط، وأسند نفسه على ركبتيه ويديه وحَبَا نحوها حبواً.

وما إن أصبح ماثلاً أمامها، خافضاً رأسه ذليلاً، حتى وقفت هي بزهو، محاولةً إخفاء العَبْرَةَ التي خنقتها مما آل إليه مظهرُه، ودحرت دموعها التي تجمدت في عينيها، ودفعت رجفة الخوف التي ضربت أرجاءَ قلبها مع أصوات أنفاسه الصاعدة تلك، لكنها مع هذا اقتربت منه باختيال، ومدت يدها، وربتت على رأسه بخفة قائلة بتهكم: ما كان عليك أن تُبكي امرأةً.

وللحظة تنسلخ فيها الأقنعة كاشفة عن قُبحٍ تجلَّى.

رغم شدة إعيائه، رفع عينيه ناحيتها، برَقت بهما نظرة قوية حادة، ابتسم بسخرية، وقال بنبرة متحدية: أهكذا تحاولين جَعْلي كلباً مطيعاً لك؟

تلك النظرة جعلتها تنتفض، فأبعدت يدها سريعاً، ووقف هو مسنِداً نفسه على ركبته ثم استطاع أخيراً أن يقف أمامها على ساقيه، وينظر إليها بنظرة ممزوجة بتحدٍ وبابتسامة ساخرة، ثم سأل متهكماً: هل قصدت بالخدر والشلل هذا؟ أهذا كل ما تستطيعين فعله حقاًّ؟!

وبتحدٍ شرع كلتا ذراعيه أمامها، وتابع: ها أنا ذا، أين الشلل الذي تتحدثين عنه؟!

لكنه سرعان ما تهاوَى، وضرب على رأسه بكلتا يديه، راكعاً على الأرض، صارخاً بتوجع.

اقتربت منه بعينين تدوران من الخوف والقلق، وسألت: "رائد"، هل تتألم؟

بالكاد رفع عينيه ناظراً إليها بحدة، وقال: أتألم؟!

ابتلع ريقه وخفض عينيه ثم قال: نسيت إخبارك، هناك قصة أخرى للزهرة الملعونة تلك.

عاود النهوض، وكان يطيش بيده في كل اتجاه، وكأنه يُبعد أشخاصاً عنه، وتابع: مَن يقف أمامها في ليلة مقمرة، فإنه يتحول إلى شيطان، لذا... لا يمكن لشياطينك هذه أن تسيطر على شيطان مثلهم.

ثم أطلق صرخة بتوجع، وأخذ يضرب برأسه على الأرض حتى أدمَى جبينه ونزَف.

وقف على ساقيه مجدداً، ضاغطاً على قلبه، وهو يتجه نحو الباب مغادراً، ويركل بساقه الهواء، قائلاً وهو يكز على أسنانه بغيظ : سأركلك، وسأركلهم، سأركلكم جميعاً، لن تتمكني مني.

ثم غادر الغرفة، وظلت هي واقفة تراقبه بقلب مضطرب.

سار طوال الممرات التي امتدت أمامه وهو يتقدم خطوة، ويتراجع خطوتين، ويضرب رأسه في كل حين على الجدران.

حتى وصل لغرفته، وجد أمامه "عروب" تقف بوجه شاحب.

مدت يدها لتعاين الجرح في جبينه، فأمسك بمِعصمها بقوة أرهبتها، وقال بعينين شاخصتين: "عروب" أغلقي عليَّ غرفتي، لا، قيِّديني. إنهم يسحبونني إليها.

ثم تهاوى على الأرض، فقامت سريعاً بسحبه من ساقيه، وأدخلته إلى الغرفة، وأغلقت الباب.

صرخ بتوجع مجدداً ضارباً رأسه على الأرض، يصرخ: لا تتركيني أخرج، لا تدعيني أذهب من هنا. لا أريد أن أذهب إليها.

بينما هي وقفت تراقبه بصمت وخوف وقلة حيلة، تدافع دموعَها شفقةً عليه.

لكنه وقف فجأة، وكأنه استعاد نشاطه، وهبّ مسرعاً ناحية الباب.

دفع "عروب" بكل قوته مبعداً إياها، ثم أمسك بمقبض الباب، وأخذ يضرب عليه بقوة كما المجنون لفتحه.

تمالكت نفسها، واندفعت نحوه لتُبعِدَه وهي تجره بيديها، وتقول: طلبتَ مني أن أمنعك، وسأفعل.

لكنها فجأة شعرت بالخدر يتسلل إلى جسدها، وهي تشعر بأسنانه التي غُرزت في كفها حتى تورّمت، حاولت أن تحرر يدها من بين أسنانه، وتدفع برأسه عنها بيدها الأخرى، لكنها

توقفت فجأة عن مقاومته بعد أن رأت الدموع تنساب من عينيه بألم، وأخيراً سمحت لدموعها بالعبور هي الأخرى، واستجمعت قواها، وضربت على ظهره بيدها الأخرى، فأفلتت منه ثم اتجهت سريعاً والتقطت إحدى أوعية الزهور وضربته بها على ظهره، وانهالت عليه بأكثر من ضربة حتى لم يعد يقاوم، وسقط منكباً على وجهه.

اقتربت منه تكتم شهقات بكائها، وجلست بجانبه، رفعت رأسه ووضعته على حِجرها.

بالكاد استطاع أن يفتح عينيه ناظراً إليها، وقال بإعياء: ما زالوا هنا، إنهم يحاولون سحبي، لكن جسدي منهك، ولا أستطيع الوقوف بعد الآن.

كانت دموعها التي تسيل بصمت قد أغرقت خديه وعبرت فمه.

لذا زفر بقوة، وقال: أتبكين شفقةً عليَّ الآن؟!

ازدادت دموعها المنهمرة، فرفعت كفها وغطت به عينيه لئلا يراها، وقالت بصوت واهن: أغلق عينيك الآن، ونَمْ... وحَالَمَا تستيقظ، أعدك بأنك لن تراهم مرة أخرى، أعدك.

في تلك الأثناء، كان "بتّال" يقف أمام غرفة "رائد" بصحبة معلمه "الحارث".

وما إن طرق الباب، وجاء صوته منادياً مِن خلف الباب، قائلاً: "رائد"، هل أنت هنا؟

سريعاً، وَضَعَتْ رأسه على الأرض، وقامت معتدلة وفتحت الباب.

فوجئ "بتّال" من وجهها المحمّر، وآثار الدموع الباقية على خديها، فسأل: "عروب" ماذا أصابك؟

نظرت إلى "حارث" ثم قامت بسحب "بتّال" قائلةً: أريدك للحظة.

شعر بالحرج وهو ينظر للحارث معتذراً: معلمي عُد إلى غرفتي، سآتي إليك حالاً ثم دخل للغرفة معها ووقف ليهاله منظر "رائد" الممدَّد على الأرض بجبينه النازفة، وذاك الزبد الذي يخرج من فمه، التفت إليها، متسائلاً: ما الذي حدث هنا؟

ثم اتجه ناحيته سريعاً، وأخذ يتفحصه، ويكرر: ما الذي حدث له؟

اقتربت منه، وانحنت ممسكة بذراعيه، وقالت: لنحمله للسرير أولاً.

أوقفها قائلاً: سأفعل أنا ذلك.

ثم حمله بين ذراعيه، ووضعه على السرير ونظر إلى وجه "عروب" مجدداً.

لكنْ عيناها بدت وكأنهما تهربان منه، ثم تحدثت أخيراً، قائلة: لقد كان يركض ويصرخ بتوجع ضاغطاً على قلبه، ويضرب برأسه على الأرض، وكان يقول...

صمتت قليلاً وهي تشيح بوجهها ماسحة دموعها، ثم أكملت: وكان يقول إنهم يسحبونه ويجرونه، كما لو أنه قد...

- قد مـــــــــاذا؟!

بتردد أجابت: قد سُحِرَ.

ضرب بيده بغضب على حافّة السرير، وقال: وأنا أعرف ساحرَه..

نظر إليها، وقال: اعتني بجُرحه ولا تسمحي له بالخروج من هنا.

ثم خرج سريعاً متجهاً إلى غرفتها، فتح الباب عُنوة، لكنه لم يجدها.

فخرج يبحث عنها في كل اتجاه، سائلاً كل مَن يقابله حتى تمكن أخيراً من ملاقاتها، كانت تقف مع إحدى إمائها بالقرب من باحة القصر.

أخذ يلهث أنفاسه بإجهاد، ثم قال بصوت يحتقن بالغضب: أين هو؟ أين خبأتيه؟

تغابت وهي تسأل: وما هو هذا الذي تسأل عنه؟

- "بيلســـان"..

قالها وهو يصر على أسنانه، وتابع: لا تتغابي معي، أنت تعرفين جيداً أني أقصد السحر؟ أين خبأتيه؟

- أي سحر تقصد؟

ازداد صوته حِدةً، وهو يقول: "بيلسان"، لا تثيري غضبي، لا أريد أن أمد يدي عليك، السحر الذي سحرتي به "رائد".. أين هو؟

بتهكّم، قالت تستفزه: تمد يدك!! ماذا بعد أن ناديتني باسمي؟!

حاول أن يتمالك أعصابه، فاقترب منها أكثر، ودقق النظر في عينيها بتحدِ، وقال: "بيلسان" للمرة الأخيرة أسألك: أين خبأتِ السحر؟

نظرت إلى عينيه بنظرة استعلاء، وأجابت: لا أعرف شيئاً عن السحر، ولكني استخدمت معه شيئاً من حكمة سليمان.

صرخ منتفضاً: (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ)*.

ثم جذبها من ياقة ثوبها، ورفعها حتى صارت أطراف أصابعها تلامس الأرض، فأمسكت بيده محاولة إبعاده.

فبصق على وجهها، وقال: يا ابنة اليهودية، أتسمين السحرَ حكمةً؟! سأعرف كيف أنتزع منك الجواب.

---

* وما كفر سليمان : المقصود بها ما يعتقد اليهود في أسفارهم بأن سليمان لم يكن نبياً وإنما ملك وكان يستخدم السحر، وهذا افتراء من افتراءاتهم على نبي الله سليمان عليه السلام ..وفي القرآن قوله تعالى : {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ}سورة البقرة آية (١٠٢) .

حينها كان كف "باتر" كان قد أمسك بيد "بتّال" ليوقفه.

فوجئ بوجوده لكن الآخر عاجله بقوله: أخي، لا ينبغي عليَّ أن أعلمك كيف تمسك بالنساء الحسناوات وأنت أخي الكبير، عار عليك أن تمسكها من ياقتها هكذا!!

أطمأنت "بيلسان" لقوله، فدفعت بيد "بتّال" لكنَّ الآخرَ كان قد أكمل قوله: ولكن ينبغي عليك أن تجذبها من شعرها هكذا.

وعُنوةً جذبها من شعرها ثم ركلها بساقه على بطنها فارتدت على الأرض.

نهر "بتّال" أخيه قائلاً: ما الذي فعلتَه؟

فرقع أصابعه وهو يقترب منها، ويجيبه قائلاً: لا شيء، هل تريد مني أن أقلع عينيها الجميلتين أولاً، أم أجذع لها أنفها ، أم أصنع لها شفاهاً أخرى بخِنجري، أم أجلدها من أجلك؟!

حرّكت ساقيها تنتفض في خَوف، محاولة النهوض.

صرخ "بتّال" مُوقِفاً إياه: توقـــــــف، "باتر"، هذا يكفي.

التفت ناحيته، وقال ببرود: لمــــــــاذا؟! إن كنت ستضرب أحدهم، ادْعُوني على الأقل، فما زلنا إخوة.

ابتسم بخفة، وهو يقول: توقف "باتر"، هذا يكفي.

وقفت تنفض ثوبها، وتنظر ناحيتهما بامتعاض، وقالت متوعدةً: أنا لن أسكت عن هذه الإهانة.

ثم استدارت مغادرة لحقها قول "بتّال" مهدداً: وأنا أيضاً لا أعرف إلى أي مدى يمكن للساني أن يصمت!

ثم التفت إلى "باتر" تعلوه بسمة امتنان وهو يقول: شكراً لك "باتر"، لقد فعلت ذلك، كي تبقى صورتي أمام والدي كما هي، صحيح؟

حك شعره بإهمال وهو يستدير للجهة المقابلة، ويقول: من سمح لك بالحديث معي؟!

بينما استدار الآخر للجهة الأخرى وهو يبستم.

وجد "عروب" ماثلة أمامه بعينين خلتا من كل بريق، فارتاب متسائلاً: هل حدث لـرائد شيء؟

هزت رأسها نافية، ثم قالت: سيدي، أنا أعرف مكان السحر!

الفصل الثامن: الحاضر من بعد الغياب

القادمون من أعماق الغياب، لم تكونوا يوماً غائبين، فذاكرتنا كانت وافية بكم، لدرجة يتيه معها الانجلاء.

فتح رائد عينيه بجسد منهك مليء بالكدمات ورأس معصوب، فتح عينيه ليبصر عروب وبتّال واقفين فوق رأسه وعلى محياهما ابتسامة ممزوجة بالراحة، سألت عروب: هل ترى الآن أحداً يقف سوانا؟

ابتسم برضا وقال: كلا.

حاول النهوض عبثاً بالاستناد على ذراعه، لكنه كان لا يزال منهكاً، مد بتّال ذراعه وأسنده على السرير بينما ضغط رائد على جبهته.

وعلق قائلاً: رأسي يؤلمني، وجسدي.

رفع ناظريه حيث "عروب " وقال مازحاً: أما كان عليك أن تكوني أكثر رقة، أشعر بأن ظهري قد شُطر نصفين.

ابتسمت بخجل رغم أن عينيها اختزلتا أسفاً.

وما إن نظر إلى "بتّال" حتى لاحظ أن شخصاً آخر يقف بجانب الباب، حرك رأسه قليلاً محاولاً إبصاره جيداً، فاستدار بتّال مفسحاً المجال لعينيه.

وصله صوتٌ تحدث بالإنجليزية قائلاً: راد، مضى وقتٌ طويلٌ.

شخصت عيناه بذهول، وعقد لسانه، وذاك يقترب منه وذات الابتسامة على محياه وأخيراً كانت خيوط دهشته تنحل عن صرخة : لي .. لي.. "ليونهارد".

ثم قفز من على سريره ليسقط بين ذراعيه معانقاً، داسّاً عينيه الباكيتين على صدره.

عانقه طويلاً، وأخيراً أرخى يديه قائلاً: ليو، لقد افتقدتك حقّاً، تمنيتُ كثيراً لو أنك معي.

رفع رأسه ناظراً إليه ليرى تلك العينين تلتمعان بالدموع، مد يده وضرب على جبينه بخفه، وقال: لا تزال أحمقاً كما كنت.

اقترب "بتّال" معلقاً: إذن، كان حارث هو معلمك!

أومأ رائد بالإيجاب، وعلق: لقد شككت من أسلوبك في المبارزة، لا يمكن أن يكون سوى أسلوب "ليو".

ثم التفت إلى "حارث" وتابع: هل رأيت "ليو"، لقد شككت بأنك أنت معلمه، لكن ما أربكني هو اسمك، "حارث".

أجابه "حارث" قائلاً: صحيح، لقد غيرت اسمي منذ قدومي إلى..

قاطعه رائد وكأنه قد تذكر شيئاً للتو متسائلاً بشغف: ماذا عن "مارغريت"؟

صمت "حارث" للحظات وهو يدقق النظر في عيني رائد المصغيتين باهتمام ثم قال: لقد حدث الكثير، لديّ الكثير لأخبرك به.

حينها علق "بتّال" وهو ينظر ناحية "عروب" قائلاً: أظن أنكما بحاجة إلى الحديث سويّاً، "عروب"، جهزي لضيفنا الشاي الذي يحبه.

ثم التفت إلى "رائد"، وقال بلهجة ساخرة: وحضِّري لرائد شاي البابونج.

رفع "رائد" احدى حاجبيه، وقال: سأسكبه على وجهك.

بتهكم علق: وما الذي تستطيع فعله وأنت مصاب هكذا! ليس لك إلا أن تشرب دواء يريح جسدك، والبابونج مفيد من أجلك.

التفت "حارث" إلى "رائد"، وقال بعربية ضعيفة بعض الشيء: لو لم تكن تعصب جبينك، لضربتك عليه، يبدو أني موعود بالتلاميذ الحمقى.

ضحك "بتّال" وهو يتجه ناحية الباب مغادراً ويقول: وأنا الذي كنتُ أظن أني كنتُ أكثر من ضُرب على جبهته من "حارث".

ثم أغلق الباب خلفه.

فسح رائد مكاناً لحارث بجانبه فجلس بقربه قائلاً: تمددْ "راد"، يجب عليك أن ترتاح.

- دعك من هذا الآن.

نظر إلى عينيه بشغف، وسأل: ما الذي حدث؟ أين "مارغريت"؟ ومنذ متى وأنت هنا؟ أنت تتحدث العربية حتى!!

لقد صدمني ذلك كثيراً، ولا أظني قادراً على استيعاب كل ذلك، كيف " لليو" أن يصبح كالعربي هكذا فجأة ويرتدي هذه الثياب؟!

علق "حارث" قائلا: ما زلت كما أنت "راييد" ثرثار، هبني الفرصة لأجيبك.

أجابه ساخراً: "ليو" رغم أنك أصبحت تتحدث العربية، ولكني لا أريدك أن تنطق اسمي هكذا، ناديني "رائد" أو استمر بقول "راد" فهذا أفضل.

مد يده بسرعة خاطفة ليضرب جبينه، ولكنه خفضها قبل أن تلامس جبهته معلقاً: كدت أضربك، أصبحت عادة متأصلة لدي، لقد اشتقت لها فعلاً.

رقت عيناه بمشاعر عميقة وأتم: "راد"، لقد اشتقت إليك كثيراً، ولكن ألم تأخذك الساعة الزمنية لعصرك؟ كيف عدت إلى هنا مجدداً؟!!

ابتسم رائد مدققاً النظر في عينيه، وقال: "ليو"، هل أنت تخفي شيئاً؟ لمَ أنت متردد في إخباري؟!!

أشاح "حارث" وجهه قليلاً، فتابع "رائد": ماذا عن "مارغريت" بعد أن تركتكما؟

وقف "حارث" معتدلاً ثم قال: الحقيقة، أود أن أعتذر منك، لقد أضعت "مارغريت".

ثم التفت إلى "رائد" الذي كانت ملامح وجهه مصدومة فتابع:
بعد أن تركتنا أتممنا رحلتنا باتجاه "بيين"، مكثنا هنالك لأشهر، بحثاً عن أي خيط لعائلة "مارغريت"، في النهاية أخبرنا رجل مسن كان صديق والدها، بأن والدها ووالدتها قد توفيا، ولكنه أخبرنا أيضاً بأن جدة "مارغريت" من أصول عربية، وبأنها تعيش في بيت المقدس.

لذا قررت مارغريت أن تذهب إلى هناك، وقد حملت مسؤولية إيصالها على عاتقي من أجلك "راد" ولكن ما حصل أنه ما إن اقتربنا من بيت المقدس حتى وقعنا في شرك عصابة من قطاع الطرق كانت تتاجر بالعبيد، لم أستطع "راد" حمايتها آنذاك، ولم أستطع مقاومتهم وحدي بأعدادهم الكثيرة، في النهاية رضخنا لهم وقادونا إلى "بغداد"، في البداية كنتُ أقابلها بالسوق، بعد ذلك اختفت فجأةً ولم أعد ألتقي بها، حاولت البحث عنها، وسألت مالكها السابق، وعلمتُ أنه قد باعها لرجل من "البصرة"، وبسبب وقوعي في الرق لم أستطع السفر، لكن ما إن حررني سيدي حتى سافرت إلى "البصرة" بحثاً عنها، ولكني لم أجدها، أنا آسف "رائد".

حاول أن يخفي خيبته وارتباكه فأشاح بوجهه وهو يقول: لا بأس..

ثم صمت للحظات يفكر ثم عاد لينظر إليه ويقول: لكن ألا تعتقد بأن الوقت مبكر على الاستسلام؟!!

باهتمام نظر إليه، فأردف "رائد" وقد علته ابتسامة ثقة: ألستَ مديناً لي؟ أحضر لي تلك الطفلة إذن.

خفض "حارث" رأسه مُخفياً ابتسامة جميلة بدت على شفتيه، وأجاب: لقد كبِرت لم تعد طفلة، صدقني، ستذهل حينما تراها.

وبعينٍ متقدة أتم: علي سداد الدين إذن، سأعود إلى البصرة بحثاً عنها، دع هذه المهمة لي.

أحنى "رائد" رأسه بيأس، وبدت عيناه كما لو أنهما عالقتان في ذكرى توجعه، وقال: الآن فقط، شعرت بمدى صحة ما قالته "مارغريت" حينما عرضتُ عليها الهرب من الطبيب، لقد كانت محقة ، حتى لو كنت تملك الرغبة، هنالك شيء يقيدك، لا تستطيع تحطيمه بسهولة.

حك حارث ذقنه وهو يقول: وأبو العلالي، لا يبدو أنه سيساوم عليك، ولو أعطيته ألف درهم.

أطرق بعينيه للأعلى، وقال: ألا يعدّ هذا سخفاً "ليو"، أصبح عبداً فقط لأن أحدهم قيدني وباعني؟! أي ظلم هو ذا؟

- ولكن كما أرى، فإنه لا يعاملك هكذا مطلقاً، أنت حقّاً مذهل كما كنت، تستطيع خطف القلوب سريعاً، أرى "بتّال" يعاملك كصديق.

بعينين بدتا ذابلتين علق ساخراً: ألا تعتقد بأن هذه الصفة أيضاً، قد تجر لعناتٍ على صاحبها.

ضحك وعلق بسخرية: لا أُومِن باللعنات "رايد".

- ليو، ألم أخبرك بأن تتوقف عن مناداتي هكذا.

عاد ليقترب منه، ووضع كفه تحت رقبته يتحسس حرارة جسده، ثم قال: حرارتك مرتفعة ثم ألم أقل لك إني قد غيرت اسمي، الآن أصبح اسمي "حارث".

- لمَ غيرت اسمك صحيح؟

- ألم أقل لك سابقاً إنني لم أكن أومن بالصلب والبعث.

بدت على محياه البهجة وهو يقول: كنتُ أعلم بذلك "ليو"، كنت تظهر إعجاباً بصلاتي وبكلامي دوماً.

ضربه على رأسه بخفه، وقال: لا تغتر، لم يكن لك دور بذلك، احتكاكي بالناس هنا و"بالطوسي" جعلني، أجد الإجابات عن أسئلتي.

حك جبينه معلقاً: ما زلت قاسياً "ليو"، أشعر بأني سأذرف الدموع الآن، التقيتَ بالطوسي وأنا لم ألتقِ به، سأبكي حقّاً.

حينها كانت "عروب" تطرق الباب مستأذنةً للدخول، فسمح لها "رائد"

قدمت لحارث كوب الشاي ثم اتجهت إلى رائد لتناوله الكوب.

قال معترضاً: أبعديه عني، أنا لن أشرب هذا الشيء أبداً.

- لكن سيدي، حرارتك مرتفعة!!
- لمَ "راد"؟ عليك أن تشرب البابونج لتخفض حرارتك!

قالها "حارث" مستنكراً، فأجابه: كل ما في الأمر أني لا أستسيغه.

التفت "حارث" إليها وقال: لا عليكِ، ضعيه هنا سأرغمه على شربه.

بتهكم قال: وكأني سأسمح، لن أفتح فمي شبراً.

اقتربت منه ووضعته على المنضدة التي بجانب السرير، وما إن رفعت يدها حتى لمح رائد معصمها الأيسر المتورم أثر عضته لها تحت تأثير السحر.

اكتست عيناه نظرة ندم، تنبهت له، فشدت كمها لتغطيها وابتسمت قائلة: لا عليك سيدي، إنها لا توجعني، ستتحسن سريعاً.

أطرق برأسه خجلاً قائلاً بأسف: أنا شخص فظيع حقاً، أنا لم أشكرك حتى!!

هزت رأسها نافية وقالت بحرج: لا داعي، فقد ضربتك بشدة وأحدثتُ كدمات فظيعة لك على ظهرك، أنا من يجب عليه أن يعتذر.

ابتسم لها مظهراً امتنانه، فاستدارت مغادرة بينما وقف حارث وآثار الدهشة على وجهه، وما إن أغلقت الباب حتى قال

متسائلاً: راد، ما الذي يحدث هنا؟ أريد أن أفهم؟ لمَ هي قامت بضربك؟ هل هي التي أحدثت الجرح على جبينك أيضاً؟

أجابه باستفزاز: ألا تعتقد "ليو" بأنك قد أصبحت ثرثاراً مثلي، امنحني فرصة.

علق باستهزاء: من يصاحبك سيصبحك مثلك أكيد.

بنظرة جادة قال: إن أخبرتك "ليو"، هل ترحمني ولا تعطيني هذا الشراب؟

اقترب منه وجلس بجانبه منصتاً باهتمام، فتحدث "رائد" قائلاً: هل سمعت سابقاً بلعنة البيلسان؟

الفصل التاسع: "بخفي حُنين"

نحن نبصق على الأرض ونركل ما أمامنا، كنوع من التعبير عن رفضنا، ولكننا في الحقيقة، نبصق ونركل ضعفنا.

كان اليوم هو اليوم المقرر لخروج قافلة الحج من "بغداد".

تأهب "رائد" مستعداً لرحلته، ولبس ثوباً أبيضاً وعصب بطنه بحزام علق به سيف الكيليج الذي استعاده من بتّال سابقاً.

طُرق باب غرفته وظهرت من خلفه "عروب"، فحياها ببسمته، خفضت رأسها وقالت: سيدتي تطلبك.

عبس وجهه وجلس على الأرض يرتدي نعله وعلق قائلاً: ماذا تريد؟!

هزت كتفيها بصمت دون أن تجيب، فاتجه ناحية المرآة، وعدل شعره بيده مرجعاً إياه إلى الوراء، لكن سرعان ما عادت خُصل منه تتدلى على جبينه معلنة العصيان ثم نظر إليها وقال: سأتبعك الآن.

لكنها كانت قد دخلت الغرفة ووقفت بمحاذاته وقالت: سيدي، أنت لا تسرح شعرك جيداً، هل أقوم بذلك لك؟

صمت ولم يجبها فالتقطت مشطاً وتابعت: إن سمحت؟

جلس وبدا مرتبكاً وعلق قائلاً: هو دائماً ما يزعجني، أحياناً يسقط على عيني؟

وضعت المشط على شعره وأخذت تسرحه وقالت معلقة: لقد طال عن أول يوم قابلتك فيه، حينما تعود من رحلتك للحج، سأقصه لك، أنا أعتني دوماً بشعر سيدتي.

التفتَ إليها وقال بامتنان: شكراً لك.

- بقي شيء واحد.

اتجهت نحو الدولاب وهو يراقبها باستغراب، وأخرجت عمامة فرفع رائد يديه معترضاً وقال: مهلاً، أنا لا أحب ارتداءها، ستعيقني أكثر من شعري.

اقتربت منه وانحنت عليه قائلة: سأعصبها على رأسك، لئلا يسقط شعرك.

ابتسم باستسلام وهو يقول: لا أعتقد بأن أحداً بإمكانه قول لا لك.

عقدتها من الخلف ونظرت إليه في المرآة وقالت: ولــــــــمَ؟

ثم تبعتها بضحكة وقالت باستهزاء: تقصد بأني لا أستطيع أن أقول لشخص لا.

هز رأسه نافياً وأجاب: بل عنيت ما قلته تماماً، فأنا أرى خلف ظهرك جناحاً.

للحظة توقفت مندهشة مما سمعته للتو ثم تداركت ذلك وقالت معلقة بسخرية: ماذا، هل ما زلت ترى خيالاتك تلك سيدي!!

وقف وهو يقول: ربما..

ثم نظر إلى عصبته تلك وقال: وأشعر بأن رأسي قد ثقل، ولكن لا بأس، لننطلق.

ثم سارا سويّاً نحو غرفة "بيلسان"، وما إن وصل وطرق الباب مستأذنا بالدخول، جاءه الإذن سريعاً ودخل تتبعه عروب.

كانت "بيلسان" تجلس أمام المرآة تُسرح شعرها إحدى خدمها.

ظل "رائد" واقفاً بصمت يشعر بأنها تراقبه من مرآتها الكبيرة تلك، فانشغل يعبث بأصابع قدميه، لدقائق منتظراً أن تتحدث بأي شيء، ولكن ما إن يأس حتى رفع رأسه مستجمعاً قواه وقال: سيدتي، يجب علي أن ألحق بسيدي الآن؟

أدارت رأسها نصف استدارة ناظرة إليه بطرف عينيها وقالت: أعرف.

ثم عادت لتنظر في المرآة، والخادمة لا تزال تسرح شعرها.

كتم غيظه بقلبه وهو ينظر إليها والعديد من الأفكار تقتحم عقله.

ما الذي تعنيه بـ "أعرف"؟ هل تريد تأخيري عمداً؟ أم تريد أن تفتعل مشكلة إن خرجت الآن دون أن أستمع لطلبها؟

وقفت أخيراً وأشارت لخادمتها لتعطيه قماش موضوع على المنضدة، فأسرعت وقدمته إليه، فقالت هي: خذه منها وألبسه، إنه عباءة.

فغر فمه عن كلمة (لكن) معترضاً، لكنه سرعان ما ابتلع ما بعدها وأخذها وقام بارتدائها.

كانت عباءة بنية اللون مقلمة بخطوط طويلة، يتخللها اللون الذهبي.

ثم تقدمت نحوه وما إن وقفت أمامه حتى مدت عقد وضع في منتصفه حجر من الفيروز الأزرق وقالت: انْحَنِ.

رفع "رائد" احدى حاجبيه مظهراً رفضه واستنكاره وهو يقول متسائلاً: عذراً سيدتي، أهذه "تميمة" ؟ أنا لا أحتاج..

فهمت ما يرمي إليه فقاطعته قائلة: إنها مجرد حجر كريم.*

بتردد أحنى رقبته وعلقته فيه، وما إن رفع رأسه حتى قالت: عد وأنت بخير، جعل الله دربكم آمناً.

رفع إليها طرف عينين باهتتين ثم أومأ برأسه مستأذناً للخروج.

وما إن خرج، حتى أمسك بالفيروز يتأمله، وأوشك أن يخلعه ويقذف به، فسمع قولاً من خلفه يقول: لا تقلق، هو ليس كما تفكر..

---

* حجر كريم: ارتبطت العديد من الأحجار الكريمة بعدة خرافات واعتقادات في ديانات لشعوب العالم. وحجر الفيروز عرف عند أغلب الشعوب بأنه طارداً للعين وكان عند شعب المايا اعتقاد سائد بأنه طلسم للوقاية من الأخطار ،وكذلك اعتبره قدماء المصريون بأنه جالب للحظ والحماية وعند العرب يطلق عليه بحجر الظفر لذات السبب ولا يزال بعض الناس يعتقدون بأنه يدفع الحسد والعين أما عند بعض الشعوب فالفيروز أيضاً تعويذة للحب وله دلاله إن أعطاه الرجل للمرأة فهو وكأنه يضع عربون محبته في يديها ، بالطبع هذه كلها محض أساطير

التفت إليها، كانت "عروب" تقف بوجه مبتسم وأكملت: هو "فيروز"، وهو أغلى أنواع الأحجار هنا، لا عليك هو لا يقدم ولا يؤخر ولكن مع هذا، يسميه الناس هنا حجر الظفر، لذا يتقلد به بعض الناس في المعارك، لكن ربما تكون هي رسالة لك منها مبطنة بأن تعود سالماً.

علت شفتيه بسمة ساخرة وهو يعلق قائلاً: ومن يهتم برسالة منها؟! يا لها من امرأة!!

أخفاه تحت ثيابه وابتسم وهو يلوح لها بكفه مغادراً ثم انطلق حيث كان سيده بانتظاره يقف مع مجموعة من العبيد والجِمال المجهزة للسفر.

وكان "جلال" أيضاً راكباً على جَمَله هو الآخر.

ما إن رآه سيده حتى علق قائلاً: لقد تأخرت كثيراً، اركب لنلحق بالقافلة.

أمسك "رائد" بلجام الجمل وهو يتذكر كيف وصل به إلى "بغداد" أول مرة وهو مقيد. وعلق متسائلاً: ولكن لمَ الجِمال؟!

- إنها رحلة طويلة يا رائد، الجِمال أقدر على تحمّلها.

وما إن هم بركوبه حتى سمع صوتاً منادياً عليه من بعيد: معـــــــــــلمي.

كان بارع يجري نحوه قافزاً إليه يعانقه، وفي عينيه تلتمع الدموع.

ثم رفع عينيه وهو يغالب دموعه قائلاً بعتب: هل كنت ستذهب دون حتى أن تودعني؟ أهكذا يعامل المعلم تلامذته؟

مسح على رأسه برفق وهو يقول: آسف "بارع"، يصعب علي توديعك.

- ومع هذا كان عليك إخباري، أنا غاضب بالفعل.

أغلق فمه بيده وقال: الدرس الذي ستتعلمه اليوم، عليك ألا تضغط على معلمك.

لكن دموع "بارع" كانت تسقط على كفه وهو يهز رأسه بالموافقة ثم ارتمى يعانقه من جديد، ورائد يمسح على رأسه برفق.

علق أبو العلالي قائلاً: يكفي يا "بارع"، لقد تأخرنا.

ابتعد قليلاً عنه وأكمل والده معلقاً: كما أرى أنك تعانق معلمك بشدة أكثر مني، أصبحت أشعر بالغيرة.

ابتسم وهو يمسح دموعه مستديراً، ثم أطلق ساقَيْه مغادراً.

وهكذا خرجت من "بغداد" يومئذ قافلة كبيرة سائرة للحج وفي مقدمتها كتيبة من الجند لحراستها وقافلة أخرى تجارية خرجت نحو "البصرة" وكان على متنها حارث بحثاً عن "مارغريت"،

حاملاً معه الساعة الزمنية حيث أودعها إياه "رائد" فيما إن استطاع أن يعرضها على عالم من علماء "البصرة".

وأيضاً خرج من "بغداد" يومها جيش كبير بقيادة "بتّال" لدحر تمردٍ أعلنه والي "سر من رأى"* على أمير بغداد.

الرحلة الأولى للحج لا تزال تعبر في خاطره، عارضة أمامه صوراً لذكريات جميلة تتشكل، حين كان مرافقه زين يتكئ على أحد أعمدة الحرم النبوي ويقول: تخيل رائد لو أننا نسافر على متن جمال؟ متى سنصل؟

فيجيبه رائد بفلسفته المعتادة: هذا يعتمد على الحقبة التاريخية التي ستسافر فيها.

يشيح الآخر بوجهه عنه معلقاً بسخرية: لن ننتهي إذن.

والآن ها هو يعاين الجواب بنفسه، حيث مضى شهران والقافلة ما زالت تعبر الطرق البرية والوديان عابرة قرى عديدة.

وفي كل مرة كانت تنزل القافلة في إحدى المدن أو القرى، يرى ذات المشاهد وفي خاطره لا شيء سوى كلمة واحدة "لا إسلام هنا"

---

*١: سر من رأى : اسم مدينة سامراء قديماً وكان اسمها (سر من رأى)، وقد بناها المعتصم العباسي سنة (٢٢١ هـ /٨٣٥ م) لتكون عاصمة دولته وهي تشتهر بجامعها ومئذنتها الملوية .. وتبعد ١٢٥ كيلومترا شمال بغداد.

فالتفرقة الطبقية، غناء فاحش، وفقر مدقع، جوع وتشريد وجلد للعبيد أمام مرأى الجميع، وتعلق القلوب بالأموات، والتماثيل المنصوبة على الطرقات، فهذه للشيخ الفلاني، وتلك للصحابي جليل ، والعديد من تماثيل الخيول المجنحة يقال بأنها تمثل "البراق"، هذا ما يمكنك ملاحظته وأنت عابر فقط، وما أخفته البيوت والأوكار كان أعظم.

على مقربة من نجد، وصلت القافلة وقرر أميرها أن تقف على مقربة من إحدى القرى للتزود ببعض اللوازم وتم بعث رجال من الكتيبة، وكذلك ذهب "رائد" و"جلال" بصحبتهم سائرين على الأقدام من أجل بعض الأشياء التي طلبها منهما السيد أبو العلالي.

وما إن وصلوا القرية وكانت الشمس قد أوشكت على المغيب.

حتى أهالهم منظر رجل معلق على نخلة، وقد قطعت أطرافه، لم يستطع "رائد" النظر وأشاح بعينيه سريعاً بينما اتجه بعضهم ووقف ينظر إليه والبعض مضوا قدماً ليدركوا الخبر.

أمسك "جلال" بكفه قائلاً: رائد، لنلحق بهم.

لكن "رائد" عاد ليسترق نظرة إليه من بعيد ثم عاد ليثبت عينيه تجاهه بذهول مما لاحظه للتو، اقترب منه أكثر وإذ به يجد أثر احتراقٍ حول جرح على كتفه، وآخر على فخذه، كان أثر الحرق به واضحاً أكثر.

وَجِلَ قلبه مما طرأ في ذهنه للحظة، فإن كان ما يشك به صحيحاً فهذا يعني أنهم أمام قوة لا يمكن هزيمتها بسيوفهم.

التفت إلى "جلال" قائلاً: هذا لا يمكن أن يكون جرحاً أحدثه السيف.

دون اكتراث أجابه "جلال" قائلاً: من يهتم الآن بماذا قتل، سواء برمح أو سيف أو خنجر، الواضح أكثر، أن من قتلوه جعلوه يعاني كثيراً، فهم لم يصيبوه في مقتل بغية تعذيبه.

عض على شفتيه وأشاح وجهه عنه ثم انطلق مع "جلال" بخُطى ثقيلة ليدرك من سبقوهما، اللذين بدا على وجهوهم خيبة وبعضهم كساه الهم والحزن.

فسأل "رائد": ما الذي جرى هنا؟

أجاب أحدهم: لقد غزتهم مجموعة مسلحة لا يعرفون لها اسماً، فسرقوهم وقتلوا العديد من الرجال والنساء؛ بل حتى الأطفال، من الأفضل لكما ألا تتقدما أكثر، فالأرض مليئة بالجثث هناك.

صرخ "رائد" مستنكراً: كيف ذا، كيف يحدث ذلك؟!! ألا يوجد لديهم على الأقل رجال موكلون من أميرهم لحمايتهم؟

وضع "جلال" كفه على كتف "رائد" لتهدئته وقال: "رائد" عن أي أمير تتحدث؟ إنها قرى معدِمة، وأميرهم لا يأبه بحالهم على أية حال، وهي ليست الوحيدة التي يحدث لها ذلك. بعضها أيضاً تهلكها الأوبئة ولا أحد يلتفت إليهم.

بصق على الأرض مظهراً انزعاجه، وهكذا نحن في اللحظات التي يغالبنا فيها الضعف نبصق على الأرض ونركل ما أمامنا، كنوع من التعبير عن رفضنا، ولكننا في الحقيقة نبصق ونركل ضعفنا.

ثم تقدم نحو القرية فأوقفه "جلال" بقوله: إلى أين، من الأفضل لنا أن نعود إلى القافلة.

أجابه مديراً ظهره له: سألحقك فيما بعد.

- ما الذي ستفعله؟

استدار قليلاً دون أن ينظر إليه وأجاب: على الأقل، سأساعد المفجعون بدفن موتاهم.

ثم سار في طريقه فتبعه "جلال" وبعض الرجال، بينما عاد الآخرون إلى القافلة.

عاد "رائد" و"جلال" بعد منتصف الليل، عاد "رائد" ليحمل صوراً علقت في ذاكرته لا يمكن محوها، صوراً مهما أراد محوها أو إنكارها ستقف شاهدة على تجرد الإنسان من انسانيته.

وفجراً كانت القافلة تتابع سيرها، وما إن انتصف النهار، حتى التقت القافلة بقافلة صغيرة عائدة، تناقلتا الأخبار فيما بينهما، فقد عادت القافلة الأخرى بعد أن سمعوا بوباء قد تفشى حول المدينة ومكة.

لذلك توقفت القافلة عن التقدم واجتمع أميرها مع كبار القوم وكان من بينهم أبو العلالي.

وكان نقاشهم فيمَا إن كانوا سيكملون الرحلة، أم يتوقفون بسبب ما وصلهم من خبر الوباء؟

رد أحدهم معترضاً: خرجنا من ديارنا نريد الحج ولن نعود قبل أن نؤديه.

بينما قال آخر: لا يدخل الطاعون مكة والمدينة، هذا افتراء.

علق أحدهم: ولكنه قال فيما جاورها، وسنعبر نحن تلك الأماكن وربما يتفشى فينا فنهلك جميعاً قبل أن نصل إلى مكة وهذا خطر.

نظر أميرهم إلى أبو العلالي وقال: نريد أن نسمع رأيك يا أبو العلالي.

صمت قليلاً ثم أجاب: أنا أرى ألا نتعجل، وأن ندفع بمجموعة من خيرة فرساننا يسبقوننا ليتأكدوا من الخبر بأنفسهم من أقرب مدينة، فإن كان صحيحاً رجعنا، وإن كان كذباً مضينا.

وقف أميرهم مختتماً الاجتماع بقوله: إذن القول ما قاله أبو العلالي، سنختار من خيرة فرساننا ونبعثهم قبلنا.

وهكذا مضت عدة أيام والقافلة لا تزال في مكانها تنتظر الخبر حتى أتاها أخيراً صحة ما وردهم، فما كان لهم إلا أن يعودوا

تاركين أحلامهم وآمالهم بزيارة بيت الله معلقة إلى حيث لا يعلمون ثم أقفلوا عائدين إلى "بغداد" بخفي حُنين.

الفصل العاشر: الجمال الذي يعبر قلوبنا

من قال " لا " في وجه من قالوا " نعم ".

من علّم الإنسان تمزيق العدم، من قال" لا "

فلم يمت وظلّ روحاً أبديّة الألم !

(أمل دنقل من قصيدة كلمات سبارتاكوس الأخيرة)

بعد أن عادت القافلة ووصلت إلى بغداد.

كان رائد يسير برفقة سيدة وجلال عابرين من سوق بغداد الكبير.

وفي تلك الأثناء لفتت انتباه "رائد" امرأة ترتدي ثوباً كرزيّاً بأكمام بيضاء وفي خصرها لفت حزاماً بقطع معدنية دائرية، تماماً كذلك الثوب الذي اشتراه "لمارغريت" في تلك الرحلة الأخيرة.

فأطلق ساقَيْه نحوها، ليوقفها، جذبها من ذراعها، التفتت إليه وعلامات الذعر بادية على وجهها.

شعر بخيبة وهو ينظر إلى ملامحها، حيث لم تكن هي.

فأطلق ذراعها بحرج معتذراً: آسف يا سيدتي، ظننتك شخصاً أعرفه.

بانزعاج واضح قالت بتهكم: وهل توقف هكذا من تعرفه؟!! لقد أوجلتني.

خفض رأسه بخجل واعتذر مجدداً ولكنها ما إن أدارت ظهرها حتى عاد وسألها: مهلاً سيدتي، من أين اشتريتِ هذا الثوب؟

التفتت إليه بملامح غاضبة وهي تجيبه: أهذا سؤال؟! من السوق طبعاً.

ثم تابعت طريقها لكنها توقفت فجأة وعادت أدراجها لتقول: لقد تذكرت، هذا الثوب اشتريته من امرأة قابلتها في "سر من رأى".

شعر ببصيص من الأمل يتسلل إلى قلبه مع أشعة الشمس التي أشعت بينهما حينها فسأل بشغف: هل تذكرين كيف كان شكلها أو أي شيء يميزها؟

رفعت عينيها لليمين قليلاً ثم قالت: بذكر هذا الآن، صحيح تذكرت كان على أنفها وتحت عينيها نمش خفيف.

بشغف سأل: ولون عينيها؟

- خضراء، كلا رمادية على ما أظن.

علت شفتيه بسمة انشراح، وضع سيده كفه على كتفه متسائلاً: ماذا هنالك "رائد"؟

نظر إليه بعينين برقتا بدموع تتطلّع بعيداً بعيداً نحو الشمال وقال: سيدي، أرجوك أريد أن أكاتبك*.

لم يجب على طلبه المفاجئ هذا سوى بوجه آثر الصمت.

---

*المكاتبة:هو أن يطلب العبد من سيده أن يفتدي نفسه بثمن مؤجل يدفعه له.

بعد ذلك عاد "رائد" ليجد نفسه مستوحشاً القصر، "فبتّال" لم يعد بعدُ من معركته، ولكن الأخبار وصلت بأنه قد تمكن من دحر تمرد أمير "سر من رأى" ثم عبر بعدها إلى بقية المدن المجاورة، أما "الحارث" فلا أخبار بشأنه.

كانت الأيام ثقيلة تمر على "رائد" فيومه كان بين تدريبات في مركز المبارزة وتدريبات رماية مع "جلال" أما بقية اليوم فيقضيه مع "بارع" لتعليمه أو مرافقته في شوارع "بغداد" أو هرباً وتحاشياً لنظرات "بيلسان" وطلباتها التي لا تنتهي.

كان يشعر وكأن قلبه قد اختال إلى هوة عظم سوادها ويأسها، فعطب معها أي أمل وضوء.

كان قادراً على إبصارها كل صباح وهي تراقبه من شرفة غرفتها وهو يلوح بالسيف في الباحة .

كان قادراً على رؤية ابتسامتها وهو يفغر فمه ضحكاً حد أذنيه مع "بارع".

كان يدرك تماماً أنها قد شغفت به، فهل نحن قادرون على إلجام مشاعر غمرتْ قلباً حتى لو أبيناها؟!

في كل مرة يشعر فيها بذلك كان يلوّح بسيفه عالياً، عالياً، وكأنه يضرب به خذلان ألبسه على بغتة، وخيانة شجبها على حين بدء، فأن تُنعت بالخذلان خيرٌ من أن تغمر بالندم.

ذات يوم كان السيد "أبو العلالي" يستعد ليرتحل إلى البصرة للتجارة ومعه مجموعة من الرجال.

لم يكن يومٌ أغم على قلب "رائد" من ذلك، فالفوهة التي اختالت إلى سواد عطب معه الضوء والأمل، هوت فيها روحه وبقيت أسيرة الظلمة.

ذهب إليه "رائد" ليلتمس منه جواب طلبه الأخير عل من حبال للأمل تخرجه من تلك الفوهة.

قابله عند البوابات وما إن رأى رائد حتى ترجل من خيله واتجه نحوه.

وبقلب أب مد يده وعانقه بين ذراعيه قائلاً: آسف "رائد" فأنا لم أجبك بشأن طلبك الأخير، سأقول لك أنت لن تحتاج إلى ذلك، سنتان فقط حتى يبلغ "بارع" الحادية عشرة، بعدها أنت حر.

أرخى ذراعه وقال: لكن سيدي ؟

لكنه سرعان ما طأطأ رأسه خجلاً ما إن أبصر وجهه الباسم، فطاوع أمره دون اعتراض.

وفي عينيه يختزل الكلمات، أن تنعت بالخذلان، خير من أن تغمر بالندم.

في وقت العصر خرج "رائد" من المكتبة سابقاً "بارع" حيث اتفقا أن يذهبا إلى السوق سويّاً، وأثناء طريقه وفي أحد الرواق

أحس برائحتها التي تطوقه بالاختناق تقترب، لحظات حتى وقفت "بيلسان" بمحاذاته.

أمال رأسه إليها لتحيتها، لكنه قبل أن يتمكن من رفع رأسه كانت قد آوت برأسها على صدره، مرسلة ذراعيها للأسفل بإنهاك.

شخصت عيناه بذهول، وتلفت حوله ليرى تلك الأعين وهي تفترسهما، وتدينه بالذنب!!

مد يده محاولاً إبعادها لكنه لم يشأ لمس كتفيها فقال بحرج: سيدتي، ماذا تفعلين؟ الجميع ينظــ..

دون اكتراث قاطعته قائلة وكأنها مغيبة عن وعيها، غير أبهة بمن حولها: ما الخطأ في ذلك؟!! ما الخطأ الذي ارتكبته لتكرهني هكذا؟

ثم رفعت ذراعيها بوهن وطوقت خاصرته بعينين تنظران في اللاشيء، واسترسلت في غيابها: ما الخطأ في أن أحبك؟!! ما الخطأ في ذلك؟!!

لف يديه إلى ظهره وأمسك بمعصميها محاولاً إبعادها وهو يقول بارتباك: سيدتي، توقفي، لا ينبغي أن تفعلي ذلك..

لكنها قد طوقته أكثر وبدا صوت بكائها يصل إلى أذنيه، وأخيراً خضع لها فأرخى يديه منهزماً، استكانت قليلاً ثم قالت: علمني إذن كيف أكرهك؟

صمت مطلقاً عينيه إلى السماء.

ذاك الشعور الذي نبهم عن تصنيفه، الحب أو الكره؟!

والذي كلما أوجدنا له سبباً، دكه آخر، وتركنا نلتحف الحيرة.

وأخيراً فغر عن فمه بكلمات: هل أنتِ مضطرة إلى كرهي؟

فرجت عينيها مصغية باهتمام فتابع: يمكنك نسياني فقط، واعتباري خطأ لا يستحق الوقوف عنده، وستكرهينني حينها، يمكنك أن تري بعين عقلك، أنني أضعفتك لحد الوهن، يمكنك أن تدركي الآن وأنت تتشبثين بي هكذا، إلى أي حد ينبغي عليك أن تكرهيني، شخصاً أوجعك و أهداك ألماً، يمكنك وحسب، أن تكرهي من خذلك. هذا سهل.

يمكنك أن تدركي أني مجرد شخص مزرٍ لا يليق بمقامك، أو مجرد شيطان أغواك لا يمكن لإحدى يديه أن تصلك.

رفعت رأسها قليلاً قبل أن تسيل دموعها بصمت وتقول: لكنك لست كذلك، ما من شيطان هنا سواي.

وبوهن أفلتت ذراعيها وحررته، لكنها رفعت يدها اليسرى ووضعت كفها على قلبه وقالت: ماذا إن عذبتك؟ أو قتلتك؟

ثم رفعت رأسها لتلتقي عيناها بعينيه اللتين شعتا بأضواء وكأنها محراب يبتدئه الطهر وينتهي إليه.

فأجابها بثغر يبتسم برضا: لن أوقفك، إن كان ذلك سيجعلك تكرهينني.

أبعدت ساقَيْها خطوة عنه، بوجه خال من أي تعبير.

عاد ليرسم على شفتيه بسمة، وأمال رأسه باحترام ثم غادر من أمامها.

في تلك الليلة ما إن أخلد "رائد" إلى النوم حتى استيقظ ليجد سيفين مسلطين على رأسه.

انتفضت عيناه هلعاً، فهؤلاء الرجال ليسوا سوى عبيداً في القصر!!

تحدث أحدهم" لا تقاوم رائد وامتثل لنا، قم واقفاً"

نظر لنصل السيف القريب جدّاً من رقبته وقال بتهكم: وهل تخال أني قادر على ذلك والسيف مسلط علي هكذا؟

رفع سيفه وتبعه الآخر مبعداً سيفه أيضاً، فنفض "رائد" اللحاف سريعاً، ولم ينتبها عليه إلا حينما كان واقفاً بالمنتصف مستلاً سيفه هو الآخر بتأهب.

سأل: ما الذي يحدث هنا؟ لمَ تقتحمان غرفتي، وتسلطان سيفيكما علي؟! أريد أن أفهم ما الذي يحدث هنا؟

شعر بوخز شيء حاد على ظهره، وقبل أن يلتفت سمع صوتها يقول: لا شيء "رائد"، أريد فقط أن أكرهك.

ما إن أدرك صوتها حتى فوجئت به يستدير ليصبح أمامها مباشرة وخنجرها مسلط على بطنه، فاقترب منها أكثر دون خوف، فابتعدت هي بخطوة فدفع بنفسه أكثر نحوها حتى خدش الخنجر بطنه خدشاً طفيفاً، فاهتز الخنجر من قبضتها.

أنفاسها ضاقت وعيناها دارتا في غضب ممزوج برهبة من عينيه اللتين كان ضوء حجر الفيروز ينعكس فيهما محيلاً لونهما إلى زرقة متوهجة ألقت في قلبها الرعب.

أمسك بمعصمها المرتجف، وقلب الخنجر جاعلاً نصله عليها موجِّهَه نحو وجهها وقال: لمَ ترتجفين الآن؟ لمَ شفتاك ترتجفان هكذا؟ ولمَ عيناكِ ممتلئتين بالدموع؟ إن أردت قتلي حقّاً.. فلمَ تترددين؟!!

حاولت أن تتحرر من قبضة يده لكنها لم تستطع فصرخت: قيداه..

اقترب الخادمان مشهرين سيفهما بحذر، لكن "رائد" كان قد ترك معصمها ليسقط الخنجر منه ثم ألقى بسيفه على الأرض وقال: لقد وعدتك بأنني لن أوقفك، لكن عليك أن تكرهيني سريعاً وتقتليني سريعاً.

سقطت على الأرض جاثية على ركبتيها، عضت شفتيها تدفع بكائها ثم قالت: عليك أن تدفع ثمن عذابي هذا، عليك أن تجثو على ركبتيك معتذراً لي.

بعدها اقتِيد "رائد" إلى مكان لم يره من قبل وبدا وكأنه سجن، ولم يكن كأي سجن، قيدت رجلاه بالحديد ورفعت يداه بسلاسل من حديد، وبقي معلقاً هكذا.

ثم سمحت لهما بالانصراف ووقفت أمامه بعينين منهزمتين وهي تستقبل ابتسامته الساخرة على شفتيه وهو يقول: أما وإنك قد علقتني هكذا، سأجعلك تكرهينني سريعاً.

كزت على أسنانها وهي تجيبه: لن يكون هذا، قبل أن أنتزع هذه النظرة الساخرة منك، حينما تجثو على ركبتيك طالباً مني تخليصك.

بتهكم: أخشى أن تسقطي أنت على ركبتيك بعجز قبل ذلك، أنت حتى لم تدفعي بخنجرك سنتيمتراً واحداً.

شعرت بالمهانة وبعجز أبت أن تظهره فرشقت الماء على وجهه.

فتح نصف عينيه وقال محاولاً استفزازها: أهذا كل ما تستطيعين فعله؟!! رشقي بالماء فقط؟!!

صرخت بغضب: توقف، توقف عن استثارة غضبي واستفزازي.

قرّبت من خده الخنجر وقالت متوعدةً: لأني لن أتردد مرة أخرى في طعنك.

متعمداً مال برأسه إلى الأمام قليلاً ليجرح نفسه فنزف الدم من خده.

أبعدت الخنجر بوجل وشعرت بالغضب يتفجر في أوردتها، فأمسكت ببرميل الماء ورشقته مرة ومرة وأخرى وهي تنتحب دموعها.

ثم جذبته من ياقة ثوبه ورفعت رأسها إليه في كبرياء قائلة: أنتَ لمَ تلعب معي دور يوسف؟ لمَ علي أن أكرهك؟ لم علي أن أقتلك؟!! لمَ تدفعني إلى الجنون؟!! أي رجل كان سيخضع لي وأنا التي وهبتك الفرصة!! هل تعرف كيف يعني، أن تظل تراقب أحدهم من بعيد، أن تشعر بقلبك يمتلئ شغفاً به، وتظل معلقاً بالانتظار!! ولكنك كلما اقتربت منه ابتعد وابتعد وابتعد، إلى حيث يصعب بعد ذلك اللحاق به.

أتدرك ذلك؟ أتدرك ذلك حقّاً؟ هل أحسست بمدى فظاعة هذا الشعور؟ بمدى وجعه؟ لمَ رضخت لي الآن، لمَ تجبرني على كرهك وأنا فارغة دونك.

ثم شهقت ببكائها، وتابعت وهي تدفع أنفاسها مع بقايا كبريائها المجروح:

أعطني قلبك فقط، أعطني إياه فقط وسأغفر لك.

أجابها بعينين متسعتين بضوء ينتشي بذات المحراب، محراب الطهر، قائلاً: لا أذكر أني طلبت منك الغفران، لا تغفري لي سيدتي، لا تغفري لي أبداً.

دفعت به بقوة وهمت بأن تصفعه، لكنها أوقفت كفها قبل أن يلامس خده قائلة: ما زلت تلعب دور يوسف معي؟!

علته بسمة ذابلة وهو يجيب: لست بطهارة نبي الله يوسف أبداً، فيوسف كان قلبه كله لله.. أما أنـــــا..

رفع عينيه إليها وأتم: فقلبي ليس بملكي.

ضربت على صدره بتتابع وبقوة وهي تصرخ بانهيار: كذب، كذب، أنت تكذب، سيجعلك الجوع والعطش كلباً مطيعاً.

ثم استدارت مغادرة المكان، تاركة إياه معلقاً.

وحينما بزغ الفجر، شعر رائد بوقع أقدام تقترب منه، فتح نصف عينيه لكنه لم يتمكن من تمييز ما يراه، شعر بماء انسكب قريباً من شفته ثم شعر بيد مُدت نحوه وأسندت رأسه ووضعت وكاء القربة وثبتته في فمه وسقته الماء، شرب بنهم وما إن شعر بالارتواء، حتى تمكن من تثبيت رؤيته ليراها تقف أمامه بوجه شاحب وعينين واجمتين فقال بصوت مجهد: عروب؟ لمَ تفعلين ذلك؟! لو علمت السيدة..

قاطعته قائلة: هذا كل ما أستطيع فعله، لا تنتظر مني أكثر.

ثم قربت القربة من فمه وقالت: اشرب حتى ترتوي، لن أستطيع القدوم إلا في مثل هذا الوقت.

ابتسم وقال في سخرية: إلى متى تنوي تلك المجنونة تعليقي هنا؟

بعينين تهربان فغرت فمها عن قولها: أخبرتك سابقاً بأن تختفي، فلمَ عدت؟!

فتح عينيه على اتساعهما، لكنها لم تهبه فرصة للرد ووضعت وكاء القربة في فمه لإسكاته وقالت: اشرب.

ثم غادرت المكان دون أن تنظر إليه.

وفي الليلة الثانية، عادت "عروب" كما فعلت في المرة السابقة وسقته الماء دون أن تتحدث بأي كلمة لكنها ما إن أدارت ظهرها حتى فتح رائد نصف عينيه بإعياء شديد بدا على ملامحه وقال بصوت مجهد: لقد كبرت تلك الأجنحة.

ابتسمت وفي عينيها دمعة وقالت دون أن تلتفت إليه: أنت تهذي مجدداً.

ثم غادرت المكان.

وفي الليلة الثالثة كان الخدر قد سرى في جسده وأطرافه، وكان الإجهاد والتعب جليّاً على وجهه.

قدمت "بيلسان" وبرفقتها "عروب" وكان ذاك المعلق غارقاً في إعيائه للحد الذي لم يشعره بوجودهما حتى رشقت "بيلسان" الماء على وجهه.

وتساقط الماء من على شعره عابراً على عينيه وفمه، فتح نصف عينيه وما إن رآها حتى ارتسمت على شفتيه بسمة

شاحبة وقال بأنفاس متصاعدة وصوت منهك: أنت ترشقين الماء بوجهي بإسراف سيدتي، وأنا أشعر بالعطش.

رشقته مرة أخرى ونهرته قائلة: ما زلت تستفزني، يبدو أن الجوع والعطش لثلاث ليال لن يروضك.

بالكاد رفع رقبته قليلاً، نظر إليها يختزل كلماته في أعماقه ثم ضحك بإعياء، وضحك، وضحك.

بينما وقفت هي في حيرة تغالب دموعها، تضغط على شفتيها اللتين تكادان تفضحانها بالبكاء.

ثم نطق أخيراً: مازلتِ تنظرين إلي بعينين دامعتين، مازالت يداكِ ترتجفان، كم ستستغرقين من الوقت لكرهي؟!! بإمكانك إبقائي هنا دون أن تظهري هذا الوجه الباكي أمامي، وسأموت أنا بصمت.

ثم دندن بصوت بالكاد يكون مسموعاً وكأنه يهذي: من علم الإنسان تمزيق العدم، من قال " لا " فلم يمت.

رفعت رأسه بيدها وقالت: يا للبؤس!! يا للحماقة!! أما كان من الأسهل عليك أن تهبني قلبك؟!!

أغلق عينيه بإجهاد، زفر الهواء لأكثر من مرة قبل أن يجيب: سيدتي، لقد احترمتك وقدمت لك الولاء والطاعة، حتى ذلك الحجر ما زلتُ أعلقه على صدري رغم انزعاجي منه، الحقيقة كنتُ قادراً على رؤية مشاعرك في كل مرة تنظرين فيها

نحوي، كنتُ قادراً على قراءة تلك المشاعر جيداً، لكن ما لم تستطيعي أنتِ قراءته في عينيّ..

فتح عينيه لتلتقيا بعينيها الدامعتين وأتم: إنني أُفضل أن أنعت بالخذلان على أن أغرق بالندم، أنا أضعف من أن أخون ذلك الوجه الباسم الذي عانقني كابن له، أنا أرفض أن أخون سيدي.

صرخت بصوت مبحوح: لمَ.. لمَ تقول ذلك، أنا لا أفهم؟ كان أي رجل سيهيم بجمالي؟ لمَ تصر على لعب دور الطاهر؟ لمَ تحيط نفسك بمحراب لا يمكنني الصعود إليه حتى لو جئت أتلو فيه صلوات توبتي؟

أغلق عينيه وقال بتهكم: سيدتي، جمالك، جمالك لم يكن انبهاري به ليتجاوز عينيَّ فقط.

بالكاد فتح نصف عينيه وهو يزفر أنفاسه، ناظراً إلى ما وراءها حيث فُتح له باباً من ذاكرته وصوت ضحكات يشي بقلبه فرحاً قد اشتاق إليه.

فأردف قائلاً: جمالك سيدتي لم يكن ليعبر قلبي، ذاك الجمال الذي لا نستطيع أن نرى أنفسنا من خلاله محال أن يعبر قلوبنا، محال..

أما ذاك الجمال الذي كصفحة الماء أيما نظرتِ إليه وجدتِ نفسك تنعكسين فيه بكل صفاء وعذوبة، تجدين نفسكِ وكأنك تندمجين فيه، يغالبك بطهره ونقائه، وكيف وأيما غرفت منه بيديك فلن تجدي سوى الصفـــــاء....

يا لصفائها حين ينبلج ثغرها عن ابتسامتها العفوية الممتزجة بروح طفلة تتملكها البراءة وتعانقها!!

ذاك الجمال في صفحة الماء يسمو ويسمو و يسمو في درجات السماء فيصبح سحاباً، يخرج منه الودق فيقع على قلبي فأرتوي به، بقدر ما منحني من ارتواء، بقدر طهره، بقدر صفائه وبقدر جماله الذي لا يمكن لعينيك أن ترياه... أحببته..

غشيت الدموع عينيه وهو يتم: أحببته بالقدر الذي جعلني لا آبه أمامه بخفض رأسي أو مناداته بأي لقب، فمعه لا أشعر بأي فرق، كلا، بل لا أشعر بأن لنا روحين مختلفتين وإن كان خارجنا يضج بالتناقضات، أسحبه من كم ثوبه متى شئت، راكضاً معه إلى حيث أريد أنا، وفي الطريق يمضي معي دون أن يكترث لأحد، أدفعه بتهور إلى أن يخلع كل ثياب ماضيه ليمسك بكفي ونسير إلى مستقبل نجهله، لكن عينيه تفيضان ثقة بي، أضرب على جبينه، أدس رأسه بالطاولة وأعفره بالتراب وأستفزه غضباً كلما رأيته، فهل تعتقدين بأنه بعد ذلك ارتفع زهواً وراح في سمائه وتركني؟!! كلا، بل أمطرني بالضحكات، أمطرني بالحب.. أشعرني بالاهتمام.. أحدث ضجيجاً بإيقاع عذب في قلبي، ما زلت أستمع إليه كلما أغمضت عينيَّ، من الصعب علي نسيانه.

فتح عينيه على اتساعهما وأتم: هذا هو الجمال الذي لا تملكينه أنت، الجمال الذي يعبر قلبك قبل عينيك.

أزاحت يدها عنه تدفع خيبتها وانهيارها وانهمرت دموعها منهزمة أمامه وعلقت وهي تهز رأسها رفضاً للحقيقة: أنت أحمق، سأنزع هذا القلب منك إذن.

رفع رقبته بإنهاك وقال بتهكم: وهل ستضعينه بعلبة بعد ذلك ليصبح تذكاراً على هزيمتك!

صرخت وهي ترفع خنجرها نحوه: توقف عن استفزازي، هذه المرة لن أتردد.

ابتسم بسخرية وهو يرفع طرف عينيه نحوها وقال: إن كان كذلك، فلِمَ لا أزال أراك ترتجفين؟ أنت غارقة بدموعك؟ لا بل إني أستطيع أن أرى قلبك وهو ينتفض داخل صدرك بألم، أتراه قد أدرك الآن أنك تشعرين بالندم؟! أو لأقُلْ إنه قد أدرك أنك قد هزمـــــ... .

لم يكد يكمل كلماته حتى كان الخنجر مستقراً في بطنه، أغمض عينيه وضغط على أسنانه بتوجع ثم فتح عينيه بأنفاس متلاحقة ليرى يديها تمتلئان بدمائه وهي تنتفض بوجل فعلق قائلاً بنفس متقطع: أهذا... فقط أقصى حد تستطيعين الوصول إليه؟ أنتِ لم تفعلي شيئاً.

نظرت إليه بعينين تصرخان ندماً، وشفتين ترتجفان، تنتحب ببكائها، تخرج صرخة عالية متوجعة ثم بانهيار سحبت الخنجر وهمت به مجدداً.

لكن "عروب" كانت قد طوقتها حينها من الخلف لتوقفها صارخة : توقفي سيدتي، ستقتلينه، جسده لن يصمد أكثر، توقفي أرجوك.

حاولت أن تفلت منها وتبعدها وهي تصرخ : ابتعدي عني، ابتعدي.

لكن الأخرى كانت تصر على موقفها ولم تتحرك وظلت تشد عليها أكثر وبصوت يضج بالبكاء صرخت: هذا يكفي سيدتي، لن أتركك تتمادين أكثر، أرجوك عودي إلى رشدك.. يكفي هذا.. يكفي..

وكزتها بكوعها مرة وأخرى، لكنها لم تتحرك خطوة واحدة وظلت متشبثة بها دون كلمات ولا شيء سوى صوت نحيب بكائها.

وأخيراً صرخت بكلمات وكأنها بثت في روح الأخرى القوة لأن تتراجع، القوة لأن تدرك خطأها وتتوقف: "رائد" لم يخطئ في شيء، لقد فعل ما هو صحيح لك، "رائد" أراد حمايتك.

وحينها فقط توقفت عن مقاومتها وأسقطت الخنجر من يدها وجثَتْ!!

في النهاية كانت هي الجاثية أمامه على ركبتيها، تنتحب وتشهق بينما وقفت "عروب" تمسح دموعها وتدفع بكاءها هي الأخرى، وهي تنظر بفزع إلى الأرض التي امتلأت بدماء "رائد".

اقتربت منه، وفكت قيد يديه، فسقط منكباً على وجهه بجسد مخدر من الألم ثم حررت ساقيه فاستند على يده يدفع نفسه بإعياء زاحفاً على الأرض عابراً من أمامهما ، ماسحاً دماءه بساقيه التي يجرهما جراً حتى خرج من الغرفة، حاول جِزافاً أن يقف مستنداً على ركبتيه لكن الإنهاك سرعان ما جعله يهوي على الأرض، حاول مرة أخرى وأخرى لكنه تهاوى مجدداً وقبل أن يسقط في الثانية كانت يدان قد أمسكتا به.

بعينين لم تبصران سوى ظلال أمامه أدرك أنها "عروب"، أسندته على الجدار وفكت حزامها وضغطت به على الجرح في بطنه ثم ربطته به ثم أوقفته وأسندته على ذراعها ودفعت به للسير معها، زفر أنفاسه بألم وسأل: أما يجب عليك أن تعتني بتلك المجنونة؟

- لقد أمرتني بأن اعتني بك.

لف رأسه ناحيتها وقال: لقد فعلت ذلك من تلقاء نفسك، أصبحتُ مديناً لك كثيراً، فكيف أجازيك؟

ابتسمت بألم دون أن تنظر إليه وقالت: فقط... لا تفقد وعيك حتى نصل.

ضحك بإعياء ثم أطلق صوتاً متوجعاً وعلق قائلاً: لا أستطيع أن أضحك..

لكن أتعلمين؟! سأشعل ثورة كسبارتاكوس* من أجل أن تتخلص "عروب" من هذا الألم في وجهها.

أدارت برأسها نحوه والدموع تسيل على وجنتيها تخترق شفتيها الباسمتين وقالت: أحمق!! تقول ذلك وأنت على شفا الموت!!.

زفر بألم ثم قال: من علّم الإنسان تمزيق العدم، من قال " لا " فلم يمت..

وظلّ روحاً أبديّة الألم! هل تعلمين أنها كلمات "سبارتاكوس" الأخيرة؟

أجابته بصوت يضحك ويبكي في آن واحد: أبداً، لقد أخطأ، ليست أبدية الألم. رائد، لقد جعلت روحك أبدية الطهر.

توقف فجأة ووضع يده على فمه باصقاً دماً.

اهتزت عيناها بخوف فشدت عليه ودفعت به للمشي تجره وهي تشعر بثقل خطواته أكثر وأكثر من ذي قبل فقالت: لا تفقد قوتك

---

*: سبارتاكوس (ولد سنة ١٠٩ ق.م - وتوفي سنة ٧١ ق . م) كان سبارتاكوس عبدا من رقيق الإمبراطورية الرومانية.. علم سبارتكوس في مدرسة للعبيد كيفية مصارعة الوحوش في ملاعب روما لتسلية الرومان، وفي سنة ٧٣ ق.م نظم ثورة للعبيد في تلك المدرسة، وانتشرت أنباء نجاحها بسرعة في مختلف أرجاء البلاد، وسرعان ما أنضوى تحت لوائه الآلاف المؤلفة من العبيد، ونادوا بزعامته لهم ، وأرسل مجلس الشيوخ عدداً من الجيوش لمحاربته ، فأنتصر عليهم جميعاً.. م أسندت القيادة إلى ماركوس لوشيوس كراسوس، فهُزم سبارتاكوس عام ٧١ ق.م، وقُتل في المعركة.

الآن، عليك أن تتقدم وتتقدم أمامك، ألا ترى أنها تقف بانتظارك؟

فتح عينيه بإجهاد وقال متسائلاً: من تقصدين؟

ابتسمت وأجابت: تلك التي كنت تصفها بالسحاب.. ألم تكن "مارغريت"؟

توقف فجأة مندهشاً، فدفعت به وقالت: أخبرني عن "سبارتاكوس" أكثر حتى نصل؟!

أغلق عينيه مستكناً وعلق قائلاَ: أستطيع أن أوقن لك أني هذه المرة لا أهذي، "عروب"، أنا أُمسك بجناحيك الآن حقّاً.

الفصل الحادي عشر: بلا أجنحة

أسوأ الخيارات هي تلك التي تتساوى معها حدي الهزيمة.

اللحظات التي نتوجس منها بريبة، قاذفين بها بعيداً عن قناعات انتظارنا.

الأيام التي لا نرتئي منها الخلاص ونقبلها بوجه باهت، فقط لأنه علينا أن نعبرها للآتي.

تلك الأيام لم تعبرنا يوماً بالجديد؛ بل بندم كنا له من قبل مدركين.

في ذات السجن ذاك، كانت "بيلسان" معلقة بذات الطريقة، التي عُلق بها "رائد"، ليوم كامل دون أن يدخل جوفها ماء أو طعام، بعد أن علم جميع من في القصر بتلك الحادثة.

بينما كان "رائد" لا يزال يتعافى أثر جرحه، يغط في سبات عميق دون أن يدرك ما الذي يحدث حوله.

وقبل حلول الفجر، كان ثمة شخص قد دخل إلى تلك الغرفة، مقرباً الماء ليسقي "بيلسان".

فتحت عينيها بإجهاد، لتجد "عروب" تقف أمامها بوجه باسم.

ابتسمت بسخرية وقالت: الشقية !! أهكذا كنتِ تسقين رائد؟!! كنت أعلم بذلك "عروب".

أومأت برأسها مجيبة بـ "نعم"، بينما كانت دموعها تعبر وجنتيها مارّةً بشفتيها الباسمتين.

أدارت رأسها عنها بكبرياء وقالت: لا تورطي نفسك بي، لا تقلقي فالسيد لن يدعني هنا طويلاً، حتى لو ضربني، حتى لو أراد قتلي، يجب علي أن أدفع ثمن جنوحي ذلك، لقد أخطأت "عروب"، أخطأت كثيراً..

قربت وكاء القربة من فمها وقالت: سيدتي عليك أن تشربي الماء وحسب.

فتحت فمها وهي تدفع دموعها مجيبة بـ "نعم" ثم شربت حتى ارتوت.

استدارت "عروب" مغادرة وقالت دون أن تنظر إليها: لم يكن جرحه عميقاً وهو يتعافى الآن.

ابتسمت وهي تغمض عينيها دافعة دموعها.

وبعد الفجر، كان السيد "أبو العلالي" قد دخل إلى المكان وبيده سوط.

وما إن رأته، حتى أدارت برأسها عنه قائلة: لا تقلق سيدي، مهما تألمت فإني سأحرص على ألا ترى وجهي فتشفق علي.

عض على شفتيه بقهر وقال: لمَ فعلت ذلك "بيلسان"؟ أين ذهب عقلك؟!! كنتِ الأجمل والأكثر حكمة بين النساء؟ لمَ فعلتِ ذلك؟ لقد مرغتِ سُمعتي بالتراب؟ لقد قتلتني بذلك.. أتعرفين؟

أدارت وجهها إليه وابتسمت بوهن وهي تقول: والقاتل يقتل سيدي، سأقبل قصاصك.

زفر أنفاسه بصوت مرتفع ورفع السوط عالياً ثم هوى به عليها فأصابها في كتفها الأيمن، أخفَتْ توجّعها، وأغمضت عينها باستسلام ثم هوى بالثانية على كتفها الآخر، لكنها صرخت هذه المرة بتوجع.

وما إن رفع يده مرة أخرى حتى كان أحدهم يقف حائلاً بينهما، متلقياً ضربة السوط الثالثة بذراعه الذي غطى به على وجهه ثم خفض ذراعه معلقاً بسخرية : خفيف!! أنتَ تضربها برقة.. أبتاه.

أرخى يده في ذهول وقال: "باتر"؟ لماذا أنتَ تقف هناك؟

ورغم أن وجهه كان يصرخ بالحزن، إلا أنه مع ذلك ابتسم وهو يجيبه بذات اللهجة الساخرة : أبتاه، دع هذه المهمة لي، فيداك ترتجفان.

استشاط غضباً، وصار ارتجاف يديه واضحاً، صرخ في وجهه قائلاً: ابتعد، ابتعد "باتر" ولا تتدخل.

استدار نصف استدارة حتى أصبح نصف وجهه على مرأى بصر "بيلسان" ثم حنى رأسه قائلاً : أبتاه، أرجوك أوقف هذا من أجل "بارع" فقط، لقد أخطأت "بيلسان" ولكن مهما نظرنا إلى الأمر من كل اتجاه، فإننا قد شاركنا في ذات الخطأ..

ثم بدا صوته يزداد حدة وهو يتابع: لا يمكنك أن تنكر أبتاه أنك أنت أيضاً قد كنت مدركاً للموضوع من قبل، ولكنك تراخيت

لعدم تقبله ثم مهما فعلت الآن، قتلتها أو أحرقتها أو عذبتها فهذا لن يغيِّر من الحقيقة شيئاً.

رفع السوط عالياً وهو يقول: "باتر"، ابتعـــــــد، "بارع" لا يحتاج إلى والدة مثلها.

خفض رأسه وهو يقول: أبتاه، لا تجبر نفسك على شيء لا تقدر عليه.

ثم رفع عينيه ناظراً إليه وأتم: لقد أخبرتك كان ضربك بالسوط خفيفاً.. آسف أبتاه ولكني لن أتحرك.

حينئذ لم يعد قادراً على المقاومة أكثر وأعلن هزيمته بقذف السوط بعيداً، ثم وقف للحظات يستعيد فيها هدوئه قبل أن يغادر المكان.

فتحت "بيلسان" نصف عينيها بإعياء ناظرة إلى "باتر" الذي التفت إليها بوجه واجم ثم اقترب منها في صمت فحل وثاق يديها فسقطت على الأرض جاثية تلتقط أنفاسها بصعوبة ثم اتكأت على الجدار، تتلمس كتفيها بوجع، زافرة بألم ثم ضحكت، وأخذ صوت ضحكاتها يعلو شيئاً فشيئاً بهستيريا ثم سرعان ما امتزج بصوت بكائها.

كان يراقبها بصمت دون أن يبدي أي تعليق ثم استدار ليغادر، فسمعها تقول: أليس من الغريب أن يأتي ليخلصني أكثر شخص يكرهني هنا؟ يا لها من سخرية، ظننتك ستضربني أنت.

التفت إليها وبعينين باهتتين أجابها: لقد فعلت ذلك من أجل "بارع" ومن أجل أبي، فأبي أراد لشخص أن يوقفه، كما أنه.. لو كان ذلك الرجل الأحمق هنا لفعل ذات الشيء، وإلا فأنت لا تستحقين ذلك. "بيلسان" أنتِ تعلمين أنني الوحيد الذي يدرك كم أنت مُظلمة في أعماقك.

ضحكت بسخرية وقالت: ألهذا الحد تكرهني "باتر"؟

استدار مغادراً، وما إن اقترب من الباب حتى قال: في المرة القادمة التي أقابلك فيها تقفين على قدميك، فإني لن أتوانى عن صفعك لأنير لكِ أعماقك.

ابتسمت بينما هوت دموعها على خديها بصمت.

وفي الظهيرة استيقظ "رائد" بعد أن غفا ليوم دون حراك.

استيقظ ليجد أمامه "عروب" بوجه شاحب وهي تسأل: استيقظت أخيراً؟

حاول النهوض لكن ما إن شعر بالوجع أثر خياطة جرحه حتى استسلم ممداً من جديد.

وتمتم قائلاً: مؤلـــــم.

- هو لم يلتئم بعد، لكن أحمد الله أنه لم يكن بذاك العمق والخطورة.

صمتت قليلاً وكأنها مترددة ثم قالت بعينين هاربتين: لقد أمرني سيدي أن أخبرك بأنه ينتظرك حال استيقاظك.

نهض معتدلاً رغم توجعه واستند على السرير ثم زفر بألم وسأل: عيناك تقولان، إنه قد علم بالأمر؟

أومأت مجيبة بـ "نعم" ثم أتبعت قائلة: لم يعد أحد لم يعرف بالأمر.

أشاح بوجهه عنها وهو يسأل: ماذا عنها؟

أجابته: تنال عقابها.

أحس بحرارة تسري في جسده، تضرب على عينيه، تشعره بألم عجز عن إخفائه، غطى على عينيه براحة كفه المرتجف بخفه قائلاً: أخبريني، أخبريني يا عروب، بأي وجه سأقابله؟ بأي عين أستطيع أن أنظر إلى عينَيْ ذلك الرجل بعد اليوم؟ لو كنتُ أعلم أن الأمور ستصل إلى ما وصلت إليه، لكنتُ فضلت أن أموت على يد خدمها من قبلْ، ما الذي أستطيع قوله "للبارع"؟ بأي وجه سأقابل "بتّال" بعد الآن؟ أنا من دفع بها إلى فعل ذلك في النهاية، لا يمكنني أن ألقي بكل الخطأ عليها، حاولتُ حمايتها لكن كنتُ مخطئاً، مهما قال لي أحدهم إنني لست مخطئاً فإحساسي بالذنب لن يتوارى..

حينها شعر بيدها تجذب رأسه ليستقر على كتفها، لتهبه بذلك كَتِفاً قادراً على أن يلقي بعبئه الثقيل عليه، لم يعترض ولم

يتحرك، وظل صامتاً للحظات دون أن ينبري منه أي حديث، لكن أعماقه كانت تنطق بأحاديث كثيرة.

ربتت عليه وهي تقول: أنت لم تخطئ أبداً، أنت فقط تشعر بالعبء من أجلها، بإمكانك أن تضعه هنا على كتفي الآن ثم تأخذك طريقك إلى الأمام دون أن تلتفت إلى الوراء.

عض على شفتيه يغالب دموعه ثم استسلم أخيراً وأرخى برأسه على ذاك الكتف.

وبكى، وبكى عابراً ذلك العبء.

ومع هذا كانت خطواته ثقيلة وهو يتجه إلى غرفة سيده.

وما إن استأذن بالدخول ووقف، حتى وجد سيده مديراً له ظهره ومن دون أن يلتفت إليه أو حتى يسأله قال: بإمكانك أن تذهب إلى حيث تريد، أنت حر.

احتبس كثيراً من الكلمات بين شفتيه، فالحرية التي أرادها غدت الآن مشوهة، خلت من كل فرح، كان يريد أن يُعبر عن امتنانه لمعاملته الطيبة له، كان يريد أن يعتذر منه لما أحدثه في بيته من ذنب لا يمكن غفرانه، كان يريد أن يقول الكثير والكثير..

لكنه آثر الصمت وأغلق الباب خلفه، ليجد "بارع" واقفاً أمامه بعينين جامدتين ينتحب بألم قائلاً: معلمي، لا تذهب إلى أي مكان، لا تذهب إلى أي مكان وتتركني، خذني معك رجاء.

مسح على رأسه بحنان ثم جلس على ركبتيه وعانقه بقوة وقال وهو يغالب عبراته: بارع سأخبرك بشيء، حينما تكبر.. ربما في يوم ما سأعبر ذاكرتك، وربما حينها ستلعنني، أو ستشتمني، وربما ستبصق بالهواء وكأنك تبصق على وجهي، ومع هذا أريدك أن تتأكد أني....

اهتزت شفتاه وهو يتم: أحببتك بصدق.

حاول "بارع" أن يلف رأسه لينظر إلى عينَيه، لكن "رائد" شد ذراعيه بقوة مخفياً وجهه عنه، باستغراب سأل: ولمَ أفعل ذلك؟ أنا أحبك معلمي؟ أحبك وأثق بك؟

أرخى برأسه على كتفه وقال: لقد حاولت أن أحميك، لقد حاولت أن أحميها، لكنني في النهاية سلبتك الشيء الكثير.

ثم وقف معتدلاً، ربت على كتفه برقة ثم غادر من أمامه، وصله صوته المبحوح قائلاً: ولكني لن أتركك مهما ابتعدت، سأذهب لأبحث عنك، حتى لو لم تكن بالبيت.

عبر الباحة ومر على الجامع ومركز التدريب وطلابه، عبر ليرى نزل العبيد الذي كان يسكنه في بداية الأمر، عبر ليرى دور الصناعة التي صنع فيها السهام ذات يوم، عبر ليجد "جلال" منشغلاً في تعليم غلامٍ للرماية.

عبر ليرى البوابات الأخيرة تُفتح أمامه، ليتجاوزها حرّاً لكن دون جناحين، عبرها مثقَلاً بذكريات مريرة أحدثت ثقوباً في قلبه يصعب برؤها.

سمع صوتاً ينادي عليه من بعيد، فالتفت وإذ "بعروب" تقترب راكضة نحوه تحمل بيديها سيفه .

توقفت أمامه تلتقط أنفاسها للحظات ثم مدت إليه السيف قائلة: أليس هذا سيف معلمك؟

التقطه منها مجيباً بـ "نعم".

مدت كيساً من النقود بيدها الأخرى قائلة: هذا حقك، أمرني سيدي بإعطائك إياه.

هز رأسه رافضاً وقال: لا أريده.

جذبت كفه ووضعته فيه وهي تقول: أنا لا شأن لي، لقد أمرني وعليَّ تنفيذ الأوامر.

ثم أغلقت كفه عليه وقالت: لا تكن عنيداً، سيوفر لك هذا على الأقل منزلاً تأوي إليه، لقد سمعت بأن قافلة ستعود من "البصرة" خلال اليومين القادمين ربما يكون السيد "حارث" على متنها.

لم يُعلق بشيء وعبس ثم أشاح بوجهه مغادراً، لكنه توقف فجأة حين سمعها تقول: "رائد"، لقد سئمت من تنفيذ الأوامر، لذا سأنتظر ثورة "سبارتاكوس".

التفت إليها وابتسم بمرارة وهو يقول: أشكرك على كل ما فعلتِه من أجلي.

ثم غادر بعد أن علق كيس النقود على الأبواب التي أُغلقت خلفه للأبد وفُتحت أمامه "بغداد" بكل شوارعها، بكل أزقتها، بكل أسواقها وحدائقها، فها هو يشتَمّ هواء حريته وإن كانت بلا أجنحة.

الفصل الثاني عشر: الهائم على وجهه

نحن نحتاج إلى الإيمان بحدسنا أحياناً.

يومان في "بغداد"، لا يدري فيهما "رائد" كيف انقضت وغربت شمسها.

كان يسير هائماً في شوارعها، يتمشى في أسواقها ثم يلقي بجسده ممدداً في إحدى حدائقها. بجوف خاوٍ وقلبٍ فرغ من المشاعر ووجهٍ طاوٍ الملامحَ وعينين سُكنتا بالوجع.

وما إن بزغ فجر اليوم الثالث وخرج "رائد" من أحد الجوامع حتى وجد ساقَيْه تجرّه إلى حيث مجموعة من الناس كانوا يرتدون ذات القمصان القاتمة اللون التي رآها المرة السابقة، يتوجهون إلى أحد الأضرحة فتبعهم وظل يراقبهم كما المرة السابقة، حتى انصرفوا تاركين السلال خلفهم.

قفز إلى إحداها لكن يد أحدهم كانت قد امتدت إليها قبله، رفع عينيه ليقول مندهشاً: أنت من المرة السابقة؟

أجابه بحماس: "كنان"، اسمي كنان، وأنت صاحب الإيمان بالفكر، أليس كذلك؟ اسمك "رائد" صحيح؟ أهلاً بك يا صديقي.

ثم مد له يده مصافحاً وألقى بنظرة متفحصة عليه وعلق قائلاً: لكن، تبدو مختلفاً قليلاً عن المرة السابقة؟ هل حدث شيء معك؟

أمسك بطرف السلة بإنهاك وهو يقول: لا فقط أتيت أشاركك هذا؟ عليك أن تضيف إلى فكرة الإيمان تلك أن الأيام دول يا صديقي.

حك شعره وضحك معلقاً: يا إلهي تبدو بائساً جدّاً؟ هل يعني هذا أن نِعم دار" أبو العلالي" قد سُلبت منك؟

باستغراب نظر إليه متسائلاً: كيف عرفت بذلك؟

- لا أحد في "بغداد" لا يعرف أبناء "أبو العلالي"، عرفت ذلك من الصغير.. ولكن أرى أنك أصبحت حرّاً.. تهانيَّ لك.

ندت من شفتيه بسمة مرتاحة وقال معلقاً: وهذا المهم حقاً، أن تتخلص من كل قيودك.

- ومع هذا ثمة شيء قد انطفأ في عينيك، تبدو مع هذا لست سعيداً!

ابتسم ولاذ بالصمت دون أن يجيب.

ثم جلسا مستندين على أحد جدران الضريح وتناولا من الطعام.

ثم شرع كنان بالحديث قائلاً: أتعلم "رائد" منذ ذلك اليوم وأنا أفكر كثيراً في كلامك ذاك.

صمت "رائد" دون أن يعلق ثم نظر إلى عينيه وقال: "كنان" هل تعرف تفسير الرؤى؟

باهتمام سأل: وماذا رأيت؟

- رأيت... مهلاً هل ما زالت منارة جامع سامراء، أعني "سر من رأى" موجودة؟ المئذنة الملوية؟

بوجه بدا متعجباً سأل: كيف تسأل هل مازالت؟ تتحدث وكأنك من زمن مختلف؟! أنت حقّاً غريب!! لقد دمرت المئذنة قبل خمسمائة عام، لا بل أكثر.

أطرق برأسه مفكراً للحظات ثم قال: لقد رأيت وكأني بالصحراء ثم رأيت سحاباً كثيراً وما إن ركضت نحوه حتى رأيته موازياً المئذنة تلك، هل تجد له تفسيراً؟

حك "كنان" ذقنه لحظات مفكراً ثم قال: ربما أنت، ربما.. هل أنت متعطش لرؤية أحدهم؟ أو تبحث عن أحد؟ ربما يكون موجوداً في "سر من رأى" وربما لا.

خفض "رائد" رأسه ناحية الأرض وغرقت عيناه في الرمال سارحة.

ثم تمتم قائلاً: هل من الممكن هذا؟ أم لأن تلك المرأة أخبرتني بأنها ابتاعت الفستان من امرأة من هناك؟ من يدري.

وقبل أن يقف "رائد "مغادراً سأله "كنان": إلى أين؟ هل ستذهب الآن؟ إن الحديث معك ممتع.

التفت إليه مجيباً: لا أعلم، سأعود لأهيم مجدداً في الشوارع، يبدو أني أنتقم لنفسي بذلك.

ثم لوح له بيده مودعاً، لكنه سرعان ما استدار عائداً أدراجه، ووقف أمامه متسائلاً: صحيح، هل تعرف إن كانت ستصل قافلة من "البصرة" اليوم أم لا؟

- نعم ستصل اليوم قافلة، ربما تصل الآن وربما ليلاً وربما غداً.

أومأ "رائد" برأسه مبتسماً ثم غادر المكان، هائماً على وجهه من جديد، منتظراً وصول القافلة بشغف.

لكن القافلة لم تصل حتى فجر اليوم التالي.

ومع أولى ساعات الفجر التي ينبثق بها ضوء الشمس حاسراً الظلام.

وقف "رائد" ينظر إلى تلك القافلة الضخمة والقادمون معها يعبرون أمامه.

كان يبحث في كل اتجاه عن "حارث" وثمة إحساس يخبره بأنه سيجده وحده فقط دونها وكما كان متوقعاً.

أبصره بين جمع من الرجال واقفاً يتحدث فصرخ بأعلى صوته: "ليـــــــو"!

التفت إلى حيث الصوت فظهر له "رائد" يلّوح من بعيد.

ركض نحوه سريعاً وعانقه بشوق، ربت على ظهره وهو يقول: لم أكن أتوقع أني سأجدك هنا، كنتُ أظنك لم تعد من الحج بعد!

رفع رأسه قائلاً: لم نحج ولم ندخل مكة أصلاً، عدنا أدراجنا.

علق قائلاً: يا للخسارة.

ثم صمت وفي عينيه شيء يتحدث فعلق "رائد" قائلاً: لماذا صَمت فجأةً؟ تريد أن تخبرني بأنك لن تجد "مارغريت"؟!

بدا محرجاً وهو يجيب: آسف راد، لكني لم أترك مكاناً لم أبحث عنها فيه، يبدو أنها لم تذهب إلى "البصرة" قط.

ابتسم بثقة وهو يقول: لا بأس "ليو"، أنا أعرف أين هي، فهل ستذهب معي لنكمل حلف المجانين.

- تبدو واثقاً جدّاً، أين تكون؟
- في "سر من رأى".
- كيف تكون واثقاً هكذا؟
- إنه حدس فقط، عموماً هل ستثق بحدسي وترافقني؟

ثم مد إليه كفه، ارتسمت على شفتي "حارث" بسمة جميلة وصافحه قائلاً: أكيد. سأتبعك إلى حيث تريد "رابيد"، ولكن مهلاً.

بدا مستنكراً وكأنه قد استوعب شيئاً للتو وأكمل: ماذا عن "أبو العلالي"؟

شرع كلتا ذراعيه أمامه وهز كتفيه وهتف: أنا حـــــــــــــــر كما ترى، فهل نسافر الآن؟

باغته بضربة على جبينه مازحاً وقال: أيها الأحمق، الإجهاد يبدو عليك، ثم من الأفضل أن نلتحق بجماعة ونسافر معهم فهذا أفضل لنا، لنذهبْ لنرتاحَ في بيتي الآن.

ثم أمسك بكفه ودفعه للسير معه وتابع: ولأن "راد"، يخفي شيئاً ويبدو مكتئباً.

توقف فجأة مندهشاً ثم ابتسم وضغط على كفه وتابع السير.

وأثناء ذلك، أخرج "حارث" ساعة الزمن من جيبه وأعطاها "رائد" قائلاً: صحيح ، لقد أومضت في طريق سفري إلى "البصرة" لقد كادت أن تفضحني، ولكن الحمد لله أن الجميع كانوا نياماً حينها، لقد ومضت بشدة، وتتابعت أضواؤها.

التقطها منه وأخذ ينظر إليها معلقاً: من الغريب حقاً؟

- هل تعرف ماذا فعلت؟ لقد قذفت بها بعيداً، خشيت أن تنقلني كما فعلت بك المرة السابقة..

نظر إليه بنظرات اتهام وصرخ معترضاً: "ليـــــــو"، هل عطلتها بذلك؟

ضحك دون اكتراث وعلق قائلاً: لم أقذفها بشدة لا تقلق ثم إلى متى ستستمر بمناداتي "ليـــو"؟

- حتى تنطق أنت اسمي صحيحاً أولاً.

بجدية قال: صحيح، لقد عرضتها على عالمين هناك، وكلهم كانت إجاباتهم واحدة.

باهتمام نظر إليه منصتاً فتابع: إنه شيء يجهلونه.

دسها بجيبه وهو يقول: لا بأس "ليـــــو"، من الطبيعي أن يكون ردهم كذلك.

ثم توقف فجأة وعيناه تنظران إلى السماء وأتم: ربما لن أكون بحاجة إليها الآن.

بعد ذلك وصلا إلى بيت "حارث" وقضيا الليلة فيه.

وفي صبيحة اليوم التالي كانت "بغداد" تستعد لاستقبال موكب جيشها الذي قاده "بتّال".

كانوا يعبرون شوارع "بغداد" في مسيرة حاشدة متجهين إلى قصر الوالي، يتقدمهم "بتّال".

وقف "رائد" يسترق النظر إليهم من بعيد.

أمسك "حارث" بكتفه لافتاً انتباهه إليه وقال: ألن تذهب لتزوره قبل أن نرحل غداً؟

هز رأسه نافياً وابتسم قائلاً: أبـــــــداً..

لكنه ظل يراقبه حتى ابتعد عن مد بصره.

وفي صباح اليوم التالي كان "رائد" و"حارث" قد جهزا أمتعتهما استعداداً للسفر.

وما إن وقف "رائد" عند الباب منادياً: "ليـــــــو"، ما الذي تفعله حتى الآن؟ سنتأخر هكذا.

- أكاد لا أصدق أنك سترحل دون أن تأتي لرؤيتي؟!

لم يكد "رائد" ليستوعب الصوت الذي سمعه للتو، التفت وعلامات الصدمة بادية على وجهه ليرى "بتّال" واقفاً شارعاً ذراعيه قائلاً: ما بك؟ حتى أنك تقابلني ببرود بعد كل تلك الأشهر!! هل أقر الآن بأنك صديق فظيع؟!

عيناه اللتان كانتا مصدومتين بدأتا تضيقان شيئاً فشيئاً، ابتسم ثم عض على شفتيه يدفع دموعه، فعلق "بتّال" قائلاً: هل سأظل مادَّاً ذراعيَّ هكذا، ألن تعانقني، ألم تشتق إليَّ؟

مد الآخر ذراعيه معانقاً إياه وقد انهمرت دموعه وهو يقول: كيف تقول ذلك؟! لقد اشتقت إليك كثيراً.... "بتّال".

بعد ذلك ودع "رائد" "بغداد" ولوح بيده مودعاً ذكرياته فيها برفقة "حارث" متجهين نحو "سر من رأى".

الفصل الثالث عشر: السحـــــــاب.

سرعان ما تشتاق السماء إلى سحابها.. فتمتلأ بها.

ها هي "سر من رأى" تفتح أبوابها لهما بعد رحلة شاقة، ليصبح "رائد" و"حارث" في وسطها، يسيران سويا، بعد أن استطاعا أن يجدا غرفة لهما في دار أحد سكانها.

كانا ينطلقان كل يوم باحثين في أسواقها وحدائقها دون جهد وكلل.

لم تكن "سر من رأى" بجمال "بغداد"، لكنها أيضاً لم تكن تخلو من الحدائق والنوافير والأقواس العالية والطرق الممهدة والقصور الجميلة.

وذات مرة وبينما "رائد" يسير برفقة "حارث" في أحد الأسواق وسط زحام من الناس. ارتطم كتفه الأيسر بأحدهم، ما إن التفت حتى لمح بعينيه تلك التي ارتطم بها وهي تعتدل عابرة إياه، اتسعت حدقتا عينيه ومُلئتا بالدهشة فاستدار سريعاً، وجذبها من كم ثوبها مجبراً إياه على الوقوف.

ما إن شعرت بتلك اليد التي تجذبها حتى قالت قبل أن تلتفت: آسفة لم أنتبـــه.

وما إن أكملت استدارتها لتقف أمامهما حتى فغر حارث فمه من الدهشة وهتف ببهجة: "مارغريت" هذه أنتِ.. أيُعقل هذا؟

حركت عينيها نحو حارث للحظة ثم عادت لتنظر إلى ذاك الذي كان لا يزال ممسكاً بطرف كمها غارقاً في لج الصدمة، وعيناه تفيضان بالكلمات، وأخيراً دفعت دموعها التي تجمعت في

مقلتيها معتمة رؤيتها وفغرت شفتيها عن قولها: هل ما أراه حقيقة؟! راد.. أنت.. رائد؟

أرخى يده وغطى بها عينيه وقال: ليو، هل أنا أحلم؟ أرجوك أخبرني بأني لستُ أحلم.

اقتربت منه وأزاحت بكفه لتظهر من خلفها هي بشعرها الأشقر الطويل، وبوجهها الطفولي. وعينيها الرماديتين الضيقتين، وشفتيها الرقيقتين اللتين ترسمان ابتسامة خجلة لا يمكن أن ترتسم إلا على وجه "مارغريت" وقالت: إنه ليس بحلم، إنها أنا حقاً. لا تزال أحمق كما كنت.

غطى فمه وأنفه وأخذ يضحك بصوت يزداد علوه شيئاً فشيئاً ثم قال معلقاً: يا لها من سخرية، تلك الطفلة قد كبرت للحد أن طولها أصبح مقارباً لطولي!! من كان يتوقع ذلك؟!أشعر بأني لازلت أحلم. متى كبرت هكذا؟

ضحكت هي الأخرى بخجل ثم وضعت يدها على خاصرتها ورفعت احدى حاجبيها، وبعينين تفيضان بالدموع قالت هازئة :ذلك الأحمق لم يتغير به شيء، ما زال طفلاً كما أرى.

ثم رفعت إليه عينين تختزلان شوقهما وقالت: لقد ظننت بأنني لن أقابلك مجدداً.

لم يُجبها بشيء واكتفى ببسمة تختزل ذات الشوق.

وأخيراً حركت رأسها قليلاً ماسحة دموعها وقالت: أكاد لا أصدق كيف عدت إلى هنا؟ ولماذا؟!

أجابها وهو ينظر إليها بذات البسمة قائلاً: كل ما في الأمر، أن الساعة الزمنية قد أعادتني إلى هنا.

التفتت إلى "حارث" قائلة: سيد "ليـــــو"، لقد مضى وقت طويل. اشتقت إليك حقّاً.

أومأ برأسه وقال: لقد بحثتُ عنك كثيراً، لم أكن أتوقع أنك هنا، ظننتُ أنك قد ذهبت إلى الشام.

هزت رأسها نافية وقالت: كلا ولكني كنتُ ناوية، لكن كيف عرفتما أنني هنا؟!

- "راد" خمن ذلك.

قالها وهو يشير إليه بعينه فالتفتت إليه فأجاب: لم أخمن ذلك، لقد رأيت سحـــا.. كلا، لقد رأيت امرأة ترتدي فستانك ذاك الكرزي، هل تذكرينه؟ أخبرتني بأنها اشترته من امرأة قابلتها في "سر من رأى" ثم وصفتك لي.

- صحيح.. لقد حدث ذلك.

صمتت قليلاً وقد شاب عينيها نظرة حزينة وهي تقول معتذرة: لم أكن أنوي أن أُفرط به، لكن كنتُ بحاجة إلى بيعه ثم أنه قد قصر علي.

ضرب على كتفها بخفه وقال: لا بأس، سأشتري لك غيره ، كان سيئاً على أية حال.

- ألم تقل إنه كان جميلاً؟!

أدار بوجهه عنها وقد ظهرت على شفتيه بسمة وقال ممازحاً: متى؟ وأين؟ ما زلتِ تتخيلين الأمور كما السابق.

وضع "حارث" كفه على كتف "رائد" وقال مازحاً: بأي مال ستشتري لها الثوب؟

التفت نحوه مجيباً: بالطبع من مالك "ليـــو"، مصيري أن أظل مفلساً دوماً، ومصيرك أن تعطيني.

ثم ضحك بملأ فيه فتبعه "ليـــو" و"مارغريت".

ثم صمت ورفع عينيه ناظراً إلى السماء التي كانت ممتلئة بالسحاب، فعلت شفتيه بسمة وقال: هل حقّاً ثلاثتنا نقف الآن سويّاً؟! حلف المجانين قد اجتمع مجدداً.

الفصل الرابع عشر: مرة أخرى

ما الذي يجعلنا نهاب عبور لحظة تتأرجح فيها الاحتمالات؟!! هي سَتعبُرُنا في النهاية، شئنا أم أبينا!

كانت "مارغريت" قد اشترتها امرأة كبيرة بالسن لتعمل على تمريضها والاعتناء بها، لكن بعد ذلك أعتقتها لتنال حريتها، لكن ظلت "مارغريت" مع ذلك تعمل عندها، وتمكث بمنزلها.

وكانت أيضاً تقوم بمداواة المرضى في حيها الذي تقطن به شمال "سر من رأى".

في صباح اليوم التالي قدم "رائد" لملاقاتها بعد أن اتفقت معه على أن ترشده إلى منزل عالم فيزيائي تعرفه.

وما إن قابلته حتى سألته: أين السيد "ليــو"، لمَاذا لمْ يأتِ معك؟

- لقد ذهب ليشتري طعاماً لعشاء الليلة.

استدارت وهي تقول: لا بأس، أنتما مدعوان اليوم عندي، لقد أخبرت السيدة "أسماء" بذلك ورحبت بكما.

وما إن سار سويّاً حتى لاحظ رائد أن "مارغريت" لم تكن تعبر من مكان حتى يحييها الجميع إما ملوّحاً لها بيده أو بابتسامة.

وكان الأطفال كلما رأوها اندفعوا نحوها معانقين وينادونها "بماري" اختصاراً لاسمها.

وبينما كان "رائد" يسير خلفها، ينظر لشعرها الذي قد طال كثيراً حتى وصل إلى آخر ظهرها وقد عقدت أطرافًا بسيطة منه وتركت الباقي.

توقف فجأة، فتنبهت لوقوفه هذا فاستدارت قليلاً متسائلة: ماذا.. لمَ توقفت الآن؟ نحن لم نصل؟!!

- أرى أن الجميع يعرفك هنا ويحبك.

اقتربت منه وهي تجيب: هذا طبيعي، فأنا أعيش هنا لأكثر من أربع سنوات، كما أنهم يعتبرونني طبيبة الحي، هل نسيت أني عملت طويلاً مع الطبيب.

التقطت كفه ودفعته للمشي قائلة: هيا بنا لنسرع، سنتأخر.

لكنه سحب يده منها ولف يديه إلى الخلف ليفك عقدة حزامه القماشي ثم فرده واقترب من "مارغريت" ووضعه على رأسها ولفه ليغطي به شعرها، ظلت مندهشة وهي تراقبه وهو يلفه عليها ثم علقت أخيراً قائلة: راد، أنا.. أنت تعرف أنا ما زلت بروتستانت.

قاطعها قائلاً: أعرف.. أعرف ذلك تماماً، ليكن هذا من أجلي فقط.

صمتت للحظات ثم ابتسمت برضا قائلة: حسناً، سأفعل لأجلك.

ثم وضعت يديها على رأسها رافعة عينيها إلى أعلى وقالت: ولكن كيف يبدو شكلي هكذا؟ هل أبدو جميلة؟

تقدم أمامها بضع خطوات وعلق قائلاً: ومن قال إنك جميلة من الأساس؟!! لقد ازداد النمش في وجهك..

بانزعاج قالت: وهل اقتربت مني لتنظر للنمش جيداً ؟!

دون اكتراث أجابها: إنه واضح مثل الشمس يا طفلة.

أشارت بسبابتها نحوه وقالت هازئة: طفلة!!هل لازلت مصراً على قولها؟! ربما في أقل من أشهر سأتعداك، وسأتجاوزك.

ضرب على يدها بخفه وقال: عليكِ أن تتوقفي إذن، إلى أين تريدين أن تصلي؟!

وبعد طول شد وجذب بينهما وصلا أخيراً إلى منزل ذلك العالم وما إن دخلا وألقيا السلام وجلس "رائد" بمحاذاته.

حتى تحدثت "مارغريت" قائلة: سيد ساري، هذا "رائد" الذي حدثتك عنه أنه يريد مقابلتك.

التفت إلى "رائد" قائلاً: ماذا لديك لتسأل عنه؟

أخرج "رائد" الساعة من جيبه وناولها إياه قائلاً: هذه، جئت أسأل عنها.

التقطها وأخذ ينظر إليها ويتفحصها ثم سأل: وما تكون هذه؟ لا تبدو ساعة عادية.

- نعم إنها ليست ساعة عادية، إنها ساعة الزمن، أي أنها تنقل الشخص من زمن إلى آخر.

للحظة وجم وجهه دون أن يبدي أي تأثير، ثم عاد لينظر إليها قائلاً: هذا كلام يصعب تصديقه؟ ولكن..

دقق النظر إليها وبدا بأن ثمة شيء قد شد نظره فيها، قلبها للجهة الأخرى، وحرك شيئاً من خلفها.

راقبا الموقف بصمت بينما اقترب هو منهما وقربها نحوهما وقال: انظر، هذا الجزء يتحرك، هل هي مكسورة ؟ هل انتبهت لهذا الجزء من قبل؟

بوجل أخذها "رائد "قائلاً: ربما تكون كسرت حينما قذف بها "ليو".

- هل أحركه إذن؟

سأل "ساري" فأومأ إليه "رائد" موافقاً، فحركه قليلاً حتى بدا من خلفها وجهٌ آخر للساعة ولكنها تحوي أرقاماً كثيرة ومتداخلة وعقرباً واحداً رفيعاً جدّاً .

- انظر، إنها أرقام كثيرة.

نظر إليها "رائد" بدهشة حيث إن العقرب كان مشيراً إلى الرقم ٣١٠٥ م.

فسأل: ولكن كيف سأحركه؟

وضع يده على العقرب وما إن هم بإدارته حتى وضعت "مارغريت" كفها على كتفه لإيقافه، التفت إليها وإذ به يرى وجهها شاحباً، شدت على قبضتها قائلة: راد، لا تفعـــــــل.

- لكن أريد أن أعرف فقط كيف ستعمل؟

مدت يدها قائلة: إذن أعطني إياها، سأحركه أنا.

ناولها إياه ثم وضعت إصبعها على الإبهام وأرجعت العقرب إلى الوراء قليلاً.

ظلوا للحظات في صمت يرقبون حدوث شيء ما لكن لم يحدث أي شيء ولم تومض الساعة!

مد "رائد" كفه ليأخذها لكن "مارغريت" أغلقت دونه كفها وأبعدتها عنه قائلة: ستبقى معي حتى أطمئن أنها لن تومض مجدداً.

علق "ساري" قائلاً: ربما تحتاج إلى نوع من الطاقة حتى تومض أو تعمل، بما أنه لا أزرار بها.

- وما تعتقد سيكون نوع هذه الطاقة؟

سأل "رائد" فأجابه "ساري" : سأكون صادقاً معك، لقد أخبرني مرة أحدهم بأنه قد رأى شيئاً مشابهاً لها.

- أين رآها؟

دقق النظر في عينيه وقال: في البلد التي لا تغرب عنها الشمس، في "بيت المقدس" طبعاً.

بحماس هتف "رائد": حقّـــــــــاً ؟

- ربما ذلك صحيح، فهي الإمبراطورية الوحيدة الصناعية الآن والتي ازدهرت صناعتها بطحن ضعاف الناس وسحق جثثهم.

قالتها "مارغريت" بكل برود وهي تدخل الساعة الزمنية إلى جيب ثوبها.

ثم نظرت إليه مبتسمة وقالت: هل اكتفيت بهذا القدر؟ لنذهب.

- ألن تعطيني إياها؟!!

هزت رأسها نافية وأتمت: في وقت لاحق.

خرجا من الباب بعد أن شكر "رائد" "ساري".

وما إن سارا بطريقهما حتى قال "رائد": ما رأيك بما قاله؟ هل تعتقدين بأنني سأعرف كيف تعمل إن ذهبتُ إلى "بيت المقدس"؟

صمتت دون أن تجيبه وتابعت سيرها، فأعاد متسائلاً: لمَ صمتي هكذا؟

شابت عينيها نظرة حزن وهي تجيبه قائلة: كنتُ أتوقع حدوث ذلك.

ثم صمتت قليلاً وسألت: هل أنت ترغب حقّاً بمعرفة ذلك بشدة؟

أجابها سريعاً: أكيد.. هذا يُهمني.

ابتسمت بخيبة دون أن تعلق ثم تابعت طريقها فتوقف رائد متسائلاً: ماذا هنالك "مارغريت"؟ لمَ تغير وجهك فجأة هكذا؟

أجابته دون أن تنظر إليه قائلة: لا شيء ولكن كنتُ أريد أن أقول لك لا تمني نفسك كثيراً، حتى أنا تخليتُ عن فكرة أن أجد أحد أقاربي هناك، فلن تتمكن بالنهاية من دخول "بيت المقدس" فجميع من رحل لم يعد، فقط إن كان ممكناً..

ثم أدخلت يدها في جيبها ورفعت رأسها ناظرة إليه ببسمة شاحبة وأتمت: لا تفكر فيها كثيراً.

أحس من بسمتها تلك وعينيها اللتين خلتا من البريق أنها تفيض بالكثير الذي لجمته وأبقته عالقاً في محجريها فاكتفى هو الآخر بالصمت.

ثم لحق بها بخطى ثقيلة يتبعها، توقف قليلاً ثم قال: يجب أن أذهب "مارغريت"، أنا لا أنتمي لهذا المكان مهما اندمجت فيه.

توقفت تستمع إليه، فتابع: لقد عدت المرة الفائتة لزمن يسبق زمني بثلاثين عاماً، لأجد نفسي شخصاً فُقد لم يعد له وجود، هل تدركين مدى صعوبة ذلك؟! لا أريد أن يستمر هذا.

ابتسمت لإخفاء تلك الدموع التي خذلتها وتجمعت في مقلتيها.

وقالت معلقة: إن كنت مفقوداً في ماضيك، وأنت لا تعلم حتماً مستقبلك! فهل أنت وهم إذن؟!! لقد استغرقتُ أربع سنوات لإقناع نفسي بذلك ولم أستطع، لأنني واثقة بأنك قد صنعت لك حاضراً هنا! وإلا لمَ أنت هنا الآن؟!

وجم وجهه مستنكراً ما وصل إلى أذنيه للتو، فالتفتت إليه صانعة ابتسامة واسعة وقالت: كنت أمزح فقط، هل تذهب لإحضار "ليـو"؟ سأذهب لتجهيز العشاء.

ثم استدارت مغادِرةً بخطًى سريعة بينما ظل هو واقفاً يراقبها وهي تبتعد وتبتعد.

بعد ذلك اجتمع ثلاثتهم في بيت السيدة "أسماء" وتناولوا طعامهم وبعد أن قدما امتنانهما خرجا مغادرين.

التزم "رائد" الصمت على غير عادته، لاحظ "حارث" ذلك فسأل: ما بك "راد"، لست كعادتك؟ حتى وقت العشاء؟!

لوى فمه قليلاً وعلق قائلاً:" ليو" أنا لا أفهم مارغريت، فهي تضحك ملأ فيها وفجأة يتغير مزاجها وتبدو حزينة، لقد كانت سعيدة جدّاً قبل أن نزور العالِم لكنها تغيرت بعد ذلك.. وأظنك قد لاحظت تجاهلها لي في وقت العشاء.

تنهد وأتم: أكره أن أتعامل مع الأطفال المدللين.

سبقه "حارث" بخطوات وقال: هكذا هم النساء عموماً.

بجدية سأل: لم أفهم "حارث"؟

ابتسم وهو يقول: أخيراً ناديتني "بحارث"! سأخبرك إذن، ولكن قبل ذلك سأسألك سؤالاً..

توقف ناظراً إليه باهتمام فسأل "حارث": أجبني أنت أولاً، لمَ أتيت لتبحث عنها؟

دُهش من السؤال فرفع احدى حاجبيه مجيباً: أليس هذا طبيعيّاً ، أردت طبعاً أن أطمئن عليها، لقد قلقت بعد أن أخبرتني بشأن ما حدث لكما.

- ولمَ تطمئن عليها؟!!

شعر وكأنه قد حوصر بسؤاله فأجاب: توقف ، وأخبرني ما الذي تريد الوصول إليه؟! أليس هذا بديهياً! كنتُ أنا من أخرجها من "دومدري"، أشعر بأن مسؤوليتها تقع على عاتقي.

- بالضبط، هذا ما أردت سماعه منذ البداية منك، هي تشعر بذات الشيء، مسؤوليتها تقع على عاتقك، هل تذكر حينما أخبرتك بأنك ستتحمل تبعات قرارك، تذكر جيداً، "مارغريت" أخذت من حضن والديها عنوة وبيعت وعاشت مع ذلك الطبيب، لا تعرف أحداً سواه، مهما ضربها، مهما آذاها كانت تعود إليه، وظلت هكذا حتى أتيت أنت لتمنحها حريتها، ولكنك غفلت بأن طائراً لم تنبت له أجنحة سرعان ما سيختنق بهذا العالم الذي يضج بالتناقضات، هل تدرك مدى المعاناة التي عانتها "مارغريت" في "بغداد" والذل الذي شعرت به والحياة الصعبة التي عاشتها هنا، حتى تتأقلم مع وضعها الجديد، مهما رأيتها تبتسم وتضحك، أنت أكثر شخص عرف أنها أكثر إنسانة تخفي ألمها وتضحك، ثم تأتي بكل بساطة بعد أن قابلتها ليومين فقط ، وتخبرها بقرارك الجنوني هذا؟! أنت أحمق حقّاً.

أشاح بوجهه عن "حارث" وتقدم بخطوات يسبقه وقال: أمكث يوماً، يومين، ثلاثة، شهراً، شهرين وأكثر، في النهاية ستومض الساعة الزمنية وأختفي، حينها ألن يكون الأمر مؤلماً أكثر؟! فأنا هنا أبقى وهماً ليس إلا..

لحقه وسار معه وعلق قائلاً: أليس هو مؤلماً الآن أيضاً؟

خفض رأسه وقال: لقد رأيت الأطفال يعانقونها وينادونها بماري اختصاراً لاسمها، رأيت الجميع يحيونها وهي تمشي بينهم، لقد أدركتُ ذلك "ليو"، كان الجميع يحبها ويثق بها، أعتقد بأن أجنحتها قد نبتت وليس كما قلت، وربما بقاؤها معي أكثر سيجعل أجنحتها واهنة غير قادرة على التحليق مجدداً، وسيكون بعدها من الصعب علي، تركها بجناحين كتلك.

توقف فجأة وأتم: سأرحل غداً دون أن أخبرها بذلك، إن شئت تعالَ معي.

- أحمق، تعرف أني لن أتركك، ولكن ألن تندم على ذلك لاحقاً؟

هز رأسه نافياً وارتسمت على شفتيه بسمة مريرة وقال: لقد نالت حريتها أخيراً، ومن دوني نالت حرية أكبر، هذا الأفضل لها.

- "راد"..

التفت ناحيته مصغياً باهتمام، فسأل حارث: أريد أن أسألك سؤالاً أخير، إن عدت إلى زمنك، هل كنت ستتمنى أن تعود مجدداً إلى هنا؟

لم يستطع "رائد" أن يجيب عن ذاك السؤال وشعر بأنه يغرق في لجٍّ جعله يتيه بحجم عمقه.

في الصباح، كان ليو قد جهز الخيل للرحلة التي لا يعلمان إلى أي وقت ستمتد.

وما إن أراد "رائد" أن يمتطي خيله، حتى سأله "حارث": للمرة الأخيرة أسألك، هل أنت متأكد بشأن قرارك؟

بثقة أومأ برأسه وامتطى الخيل وضرب على سرجه، وانطلقا سويّاً.

وما إن أصبحا في أطراف المدينة حتى أوقف "رائد" خيله فجأة مفكراً.

ما الذي يجعلنا خائفين من لحظة تتأرجح فيها الاحتمالات؟

ما الذي يجعلنا نهاب أن نعبرها، ونسجن أنفسنا في قفص من التوجس والقلق؟ وفي كل حال هي ستعبرنا بالنهاية، طالما أن قلوبنا ما زالت تنبض بالحياة، أوليس إن عبرتنا وخلفت في أعماقنا ذكرى نأوي إليها إن غالبنا الحنين، خير من أن تعبرنا ونحن مفرغون من كل شيء؟!

ضغط على لجام خيله ثم استدار عائداً وانطلق مع الريح ليصله صوت حارث صارخاً: مهلاً، إلى أين؟

أجابه وهو يبتعد بصوت مرتفع: اتبعنـــــــــــــــي .

كان يركض بخيله دون توقف، عابراً طرقات المدينة مارّاً بحدائقها.

حتى وقف أخيراً أمام الدار التي تسكنها "مارغريت"، لم يدم انتظاره طويلاً، لحظات فقط وفُتح الباب لتظهر من خلفه وتشاهده وهو ممتطى خيله المجهز للسفر!

شعرت بالخدر يدب في أطرافها فعجزت عن الحراك، عدا عينيها التي كانت تضيق وتتسع، وهي تنظر إليه بصمت.

تقدم بخيله وما إن أصبح بقربها حتى قال: لقد أتيت..

قاطعته سريعاً وقالت: لتودعني، أعلم.. لا بأس.

ثم أدارت رأسها وأتمت: رافقتك السلامة إذن.

ثم سارت بضع خطوات لتتجاوزه، لكنه عاد ودفع بخيله ليقف مجدداً أمامها، وببسمة علت شفتيه مد كفه إليها وقال: لقد أتيت بصفتي خاطفك القديم، وقد عدت لأستعيد ما سرقته سابقاً، فإن كنتِ لا تزالين تؤمنين بأني خاطفك، فعليك أن تركبي معي الآن دون اعتراض، وإن كنتِ تعتقدين بأنني وهبتك الحرية ذات يوم فقط، فعليك أن تبقي هنا، وتبعدي سريعاً هذا الوجه الباكي عن ناظري.

حسرت عينيها بكفها للحظات وهي تجاهد نفسها لرسم بسمة مبددة على شفتيها ولكنها لم تستطع، أزاحت بكفها أخيراً، ثم رفعت إليه عينيها الممتلئتين بالدموع وقالت: أنا أعتقد بأني مازلت أُومن..

ثم مدت كفها نحوه مصافحة وأتمت: بأنك خاطفي.

ابتسم بارتياح وقال: إذن هيا حضري أغراضك، فسفرنا هذا طويل ومرهق للغاية.

دلفت إلى البيت سريعاً ومكثت بضع دقائق، وصل خلالها "حارث".

وما إن رأى "رائد" حتى قال: عرفت هذا، عرفت أنك لن تفعل ذلك وترحل دونها، أيها الماكر، بالمناسبة أريد أن أضرب جبينك الآن، ذكرني أفعل ذلك إن ترجلنا.

هز رأسه نافياً وقال: كلا "ليو"، سؤالك البارحة هو ما دفعني إلى العودة، ففي كل الأحوال سيكون فراقها صعباً، لمَ إذن نقتل لحظات كنا سنعيشها بسعادة أكثر لمجرد توجسنا وخوفنا من ألم الفراق !!

تلك اللحظة كانت "مارغريت" قد خرجت مرتدية ثوباً فيروزي اللون، جعل "رائد" يقف للحظة واجماً، ثم مد يده إلى صدره ليلمس من تحت ثوبه ذلك العقد من حجر الفيروز.

وببهجتها وروحها المفعمة بالمرح حيتهما قائلة: أتشوق حقّاً لحلف المجانين.

ثم مشت ناحية خيل "حارث" لتركب معه، و"رائد" ينظر إليها باستغراب وقد لوى فمه، انتبهت لنظراته تلك وهي تناول "حارث" أغراضها فقالت معلقة بتهكم: ماذا، لمَ تبدو مستنكراً هكذا؟!! هل تريد أن تطلب مني الركوب معك؟! طبعاً لن أركب معك، ألا تخشى على خيلك؟ لقد أصبحت أكبر من حبة بطاطا محشورة داخل قماش؟!

- نعم صحيح، لقد قال ذلك سابقاً، وأنا أشهد على هذا.

قالها "حارث" وهو يرمقه بنظرات مكر محاولاً استفزازه.

اقترب بخيله منها ورمق "حارث" بنظرات متوعدة جعلته يدير رأسه مخفياً ضحكاته ثم نظر إليها بوجه جاد لم تعتده منه وقال بلطف: "مارغريت"، أطلب منك هذا المرة إن سمحتِ أن تركبي معي؟!

بوجه مستنكر علقت قائلة: أنت، لا تتحدث معي هكذا، شككت للحظة بأنك "راد".

أعاد طلبه قائلاً: والآن، هل ستركبين؟

رفعت حاجبيها مندهشة ووضعت ساقها على سرج خيله وقالت: أنت توترني بهذه اللهجة اللطيفة، أنت تثير الريبة حقّاً، لا شك أنك مريض، هل تشعر بالحمى؟

رفعها بذراعها وأجلسها خلفه، ضغط على حجر الفيروز على صدره ثم أمسك باللجام وقال: لست مريضاً، ولكـــــــن..

صمت للحظة ثم تابع وهو يبتسم: لقد أصبتُ بلعنة ذات مرة وأنا أمتطي خيلاً في ليلة مقمرة، وأريد أن أتخلص منها الآن، لذا تمسكي بي جيداً وإلا ستسقطين لأني سأنطلق بسرعة.

أمسكت بطرف ثوبه وقالت معلقة: أقلت لعنة!! أنت مصاب بالحمى حقّاً.

- حسناً، سأسقطك إذن ما لم تتمسكي بي جيداً، ولن أعود لآخذك، سأنطلق الآن.

ثم شد لجامه وضرب على خيله فرفع ساقيه في الهواء، فتشبثت به بقوة صارخة بوجل: أخبرني يا ماكر بأنك تريد أن تسقطني منذ البداية، ما كان علي أن أثق بك.

أطلق ضحكاته مع انطلاقة خيله عابراً كل الطرقات، ليقول أخيراً وداعاً "لسر من رأى".

وما إن عبروا أسوارها العالية وقطعوا شيئاً يسيراً من الطريق حتى أبصروا مجموعة من الخيول تقترب باتجاههم.

توجس "حارث" ريبةً وبدا مرتبكاً وهو يعلق قائلاً: ألا تعتقدون بأنهم جنود من "بغداد"؟

ضاقت عينيّ "رائد" وهو يحاول إبصارهم من بعيد ثم قال: ربما هم قادمون "لسر من رأى".

لكن كان حدس "حارث" في محله فما هي إلا لحظات حتى أصبح أولئك الخيالة أمامهم. مشكلين دائرة حولهم وكأنهم بذلك قد تمكنوا من حصارهم، تحدث "حارث" وهو يدور ببصره بريبة حولهم: ماذا يعني ذلك؟

أجاب قائدهم: لا تقلق، جئنا بحثاً عن "رائد العلالي"؟

ثم نظر إلى "رائد" وسأل: ألست هو؟

رفع احدى حاجبيه معلقاً: لدي اسم يا هذا!! لمَ تنسبني إلى "أبو العلالي".

قاطعه "حارث" قائلاً: إنه شيء دارج هنا.

علق قائدهم قائلاً: لا تتوجسوا بنا هكذا، نحن لا ننوي بكم شراً مطلقاً، لقد جئنا ومعنا طلب من والي "بغداد" لرائد، والي بغداد يريد مقابلتك.

بسرعة أجاب: وإن قلت لن أذهب؟!!

تشبثت به "مارغريت" بوجل وهي ترى خيولهم تقترب، وكأنها تستعد لتنقض على ثلاثتهم.

ابتسم حينها قائدهم وقال: حينها لن تضطر إلى ركوب خيلك، لأننا سنحملك إليه طبعاً، وإن شئت دخلت بموكب موقر.

تبادل ثلاثتهم النظرات فيما بينهم بريبة ثم أجاب "حارث": حسناً، سنتبعكم إلى "بغداد".

الفصل الخامس عشر: المهمة الأخيرة

ها هي "بغداد" تشرع أبوابها أمام رائد مجدداً، بعد أن ظن بأنه خرج منها ولن يعود.

عادت لتشرع له أبوابها، لكن لتستقبله بشكل مغاير تماماً عما استقبلته به أول مرة.

فقد كان الجند يسيرون خلفهم وكأنها مسيرة من نوع دبلوماسي يجهله.

عبر شوارعها وطرقها، وذاك الطريق الذي تقع آخره ديار" أبو العلالي".

حيث "بتّال" و"باتر" و"بارع" و"جلال" و.. "بيلسان".

وتلك الحديقة التي يقع خلفها ذاك الضريح حيث يجلس "كنان" دوماً.

وذاك الحي الذي يختبئ في منتصفه منزل "البادي".

كل تلك الأمور كانت تعبر مخيلته في لحظات قليلة، تثير بأعماقه شعوراً لا يدرك كنه، إلا أنها قد شكلت في النهاية جزءًا منه، فهل كنا يوماً سوى قلب وذكرى وتواريخ نذكرها؟!

في النهاية كانت المسيرة قد وصلت حيث قصر "الوالي".

الذي كانت بوابته تفوق بعظمتها بوابات ديار "أبو العلالي".

وما إن فُتحت أمامه البوابات حيث عبرت المسيرة، وسط حدائق ونوافير كثيرة حتى الأشجار كانت مقلمة بأشكال تفوق الوصف.

اتجهوا يميناً إلى بهو تتوسطه بركة مياه، وقصر أمامه، زينت جدرانه بالجص الملون وأرضياته ببلاط ذي أشكال هندسية أخبرهم القائد بأنها: قاعة استقبال السفراء.

ترجل الجميع وعُقدت خيولهم.

همس "رائد" في أذن "حارث" قائلاً: "ليـــو"، هل أنت مطمئن إلى هذا؟

أجابه قائلاً: لا أعلم ولكن حاول أن تكون متعقلاً أثناء حديثك، تذكر أنه "والي بغداد".

أشارت "مارغريت" بسبابتها نحو "رائد" وقالت موجهة حديثها لحارث: نحن نثق بك، من الأفضل ألا يتحدث هذا المتهور، أنا أفوضك للحديث بالنيابة عنه.

-الوالي يطلبني أنا، ثم أزيحي إصبعك هذا، أنت تحتقرينني به، سأكسره لك.

بنظرة جادة ردت قائلة: أنا لا أحتقرك، ولكنك تعرف نفسك، أنت ذو لسان حاد وطائش.

وضع "حارث" يده على كتفيهما لإيقافهما وقال: يكفي هذا، إنهم ينظرون نحونا، لنلحق بهم ونستطلع الأمر.

تبعوا القائد وساروا خلفه في ممرات طويلة وواسعة كانت مزينة بالخزف والتحف، وحتى بعض التماثيل كانت منتشرة ببعض الأماكن.
علق "رائد" قائلاً: لا أستطيع التوقف عن التفكير، أتخيل أني سأدخل أمام حضرة ملك، هل سيكون كوالي بغداد في مغامرات "سندباد" ؟! أمامه أطباق من الفواكه، وخلفه رجلان يحركان الريش لدفع الهواء، وأمامه جواري يرقصن؟!!
سددت له "مارغريت" ضربة على رأسه أسكتته وقالت معلقة: ما الذي تفكر به أنت؟ يمكنك أن تتخيل في دماغك دون أن تزعجنا بخيالاتك، ثم من يكون "سندباد" هذا؟!
مسح أثرها وقال: حسناً سأتوقف عن التخيل، ولكني أشعر بأن ساقَيَّ قد ثقلتَا، وقلبي يخفق بشدة. الحقيقة أشعر برهبة..
هزت "مارغريت" رأسها موافقة وعلقت: لكن هذا يبدو مختلفاً مع "ليو" الذي نِشأ أصلاً في قصر حاكم "دومدري".
استدار برأسه للخلف قليلاً نحوهما قائلاً: هل تصمتان رجاء؟
وأخيراً عبرا من الباب الأخير بعد أن فتحه الحاجب، لتظهر من خلفه مأدبة كبيرة يتوسطها "والي بغداد".
ما إن رآهم يدخلون حتى علق قائلاً: أخيراً تمكنت من رؤيتك..
فغر رائد فمه بدهشة، فذاك الوالي بدا شخصاً متواضعاً في جلسته وشكله وحتى لباسه، عكس ما تصوره، لكن كانت له عينان ثاقبتان كعيني "بتّال" تماماً، تشعر بأنك تنظر إلى عيني صقر من خلالهما.
أحنى "حارث" رأسه قليلاً وقال: السلام عليكم سيدي "والي بغداد".

ثم وكز "رائد" بكوعه لتنبيهه فأحنى رأسه هو الآخر و"مارغريت" ثم قال: إنه لشرف كبير لي سيدي "الوالي"، أن تدعوني لزيارة قصرك.
أشار إليهم أن يأخذوا أماكنهم على المائدة، فجلس "رائد" بالمنتصف وجلس "حارث" يمينه و"مارغريت" يساره ثم قال معلقاً: كنتُ متشوقاً لرؤية ذاك الشاب الذي أسر لب "بيلسان"، كنت أريد أن أرى أي وجه يملك، وأي عقل له، وأي قلب حوى صدره، وأرى من النظرة الأولى حقا بأنك مميز.
شعر "رائد" بالحرج وهو يتبادل نظراته مع "حارث" متسائلاً، لكن الوالي سرعان ما قال: يمكنكم أن تأكلوا الآن، بعد ذلك سنتحدث بالمهم.
تبادلوا النظرات فيما بينهم ثم تناول كل واحد فيهم ملعقة وبدأ يغرف له من الطعام أمامه.
أمال "رائد" رأسه يميناً نحو "حارث" وقال: لأول مرة أعامل بهذا الشكل أشعر بأني سأنفجر ضحكاً عما قليل.
رمقه بنظرة غاضبة وعلق: أحمق، الموضوع يثير الريبة، أن اللقمة غصت في حلقي وأنت تريد أن تضحك. لمَ أنا مرتبط بحلف من المجانين؟!
أمالت "مارغريت" رأسها يميناً نحو "رائد" وقالت وقد علت شفتيها بسمة مصطنعة: من تكون "بيلسان" هذه؟ أريد أن أحظى بشرف مقابلتها..
التفت إليها مبتسماً وقال: وجهك يقول عكس ما تقولينه تماماً، ومع الطريقة التي تمسكين بها السكين الآن أشعر بأنك ترغبين بطعني بها.

ببرود أجابت: أبداً.. هل أمزق لك هذه الدجاجة؟
أدار رأسه وهو يقول: ستمزقينني أنا، ما الذي جعلني أجلس بجانبك؟!
علق "حارث" متمتماً باستياء قائلاً: ألا تستطيعان أن تأكلا بصمت، الوالي وجنوده يراقبوننا، ونحن نبدو كالحمقى فعلاً، أشعر بأنه سيأمر بقتلنا الآن، إلهي لمَ أنا مرتبط بهاذين المجنونين؟!
ما إن انتهى "الوالي" من تناول طعامه حتى نظر إلى "رائد" الذي كان قد وضع ملعقته جانباً هو الآخر وقال: هل فرغت؟ هل نبدأ بالحديث الآن؟
أحنى رأسه موافقاً ومظهراً احترامه فتابع "الوالي": ألم تكن قاصداً "بيت المقدس" حينما خرجت من "سر من رأى"؟
بدا على وجه "رائد" الاستغراب والدهشة، فأكمل "الوالي" : كنت في الحقيقة أراقبك، لدينا شبكة مميزة، ولا أظنك شعرت بذلك..
ألقى "حارث" نظرة سريعة إلى "رائد" الذي اعتلت شفتيه بسمة ثقة وهو يقول: وما الذي يريده "الوالي" مني الآن بكشف أوراق سياسته هكذا أمامي ببساطة؟

ابتسم الآخر بإعجاب وقال: أحسنت لقد قطعت نصف الطريق، أرى أنني حقّاً لم أخطأ باختيارك، كنتُ مع السيد "أبو العلالي" في رحلة الحج، وأظنك لا تزال تذكر تلك القرية التي أحيلت شوارعها إلى شلال من الدماء، بعد التحري تبين لنا أن من قام بذلك هم كتيبة مبعوثة من حكومة "بيت المقدس"، أتعتقد بأنهم

بذلك ينتقمون من أميرها أو يقصدونه؟ إنهم يستفزونني أنا، كون "بغداد" هي مركز القوة الآن.

-وأنت سيدي لا تنوي أن تدخل معركة دون أن تعرف مدى قوة العدو الحقيقة..

ارتسمت على عينيه نظرة إعجاب وأكمل "رائد": وأفهم بذلك أنك تريدني أن أقوم أنا بذلك صحيح؟

أسند رأسه على يده وحك ذقنه وعلق قائلاً: تدهشني سرعة بديهتك حقّاً.

صمت رائد قليلاً وهو يعبث بأصابعه على الطاولة ثم قال متسائلاً: ماذا عن تلك القرى إذن ؟

أجابه سريعاً: لا تخف، لقد أصبحت "الحجاز" تحت وصايتنا، أما "نجد" فأمرها أسهل..

ثم اعتدل وأكمل: والآن، عن ماذا تود أن تسأل أيضاً؟!

دقق النظر في عينيه وقال بلهجة جادة: سيدي حينما عبرت تلك القرية التي ذكرت، كنتُ قد لاحظتُ شيئاً غريباً على بعض الجثث، أكاد أجزم بأن بعضهم لم يمت بالأسلحة التي نعرفها نحن، أي أن الموضوع سيدي في غاية الخطورة، وهذا يعني.. لي الحق أكيد في القبول أو الرفض حفاظاً على حياتي؟

رفع "الوالي" حاجبيه وأجاب: طبعاً أكيد، ولكن إن وافقت، فاطلب ما تشاء، وسيكون بيدك الآن.

بصوت بدا واثقاً ودون اكتراث قال "رائد": ولكن يا سيدي الوالي، أنا ثمني غال جداً.. وربما لا يستطيع والي بغداد تسديده.

شخصت عينَا "مارغريت" بوجل ووكزه "حارث" بكوعه بينما ضم "الوالي" أصابع كفيه ببعضها وأسند رأسه عليها وقال باهتمام: وما هو ثمنك يا "رائد"؟

دقق النظر إليه وأجاب: أن تحرر جميع عبيد مملكتك..

شخصت عيناه للحظة ثم أبعد كفيه واعتدل قائلا: ألا تعتقد بأن ما تطلبه يعد مستحيلاً.

أجابه: لذا قلت لك إن ثمني غالٍ، ألا تظن أن مهمتي تلك قد تودي بحياتي كذلك، فأي قوة تملكها تلك المدينة التي لا تغرب عنها الشمس؟! إنها محفوفة بالمخاطر، وأنت تعرف حجم هذا المخاطرة ومع ذلك أضمن لك بأني سأحصل على ما تريده.

- لكن أنت تطلب مني تغيير بنية كل هذا المجتمع، وتغير اقتصاده؟
- سيدي أنت تريد لمملكتك أن تزدهر ولا ازدهار فوق أناس يطحنون، ليصعد فوقهم آخرون، وأظن أن لديك من المستشارين والمخططين، القادرين على وضع الخطط الدقيقة لتطبيق ذلك وتخصيص جزء من مال الدولة يختص بالمكاتبة فقط لمساعدة من يريد أن ينال حريته، لا يهم أن امتد ذلك إلى زمن. المهم أن

يأتي زمان يكون فيه الجميع أحراراً، وأعتقد بأنك قادر على تحقيق ذلك سيدي.

ضرب بخفه على الطاولة وقال: إذن، فليشهد الجميع على هذا الشرط، "والي بغداد" لا يعد بشيء إلا وينفذه، والمسلمون على شروطهم.

وقف "رائد" معتدلاً مظهراً امتنانه واحترامه وقال: هكذا سيدي نكون قد اتفقنا.

- إذن سنجهز لكم كل ما تحتاجون إليه، وأتوقع وصول التقارير منك بشكل دوري، بإمكانكم أن ترتاحوا في القصر حتى ترتحلوا.

أظهروا امتنانهم ثم خرجوا مغادرين، وما إن وصلوا عند البركة حتى قالت "مارغريت": رائد، أنت تبدو مرعباً حينما تكون جادّاً، لقد أدهشتني بالفعل.

ابتسم "حارث" قائلاً: من كان يتصور أنك قد تشترط عليه شرطاً بهذه القوة، كان أي شخص غيرك سيرضى بالمال وحسب.

ضرب على صدره وقال باختيال: هذا لتعرفوا أنني لا أعد وعداً إلا وأنفذه، لقد وعدت أحدهم ذات مرة بأني سأكون "كسبارتاكوس" وأشعل ثورة للعبيد.

ثم رفع عينيه إلى السماء وأتم: وبالحديث عن ذلك، حقّاً أود لو أمكنني أن أرى كيف ستكون وهي حرة.

ابتسمت "مارغريت" بسمة مخيفة كتلك السابقة وقالت: آه صحيح، من تكون "بيلسان"؟

تظاهر بعدم السماع واستدار إلى "حارث" قائلاً: ما الذي تنوي فعله الآن؟

صرخت قائلة: لا تحاول تجاهلي، من هي التي خطفت لب عقلها؟ أريد أن أحظى بشرف مقابلتها وأقدم لها العزاء.

التفت إليها وأجاب بضجر: لا تكرري ذات عبارات "الوالي" مجدداً، إنها تشعرني بالاشمئزاز، ثم لمَ يبدو وجهك مخيفاً هكذا؟ ما شأن هذه الابتسامة المرعبة التي تتربع وجهك؟!

ثم استدار مغادراً فلحقته قائلة: أريد فقط أن أحظى بشرف مقابلتها وأقدم لها العزاء، أخبرني من هي؟

بانزعاج رد: يبدو واضحاً على وجهك أنك تريدين أن أكون أنا الجثة التي يقام لها العزاء، ليو اصرف هذه الطفلة عني.

تبعته وسارت بمحاذاته معلقة: طفله! بقي بضع سنتيمترات وأصل إليك، بل ربما سأتعداك..

توقف فجأة، ورمقها بنظرة ماكرة فابتسمت بغباء، مد كفه وأمسك برأسها ثم بدأ يضغط عليه بقوة لإنزاله وهو يقول: عليكِ إيقاف تمدد ساقيك ولسانك.

السحاب الذي يخرج منه الودق

في فجر اليوم التالي، فُتحت أبواب "بغداد"، فُتحت وقد خرج منها جيش بقيادة "بتّال" و"باتر" متجهين نحو "نجد".

بينما كان "بارع "، يجلس في المكتبة يقرأ الكتب ويراجع ما علّمه له "رائد" وكأنه بذلك يرسم صورة مختصرة لجيل سيدحر ظلمة الجهل.

ووقف رجل آخر يُدعى "كنان" يُحدث الناس بأمان قوي بفكره، ليرسم عقيدة أقوى ستكون قادرة على التصدي بكل قوة أمام أعدائها.

وقف "رائد" على ظهر خيله الذي حمله و"مارغريت" وبجواره وقف "حارث" ناظراً إليه وقال: إذن هل سنتجه إلى "بيت المقدس"؟

أجابت "مارغريت": إلى "أورشليم".

- إلى حيث تلتقي الأديان السماوية الثلاثة هناك.

قالها "رائد" وهو يلقي بنظرة على "بغداد" قبل أن تغلق أبوابها، لامس الحجر على صدره ثم أدخل يده وأخرجه، نظرت "مارغريت" إليه وعلقت بدهشة: حجر الفيروز!! هل كنت تملكه من قبل؟

أومأ برأسه مجيباً بـ "نعم" فأتبعت هي: إنه جميل جدّاً وساحر.

ابتسم "رائد" وأجاب: حقّاً إنه ساحر للحد الذي تشعر معه بالاختناق.

حنى رقبته وخلعه، ورفع يده عالياً.

فغرت "مارغريت" فمها بدهشة وقالت: ما الذي تنوي فعله؟

لكنها لم تكد تكمل سؤالها حتى قذف به عالياً في الهواء، فصرخت بخيبة: يا للحماقة!! هل تعرف قيمة هذا الحجر؟! حتى لو بعتك فأنت لن تحضر نصف ثمنه، دعني أنزل لأبحث عنه.

شد على لجامه ليشد عليها هي الأخرى ويعيق حركتها وقال: لا يُهمني، لدي ما هو أكثر قيمة منه..

أصغت إليه باهتمام، خفض رأسه ونظر إليها مبتسماً وقال: "مارغريت"، هل أستطيع أن أطلق عليك اسماً سهلاً؟

باستغراب نظرت إليه فأكمل: سَحاب، هل أستطيع مناداتك بالسحاب؟

لوت فمها وعلقت مبدية انزعاجها: سحاب!! ليس جميلاً أبداً، لمَ لا تختار غيره.

ابتسم وأجاب: أنتِ تشبهين السحاب، هي تمطرنا بالمطر، وأنتِ تمطريننا بالإزعاج.
اعترضت قائلة :وكأني سأوافق بعدما قلته؟!

أطلق ضحكه بارتياح ثم قال: وكأنني سأنتظر موافقتك!!
سأناديك بذلك حتى لو لم يعجبك.

ثم شد اللجام وركل السرج وانطلق بخيله يتبع "حارث".

ليتم بقلبه: لأنك سحابتي.

تمت وترقبوا المغامرة الثالثة.

ملامح من المغامرة الثالثة..إلى أورشليم.

لا يمكنني التوقف الآن، أنا أتمنى لو أبقى عالقاً في الزمن للأبد.

***

أينما وجد الظلم، فذلك موطني.

***

سنبنيه مجدداً، لا يهم أبداً عدد المرات التي يهدمونها فيه، سنكون في كل عصر وكل زمن وكل وقت، مهما اختلفت أسماؤنا وشخصايتنا.

***

سحاب، هل من الضروري أن يتخذ السحاب شكلاً معيناً ليكون جميلاً؟!

ألسنا نرى كل السحاب جميلاً مهما كان الشكل الذي يتخذه؟

***

ألا تعتقد أن كل السماوات في كل مكان، ممتلئة بالسحاب.

يسرني تواصلكم معي لطرح آراءكم ولمعرفة جديدي

على حساباتي في مواقع التواصل الاجتماعي.

تويتر: walla_aoudh

أنستا:far_horizon

سناب:walla.321

كل الود

المؤلفة